

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

ليلى الأطرش

ترانيم الغواية

رواية

ترانيم الغواية

ترانيم الغواية

رواية

ليلى الأطرش



منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

ISBN: 978-614-02-3099-6

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING
هاتف الرياض: +966509337722
هاتف بيروت: +9613223227
editions. difaf@gmail. com



e-mail: info@kul-shee.com
www.kul-shee.com

ومن هو ضعيف في الإيمان
فاقبلوه.. لا لمحاكمة الأفكار

مدينة الملك العظيم

مصلوب بحيرته ذاك المولود في مدينة منذورة لله.. ظاهرها قدسي، وباطنها إنسي.. معلق على الحدّ بين طهارة الحجر ونوازع البشر.

بأنوار أنبيائها تشع مدن السماء، وسواد ليلها غواية ورغبات دفينة.

هالات ضياء تطوق مدنا تقدّست، وفي عيون قاصديها ترانيم وصلاة وسجود، وتبتّل في أساطيرها والحكايا، بينما تغمز المدينة من خلف قناع لمن يعرف، أن لا بأس.. ستّار ليلنا وأبواب مغلقة.

وقادر ذاك الرباط، لا فكاك منه، بين إنسان ومكان سقط فيه رأسه.. قيد يشدّه إلى أرض سمعت صرخة حياته الأولى، وسلاسل حنين يزرعه في تراب شهد غزوات الوقوف الأول، وصمود خطواته البكر.

وطن.. درة العقد في قاموس عشق البشر.. يجور ويقسو فيسمو أكثر.. يمسح الاغتراب ذنوبه بالتوق إليه..

غانية تطهرت ببعدها، ولعوب تبتلت بالشوق إليها.. ومهوى فؤاد المبعد عنه قسرا أو اختيارا.

قالوا: وجود العمّة وسيلتك الوحيدة لدخول المدينة، تتشدّد إسرائيل وتمنع العرب من زيارتها.. صحيح أن الأعمار بيد الله، لكن ميلادة كبرت، ويطول صمتها، وكثيرا تمتعض وتنهي المكالمة. ربما كانت بدايات الزهايمر!. لكن جرّبــي!

ليست شقيقة لأبــي، وإن كانت عمّة أجيال العائلة، الكبار منهم والصغار.. مات أخواها وهاجر ابن أخيها الوحيد ولم يعد.

كم بقي في ذاكرة امرأة رسمْتها من حكايا الآخرين وخيالات الطفولة؟ العمّة ميلادة أبو نجمة؟

أندفع إلى مهمة تبدو مستحيلة، تحقيق حلم لا يبارح الخاطر، أعجزني عنه واقع البلاد ووضع المدينة، تصوير فيلم عن القدس.. وأحياه الأمل بتوفر شركات إنتاج إعلامي، تؤجر تصاريح التصوير الخاصة بها مع خدماتها.. وربما حققت للعائلة حلمها، فأعود بأوراق الويركو [1] بأن المرج في عين كارم، كان إرثا مشتركا للعائلة يوم صادره متصرف سنجق [2]. وبما يثبت أن سالم أبو نجمة كان مواطنا وملاّكا في التشيلي.

قال العارفون: حاول سالم استرداد المرج فصارت خسارته اثنتين، فترك البلاد ومن فيها.. لكن لا يضيع حق وراءه مطالب، وأوراق الويركو تثبت أن المرج ملكية رقبة مشتركة، متوارثة أبا عن جد، وكان من العدل أن يصادر العثمانيون حصة سالم وحده.

المرج أرض شاسعة رهنها والد العمة سالم أبو نجمة للمتصرفية، يوم عمل في مد سكة حديد يافا – القدس، نهاية القرن التاسع عشر، فصادره الأتراك، ثم باعوه للرهبان الفرنسيسكان، فأقاموا عليه ديرهم وملاحق أخرى، وأوراق الحادثة كلها مع العمة.. ثم استشيري محاميا من عرب فلسطين المحتلة عام 1948، حول الاسترداد أو التعويض في القانون الإسرائيلي، وحاولي إقناع العمّة بإعطائك أوراقا تثبت جنسية والدها التشيلية، وملكيته لعقار هناك.

– الأوطان ضاقت على وجودنا، والخطر يتزايد على شبابنا.

والهجرة هوس أصاب العائلة منذ إعلان دول أمريكا الوسطى والجنوبية منح مواطنتها، لمن تجنّس أجداده بواحدة منها.

لا يشبه ما في الكتب مدينة تسكنني.. أهمل التاريخ

تفاصيل أيامها، واختصر المؤرخون، ترفعا أو بسوء نية، روايات من سكنوها.. سقطت قصص الناس من سطور أحداثها الكبرى، أضاعوا البشر، فغابت من التاريخ تلك الحكايا الصغيرة، تبعثرت فسيفساء تسطّر ملاحم الناس وسيرهم، بهتت وغابت في سطوة السياسة وصانعيها.. وجافة كتبهم.. فمن يغفل نمنمات الأيام يعطل الخيال ويحبس الأفكار.. تسرّبت الأحاسيس من جفاف التاريخ المدوّن، وتلاشت منه العواطف.

والعمّة من زمان المخاضات الكبرى، والتحولات العاصفة، ولدت والقدس تخلع عهدا وتعيش آخر، فتشابكت في أيامها خطوط السياسة والدين، وتغير المجتمع وتبدل الأحوال والأفكار ونمط الحياة.. فرشاة سوريالية لوّنت المدينة ببشر وأقوام فاض عنهم سورها العتيق.. وفي توالي الحقب، وتغير الحكام وتتابع الأحداث، طغت فقاعات العام على الخاص كله، فطمرت قصص الناس وبعثرتها مثلهم.

– راوية بنت عيسى ستزور القدس لفيلم جديد، وستعيش مع ميلادة في الحوش.

من رحم الماضي تولد رؤى وظلال أشخاص، وأسئلة تقيِّد الخيال، تجهض كل تصوٍّر للآتي.. وزوابع القلق

زئير.

العمّة ميلادة، ووالدها سالم، وأخواها حبيب وإبراهيم والمرج، ومد سكة حديد يافا القدس، طرائف لم تغب عن أي اجتماع للعائلة.

أنهار من ذكريات فاضت في انتظار زيارتي.. أيقظت طفولات غارت في الزمان، واسرار حوش ابو نجمة، ودفق حكايات حملت بؤسها والمرح.

يشعل الوقوف على عتبات الكهولة حنينا جارفا إلى عمر مضى.. وعلى حافة النهاية تسطع قصص البداية، نوادر جهالة ومرح براءة.. ويقاوم الكبر زحف النسيان باجترار ماضيه، فيغرق بها شطآن الحاضر بلا ملل.. وبتحايل خبيث، تختم الكهولة على ذاكرة الآخرين "ولدنة" الطفولة، لعل بصمة منها تصمد للزمن، فتروي الأجيال ما سطّره الأسلاف، بتفاخر لما تركوا، أو تحسّر على ما اضاعوا، قبل أن تتناثر قصص الآباء والأجداد فوق أرصفة الحياة، وعلى جنبات الانشغال.

أنا والنسيان في سباق على ذاكرة امرأة وحيدة، بيننا البعد والاغتراب وأوضاع المدينة.

مشروع زيارتي للقدس شغل عائلة أبو نجمة، القاصي منها والداني، ربط المقيم بالمهاجر. أعاد صلات أضاعها

الشتات في تنائي القارات.. أيقظ ذكريات وأحيى آمالا بالتعويض والهجرة.

فيض من نصائح شغل هاتفي: فرصة لن تعوّض.. لا وراك ولا قدّامك.. لو تكلمت العمّة فستعودين بحكايا لا يعرفَها غيرها.

وعاشقة الحكايا أنا.. أمارس لعبة الخلق من سطور الآخرين.. أتخيل شخصيات كما لا يراها أحد، أتقمّصها ثم أترك لغيري أن يجسّدها برؤيتي.. مخرجة عازبة.. لا أعترف بأي عام يغافلني ليقفز فوق الأربعين.. أثارت أفلامي انتباه النقاد وإن ظلت دون طموحي.. وحلمي الأكبر إنتاج فيلم عن القدس، عن بشر ومدينة، أحصل به على جائزة عالمية واعتراف بمسيرتي.. وكثيرا يخامرني الأسى، ففي لهاثي خلف حلم منع تحقيقه واقع البلاد، أضعت فرص حب بدت لي واعدة.

فوق غمامة من حلم سكن دقائقي والساعات، أنتظر زيارة من قالوا إن حاضرها ينساب إلى ظلمة نسيانها.

– أتقصدين ميلادة الحنش؟ تساءل القريب العجوز بدهشة.

لقب للعمة تاه في الهروب الكبير، تسرّب على مفارق الهجرة والشتات.. وما لا يتداوله أهل القدس من

قصصهم، يضيع في زحام أحداث مدينة عادتها تبدل الوجوه، وتزاحم الحكايا في توالي الحروب عليها.

ميلادة الحنش؟!

لقب للعمة انتشله العجوز من عمق الذاكرة، فاختلفت في تفسيره روايات العارفين.

– كان هذا في عين كارم وميلادة صبية.. حلوة ميلادة؟ لا.. جذابة؟ نعم.. كانت إذا مرت في طريق، أو دخلت مكانا، تابعتها عيون النساء قبل الرجال. مختلفة عن بنات جيلها؟ أكيد.. قوية وكاسرة؟ صحيح.. والقصة وما فيها أن ميلادة خرجت تتنــزه في أحراش دير المسكوب....

وسكتت امرأة جاورت العمّة يوما، لتشدّ ثوبها من صدره، ثم هزته مرات لتتبرأ مما ستقول، وتؤكد أنها مجرد ناقلة له، ولا تتحمل وزره:

– ويا رب تسامحني.. وحدها أو مع حدا!؟ ربنا وحده العارف.. داست على حنش تكوّم في شمس الربيع، فهاجمها.. تسلق ساقها وطوّق خصرها، وبدأ ينقبض ويرتخي.. قالت لم تره! معقول؟! على طوله وضخامته؟ أكيد.. العشق بيعمي!.. قالت لمزارعين هبّوا لصراخها: قتلته وحدي فلم يصدقها احد.. ونبع الشك من سكوت

الرجال.. رفض أي منهم أن يحكي عما رآى.. كل ما قالوه بعد إلحاح.. الله يستر على ولايانا.. وصلنا ورأسه مسحوق!.. لكن.. من يقتنع أن صبية تقتل حنشا!. وحدها؟! يعجز عن هذا رجل بطول وعرض! وبعد الحادثة، إذا تحدثت النساء عن ميلادة، تغامزن وقلن "الحنش راح والحنش جاء".

والروايات عن واقعة اللقب، وإن اختلفت في التفاصيل، أحالت كلها، صراحة أو تلميحا، إلى علاقة العمّة بالخوري متري الحداد، وأجمعت على خطورة اقتراب ـــي من الواقعة، فملامسة الموضوع قد تقضي على الزيارة وأهدافها.

وحدها عائلة المفتشة جميلة شحادة، زوجة حبيب شقيق العمّة، أصرّت على رواية نسفت حكاية الحنش من أساسها، فرفضوا ما قيل جملة وتفصيلا.. والعداء بين المرأتين كان قطيعة امتدت حتى وفاة أخيها وزوجته.

– المفتشة هي من أطلق اللقب بعد كابوس سكن لياليها!. حنش اسود يهاجمها ويطوق خصرها، ثم يبدأ في عصرها.. وبآلام لا تحتمل، وحشرجة اختناق الرعب تصحو.. كان ذلك بعد ولادة ابنتها ندى، والمشاكل حول نسبها.. ميلادة لم تترك عائلة حبيب حتى دمرتها.. وهي

مثل الحنش.. إذا التفّت على شخص عصرته بغيرتها، وقتلته بحقدها.. قال المحامي المعروف وابن شقيق المفتشة.

وفي روايات من عاصروا العمة أن علاقتها بأخويها إبراهيم وزوجته المعلمة وردة، وحبيب وزوجته المفتشة جميلة، ظلت عاصفة، لم تهدأ يوما.

بين يأس ورجاء، مضت شهور انتظاري لتصريح بزيارة القدس.. حلم متوجس تمدد على طول الطريق إلى مدينة لا أستطيع دخولها، يقطع جسر الملك حسين "أللنبي" على نهر الأردن، وحتى التماع ذهب قبة الصخرة.. فيلم عن بشر مدينة الأديان في أزمان تحولاتها الكبرى.

القلق نسيج عنكبوت يسدّ منافذ الأمل.

رتبت مع شركة انتاج للتصوير في القدس وجوارها، واستخراج التصاريح لأماكن محددة، وتحضير لقاءات مع مؤرخين وباحثين. واستئجار كاميرا وفريق عمل حالما أصل.

أنا وخيالي في سباق على ذاكرة امرأة وحيدة.

قالوا: نسيان العمّة في بداياته.

على الإنترنت أعراض الدرجة الأولى من داء

الزهايمر: اكتئاب وغضب.. عدم تقدير للوقت.. نسيان أماكن معروفة.. فقدان الذاكرة لفترات قصيرة.. عودة لأحداث الماضي مع بهتان الحاضر وغيابه.

ألوّن الأيام بالأمل، وضعت تصورا لفيلم يوقظ بشر المدينة من عباءة التاريخ.. يناصر نوازعهم على قدسية الحجر.. ويروي عن حب عاصف تحدى الأعراف والكنيسة، وعن نساء الظل في قدس الأديان.

ابن أخيها إبراهيم، المهاجر في أمريكا منذ عقود، استنكر سؤالي: الزهايمر؟! لم ألاحظ.. احيانا، في اتصالي القليل معها، تتوهج ذاكرتها بالتفاصيل حد الإدهاش، إنّما عن حوادث بعينها.. نافذة الصبر نعم.. حساسة تثور لأية كلمة صحيح.. لكن!. زهايمر؟ لا أدري؟! ويسعدني أن فكر أحدكم بزيارتها، فظروفي لا تسمح بالعودة، وربما فعلت في يوم قريب.. وتمنى لمشروعي النجاح، واعتذر عن عدم الخوض في علاقة العمّة بأخويها.

في كتب الطب بارقة أمل: يمكن استعادة الذاكرة من بدايات المرض.. تحدّث مع مريض الزهايمر عن الماضي بشكل مستمر، انبش أسراره، ردّد له حكايات تريد منه تفاصيلها، وذكّره بما تود أن يستعيد، فتسحب الأحداث من نسيانه.

تضيع أحلامنا فنتشبث بها أكثر، نتمسك بما كنا نتردد فيه، ونُطبِق على هروبها.

رفضت السلطات الإسرائيلية طلب الزيارة فتوسطت البطريركية الأرثوذكسية.. طلبت السماح بزيارة مسنّة من الطائفة لأسباب إنسانية، مريضة، تعاني النسيان، ولا أقارب لها من الدرجة الأولى في البلاد، ولا بد من حضور قريب يدبر ما تبقّى من حياتها.

سمحوا لي بالإقامة شهرا.

حملت فيتامين بـــي 12، وفيتامين دال، وأوميغا 3 بلس، ومقويات أخرى، لعلي أسترد ذاكرة يتشوّش فيها الزمان والمكان، وتختلط الوجوه.

ترسم الأماكن صورها من تبدل البشر عليها، فترتدي فروقها والاختلاف.

بعيدة سماء القدس، عابسة غيوم ربيعها تنتظر إشارة الطقس. حائرة أتنقشع أو تدلهمّ؟.. وزئير الهواء من نافذة سيارة الأجرة يصد انطلاقها، ويصفع وجهي.. وضائعة بهجة أغاني الراديو في هجمة الحسرة.

لماذا أيتها الجبال المسنّمة، ترصدن الجبل الذي اشتهاه الله لسكنه [3]؟

ومركبات الله ربوات وجبال. ونواطير أورشليم تحتجز القمم.. تجثم فوقها، ومستعمرات حجر وقرميد سدت فضاء الطريق، اصفادا تكبّل مدينة.

تغيّر طريق الطفولة إلى القدس.

ماذا بقي من امرأة الذاكرة؟ قاسية الملامح؟ ووجه صادق التجهّم واشتهى الوحدة؟ وهل يساوي ما قد أحصل عليه من ذاكرة تراوح الثمانين، كل ساعات الانتظار، وبهدلة الجسور، والتدقيق والمساءلة؟

عربشت الأسئلة.. جلّلت الطريق والحدود والحواجز، ونقاط التفتيش، غطّت دروبا مرصوفة بالحجر، ضيقة، من باب الخليل إلى حوش أبو نجمة في البلدة القديمة.

– سأترك دارها إلى فندق لو تعذّر البقاء مع نسيانها.. طمأنت نفسي.

حوش أبو نجمة

"يا سامع الصلاة إليك يأتي كل بشر".

لا خصوصية للحضور في مدينة تمارس اختلاف الوجوه، وتبدل القادمين، ومن يقصد وجه الله. متخمة بالخاشعين في حضورها، ومنذ كانت.

بلا تدقيق، وبفضول غير مكترث، راقب المارة، والسيّاح، وروّاد المقهى، وبعض أصحاب المحلات نــزولي وحقيبتي من سيارة الأجرة.

الفضاء يحرس بابين في السور العتيق يفتحان على ساحة عمر بن الخطاب.. ضيق باب الخليل، واتساع باب يجاوره.. فتحة كبيرة بلا سقف شقّت في السور العتيق، غريبة لا تشبهه.. والساحة غصّت بسياح ومتسكعين، وعسكر واسلحة في جيب يرصد البشر.

بجلال يفرض التاريخ حضوره الطاغي على مدن ولدت معه.. لآثاره سطوة إنطاق حجارة الزمن، فتروي قصص من سطّروا حكايتها.

باب الخليل، وأحيانا باب يافا، وفي مرات باب محراب داوود.. افتدته خرافة تركية من الذبح العثماني.. والفتحة الواسعة بجانبه أنقذته من معاول الهدم، هجينة لم يكترث أحد بتسميتها.. منحت الحياة للباب العتيق فصمد للزمن.

– لن يدخل عظيم المكانة مدينة الله راجلا! ولن تتعفّر قدما حليف الخلافة حتى بتراب الأرض المقدسة، فطرائق الحجيج إلى بيوت الله تتحدد بطبقات البشر!. والحجّاج مراتب ومقامات، وضيفنا العظيم سليل الإمبراطورية الألمانية، مناصر لنا ضد أوروبا، زاهد في أمصار خلافتنا.. مشكلة وحيدة، طلبه الدخول من باب الخليل!. ومكتوب في الغيب أن تخضع بيت المقدس للفرنجة من جديد، لو دخل موكب أحد ملوكهم من هذا الباب.. لهذا.. رغم مكانة حليفنا، وتقدير الباب العالي لصداقته، لن نسمح أن يعبر منه.. وإذا كان اسلافنا السلاطين العظام، قد سدوا باب الرحمة وباب التوبة بالحجارة وإلى الأبد، ليمنعوا نبوءة أن عودة الفرنجة إلى بيت المقدس ستكون منهما.. فلن نسمح نحن لحليف صليبـــي، مهما علت منـــزلته وتسامت مكانته بالدخول من باب الخليل.. ولأنه لا علم للامبراطور بالنبوءة، سنفتح بابا آخر بجانبه يتسع للموكب، فيعتقد أنه يدخل من حيث طلب.. نرضيه دون أن يتحقق الوعد.. قال حاكم المدينة العثماني لرجالات القدس.

وحدها السياسة تعتدي على التاريخ فتجد من يؤيدها.

هدموا اتصال السور بين باب الخليل والقلعة.. شقوا بابا هجينا في السور العتيق.. واسعا منفتحا على السماء.. جرفوا دكاكين البطريركية الأرثوذكسية خلف السور، رصفوا باحة تتسع لمراسم استقبال الحاج العظيم بحجارة صغيرة، فتوحدت مع محيطها.

تهطل روايات التاريخ في مدينة الملك العظيم أورشليم.. كل حجر يحكي قصة من سطور الكتب.

في صبيحة يوم أحد، نهاية القرن التاسع عشر، غصت الساحة بعيون الانتظار.

ومن الباب المكشوف على السماء دخل صفا كشافة يقرعون طبولهم، ورفرفت أعلام تركية وألمانية، تبعهم صفان من فرقة موسيقى الجيش، فصدحت الأبواق والقرب والصنوج بالمارش العسكري، وانتشروا حول الباحة.

وبين تهليل بشر، وقرع نواقيس، وأناشيد تمجد الخلافة، ومن اتساع الباب أطل صفان من الخيالة الألمان.. يحيطون بعربة مذهبة، قبعاتهم ملونة، فضجت سماء المدينة بالترحيب بضيفها.

ويده في قفاز أبيض، لوّح الامبراطور الألماني فيلهلم

الثاني لطوفان البشر، فهتفت المدينة بحياته.

القدس، وإن لم تعرف احتفالا، في أربعة قرون من حكم العثمانيين، بفخامة موكب الإمبراطور، وروعة استقباله، شغلتها التفاصيل.. لكن ذاكرة التجار ومربـــي الخيول في عموم البلاد، عجزت عن ربط جمال الجياد الذهبية الأصيلة في عربة الضيف، ورشاقة تكوينها، بأية سلالة عرفوها.

بجلال، متكئا على صولجان ذهبـــي مرصع بالماس والحجارة الكريمة، ترجل الامبراطور.. ملأ رئتيه بهواء بيت المقدس.. أجال بصره في التاريخ حوله، ورأى مدينة الله لأول مرة.

حاكم القدس التركي، وهو يئن بثقل النياشين والقصب المطرز على سترته الرسمية، وعلى وقع مارش عسكري، تقدم وأدّى للضيف تعظيم سلام، وبين يديه قدّم زعماء المدينة وشيوخها وبطاركة طوائفها.

وفي اختلاط موسيقى الجيش، وأجراس الكنائس، وترانيم الكشافة ورائحة البخور، وفرحة المتفرجين وتهليلهم، سار الإمبراطور بين صفين من البطاركة إلى كنيسة القيامة.. وفي قدّاس حاشد تضرّع المصلون أن يبارك الله حجّ الضيف الكبير.

– أدام الله عزّ عظمتكم وربط الخير بقدومكم.. ووفقكم في كل قول وفعل، أملنا معقود بكريم الأصل رفيع المكانة، أن تعين أهل البلاد المقدسة، بمعروف سيذكره التاريخ لكم، ويضاف إلى صفحة مكارمكم، أن تتوسطوا لدى الدولة التركية السنيّة، ليرأفوا بالعباد بتخفيف الضرائب الباهظة.. فقد ابتليت البلاد بسنوات عجاف.. قحط وجراد لم يبق ما يسد رمق الناس. وأملنا بكم بعد الله، أن تقنعوهم بالتراجع عن الفرمان السلطاني بالتجنيد السخرة لجميع ابكار الرعايا، وإجبارهم على العمل في طوابير الشغيلة "العَمَلة" وإعدام من يتخلّف... قال مفتي القدس وعموم الديار، وناول كبير الياوران عريضة بأختام رجالات البلاد.

رغم التعظيم والتبجيل بدأ بهما بطريرك الأرثوذكس كلمته نيابة عن الطوائف المسيحية، تجهّم الامبراطور واربدّ وجهه:

– لا قطع الله الحسنة من أعمالكم.. الطوائف جميعها في البلاد المقدسة تتطلع بأمل كبير، أن يعم الخير من حجكم المبارك، فيضاعف الرب أجركم.. وتطمع بأن تشملنا مساعيكم الخيّرة لدى الحكومة السنيّة، فتترك لنا حرية التصرف بأموالنا، فتعدّل قانون إصلاح الكنائس وبنائها، فهو لا يتم إلا بطلب وموافقة.. وأن تعفينا من دفع ثلثي رسوم السيّاح والحجاج إلى كنيسة القيامة، لعائلتين

مسلمتين لاحتفاظهما بمفتاحها [4]. وأن تدفع لهما من الضرائب العامة، ما دامت تجبيها منا كما غيرنا، ولتعلم يا صاحب العظمة، أن الثلث الباقي يذهب إلى بيت مال القدس، ولا يصرف لنا إلا بطلب وموافقة حتى ضاق حالنا.. ونناشدكم باسم كنائسنا جميعها أن يكتمل معروفكم بإلغاء قانون الستاتيكو [5] ال....

بالضيق قاطعه الإمبراطور، رفع يده فأسكته.

– جئت بيت المقدس حاجّا لا محتجّا "بروتستر" [6]. والأصدقاء الأتراك أدرى بشؤون خلافتهم.

وبجفاء المتكبّر وقف.. أمر بردّ العريضة، وترك القاعة.

عصف ليل المدينة باتهامات الغضب.. عن مبالغة النصارى في الحفاوة بألماني متغطرس، لأنه من ملّتهم!.. ولم يتذكر المسلمون أنه مسيحي وهو يحالف التركي المسلم! أو وهم يبددون الأموال على احتفال باذخ لمن لا يستحق؟ فقط.. حين خذلهم.. قالوا مسيحي؟

وليل القدس بدّد فرحة نهارها.. وعلى قهرها والانقسام نامت مدينة السماء.

كاسات الهواء

على طرف ساحة عمر بن الخطاب دكاكين، ومحلات عصير ومطاعم وسنتواري وصرافة.. أرجل عنكبوت تشعبت دروب، في فضاء وعتمة، إلى البلدة القديمة، بين تكدّس البضائع وتزاحم البشر.

على يسار الساحة طريق ضيق مرصوف بالحجارة، يحاذي مدرسة مار متري، ويمر بحوش أبو نجمة.

ومثل بيوت حارات محصورة بالسور العتيق، يختفي حوش أبو نجمة وراء باب حديدي مغلق في جدار مرتفع، يحد أحد جانبـي زقاق ضيق مرصوف بالحجارة.. وغارق الدرب في الصمت، خالٍ وممتد.

تستر دور البلدة القديمة ذاتها عن غريب. أبواب مغلقة في جدران عالية تحدّ ضيق أزقتها، تتعربش إليها بدرجات متوالية، أو تهبط منها.

هي القدس.. مدينة الأديان والأدراج والأقواس.

في التهيّب من لقاء امرأة الذاكرة وحكايات الآخرين

طال وقوفي بالباب.

أما زالت لا تبتسم؟.

كانت.. إذ تترك للشمس دارها، تجلس العمّة على كرسي يلازم بابها.. تطرّز بالضوء وخيطان الألوان، تتوقف لأي خطو يقترب، وبهدوء ترفع بصرها. ترمق العابر بعبوس صامت فيتسمّر، ويرتد نظره عن خصوصيتها.

العصر وحقيبتي وباب في جدار.. وطريق الحجر أدراج متوالية، خالية، وسكون الظلال يمطر وحشة.

والوقوف بباب الحوش تجربة الطفولة في ذكريات كبار العائلة.. نوادر تثير الضحك، تلوّن الحنين بالمرح.. عن إيمان الأمهات بقدرة العمّة على شفاء أي مرض.. ورعب الصغار من صوتها في دورهم، فيعلو صراخ الرفض، وتصدّ الأبواب المغلقة محاولات الهرب، فحضورها توأم للعلاج بكاسات الهواء.. التطبيق الشعبـــي للنظرية العلمية، أنْ لا فراغ في الكون.

العمّة، وإن كانت لا تبتسم، لم ترد قاصدا.. تعرف حاجته من وراء الباب، وتتركه ينتظر، في مطر أو ثلج، إلى أن تخرج بأحد ثوبين، الرمادي أو الأسود، يستر حتى كاحلها، وحذاء أسود مغلق بلا كعب، وإيشارب من الدانتيل

الأسود، وأحيانا الأبيض، يغطي شعرها حتى كتفيها.

في شتاء طويل يندف الثلج وأمراض البرد، ينـزوي الدفء الخجول من كوانين الفحم في الدور والأحواش، وترتفع مكانة العمّة بالحاجة إلى كاسات الهواء، فتسحبها إلى منازل أقاربها.

وذروة السخرية حين يتبارى الكبار في وصف طقوس العلاج وتقليدها.

بأهمية بالذات، وبتعالٍ لا يعرفه كبار جراحي القلب، وإحساس بالتميز لم يرتسمْ يوما على وجه أكثرهم شهرة، لا مايكل دبغي، ولا مجدي يعقوب، تجلس العمّة منتصبة الظهر حتى يثبّت الكبار مريضهم ويكشفوا ظهره، فتبدأ علاجها.

تسمّي، ثم ترمي قصاصة ورق مشتعلة في كأس زجاج رقيق، وتنتظر إلى أن يسخن الهواء ويخرج بالتمدد، وفي صراخ الصغير تلصق الكأس على عري ظهره وتثبته بيدها.. تنطفىء الشعلة ويمتلىء فراغ الكأس بانتفاخ الجلد ويلتصق به.. وعدد الكؤوس مرهون بتقديرها للحالة، ترصها في صفوف خلف رئتي المريض، حتى إذا تنفس بهدوء نـزعتها تباعا.. ومفزعة صرخة تدفق الهواء إلى فراغ الكأس.

كثيرا، في حالات الالتهاب الحاد وانسداد القصبة الهوائية، تقرر العمّة الفصد.. وبشفرة طهّرتها بالنار تشطب انتفاخ الجلد، لتسيل دماء أفسدها المرض!

نسيت القدس كاسات الهواء مع تعدد أطبائها، واختفت الندوب والجروح من على ظهور الصبايا والشباب عند برك السباحة.

مقدرة علاجية ثانية للعمة، لم يهزّها التغيّر السريع للمدينة، وظلت مكانتها ثابتة، بل هزمت علم الأطباء، وصمدت أمام تعدّدهم.

الرّقية.

ورقية ميلادة أبو نجمة باتعة مانعة، تبطل كل أثر لعين أو حسد.

في أصابعها رشة ملح وقطعة شبّة صغيرة، تدور العمّة بيدها وصلاتها حول رأس المريض.. ثم تبدأ في لعن "العين الكافرة الملعونة، التي نظرت ولم تسمّ، وأكلت ولم تشبع". و"الله يحميك من عين أمك وأبوك واللي شافوك وما صلّوا على نبي"، وتأمر العين الشريرة بمغادرة المريض.. والعين ترفض وتقاوم، وهي تواصل البسملة واللعن، حتى إذا انتفض جسدها بألم صاعق ارتاح قلق من حولها.. تلك إشارة هزيمة العين في جولة أولى، فغادرت

المريض، وحلّت في الوسيطة عقابا على فعلتها، وتبدأ في تعذيبها.

وجسد العمّة ينتفض ويهتز.. والأنفاس محبوسة، والإشفاق يلاحق وجها يتقلص بألمه، تبدأ الجولة الثانية لطرد العين من الوسيطة.. وإشارة الخلاص تتعلق بفم العمة المغلق.. فإذا تثاءبت حل الفرج، أما إن تسارع تثاؤبها حتى سالت دموعها، ارتفع الحمد والشكر.

ولا يكتمل طقس الرقية إلا بنثر الملح والشبة على نار، يفرقع الملح وتسيح الشبة، وبتركيز عالم وراء مجهر، تدقق العمّة النظر في الشكل الذائب وتزداد تجهما.. وتقرر.. أرجل أم امرأة؟ وبثقة تعدد أوصافه فيبدأ التخمين، عن عيون تفلق الصخر، ونفوس حاسدة لا تخشى ربها.

فهل صمتت النساء عن سيرتها رهبة من الله؟ أم حرصا على خدماتها؟

تمهّل كهل واقترب.. تفحّص ترددي.. تأمل حقيبتي.. وغالب سؤال دهشته.

كأنما اقتنع بحيرة تمنعني من الدخول، وشكي في مكان أقصده، مشى.. فمن سيقف، بعد طول السنين، بباب الصومعة، كما تسمي العائلة دارها؟

خطوات قليلة ثم توقف، استدار، التقت أنظارنا. غالب رغبة التدخل في صمتي عن السؤال.. متعجبا هزّ رأسه، وابتلعه الطريق.

قريب عاصر العمّة وصف حالها يوم رحيل الخوري متري الحدّاد: لم تعد هي.. عاشت بعده متوحدة.. كناسك منقطع أغلقت بابها.. زهدت في كل شيء.. لم يظهر الخوري حتى العصر فجزعنا.. كأنما نائم ويبتسم حين كسرنا الباب.. حي ميت منذ رحل ابنه.. قتله اعتقاده بأنه سبب تعاسة رفيق وموته وهو في الأربعين.. لم تقترب ميلادة من النعش، وقفت في آخر الكنيسة.. شاحبة حتى انتهاء الجنازة.. ذاهلة لم تذرف دمعة.. لا ترى ولا تسمع.. ثم أغلقت بابها سنوات، لا تخرج إلا لصلاة الصبح ثم العصر.. تذهب وتعود لا تحس بمن حولها.

عفّت الألسن عن سيرة الخوري الراحل.. فالرجل مناضل وطني، ومكانته تجاوزت البلاد إلى الشام كلها.. شيّعته القدس بجنازة حاشدة تقدمها متصرف المدينة، ورئيس بلديتها، والشيوخ والأعيان، ورؤساء الأحزاب، وبطاركة الطوائف، وعشرات الأكاليل من مؤسسات ونواد وجمعيات.. وأمام تابوته المكشوف سار صفا كشافة بأعلام منكسة.. ورغم صراعه الطويل مع اليونان لكف يدهم عن التصرف بأملاك الكنيسة وتعريبها، صلى عليه البطريرك.

يهجم الزمن على جبال الحزن فيجرف حوافها.. تنكمش وتبقى ظلالها.

تخطّت العمّة فجيعتها إلى مجاملة الآخرين في أحزانهم.

- الحمد لله على السلامة.. ومدّت يدها بود.

يعجز الخيال عن تصور الزمن على وجوه من تركنا فوق أرصفة الحياة.. عميقا في الذاكرة تنغرس الصورة الأخيرة لمن فارقنا، فتصدمنا صورهم في مراحل عمر لم نكن شهودا عليها.

صغيرة كنت والعمّة تدخل كهولتها يوم رأيتها آخر مرة.

بحنو مرت السنوات على قامتها فأبقتها شامخة، ربعة نحيلة.. نسي الزمان وجهها، وترك أثره على حركتها.

بالحرج ورهبة اللقاء اندفعْتُ فعانقتها، وجسدها نحيل في ذراعيّ.. وبدهشة من لم تتوقع، أو تستنكر حماسي تصلّبت إذ قبّلت وجنتيها.. ورائحة بخور فاحت من ثيابها.

جمودها أهان عواطفي.

- نظفت دار إبراهيم بمقدار ما سمحت صحتي.

شكرتها، واعتذرت عن إزعاجها.

- قالوا جئتِ في عمل.

وتبحث عما نسيت مكانه طال وقوفي بالباب.. ولم تدعني للدخول.

دارها صغيرة، مستطيلة، على طرف الحوش في الدور الأول، تفتح على باحة مبلطة تتوسطها شجرة ليمون.. استقبل كأس عصيرها كل من دخل الدار كعادة أهل القدس في ضيافتهم.. فلا يكاد يخلو حوش مقدسي من شجرة ليمون، حتى صارت كاسة الليموناضة نوادر عن حرص المقادسة أو بخلهم، إذ كثيرا ما يكتفون بها لتكريم ضيفهم.. أمّا الحمّام فخارجي مثل بيوت البلدة القديمة.

لم تكن الدار كما في ذاكرة الطفولة.. عن صالة جلوس على طرفيها دواشك من قطيفة حمراء وخشب محفور، ترتفع غرفة نومها بدرجتين واسعتين.. خزانة بمرايا وسرير خشبـــي واسع، غطاؤه من قطيفة بيج، ومساند مخملية بلوني البيج والقرمزي، تتوسط الجدار خلفه صورة العذراء وطفلها المسيح.. مكانها في الذاكرة، صليب خشبـــي كبير، وقناع رأس بقرة من الجلد، يفصلهما قرنا غزال، حيّرت طفولتي حتى عرفت سرها.. كان ذلك قبل أن يداهم الجنود الحوش بعد احتلال القدس ويصادروها.

- صندوق عرس العمّة مغارة علي بابا.. لو رضيت عنكِ وفتحته، فستعودين بالأوراق وسيهاجر الشباب.

أمام السرير صندوق عرسها الشهير، فخلافا لجميع عرائس عائلة أبو نجمة، وأهل المدن عامة، استبدلت خزانة المرايا في جهازها بالصندوق.. كبير وعميق ومزخرف بنحاس ومسامير مما يشتريه البدو لعرائسهم.

ستارة مفتوحة عند نهاية الغرفة كشفت حوض غسيل وفرن غاز صغيرا، ونملية وطاولة وكرسيين.. ولا يذكر أحد رائحة طهي فاحت من دارها.. وحده البخور عبق في أيام الآحاد والأعياد.. فكيف خشيت طفولتنا بيتا صغيرا فيه لمسة أناقة غابت عن حكايات الآخرين؟

وجَدَت العمّة ما تبحث عنه.. سلسلة مفاتيح.

درج قائم يصعد إلى الطابق الثاني ويستند إلى دارها.. طويل.. توقفت في لهاثها والتفتت إليّ.

- قالوا أنت مجنونة كتب مثل أخي ابراهيم؟ ومهووسة بالتصوير مثل حبيب؟.. صحيح العرق دسّاس ولو من سابع جد!

شاركتها الابتسام، والصعود والتوقف.

- راح الإثنان وتركا الكتب والصور! مرات كثيرة

فكرت أن أحرقها لأستريح.. منظرها يزيد حسرتي عليهما.

- معقول!؟ الكتب هي العقل، والصور هي الذاكرة، فمن يحرق عقله ويمسح ذاكرته؟.

بازدراء رمقتني، أدارت ظهرها، وتابعت سيرها.

أجرّ ثقل حقيبتي، وأغص بالضيق من بداية تعاليت فيها بالقول.

توقفت العمّة من جديد.. اتكأت على الدرابزين.. فركت ركبتها اليمنى وألما يعيقها.

تهرب بيوت الضيق في مدن التاريخ إلى فضاء وشمس بطوابق وأدراج قائمة تتعطش للنور مثلها.

ليوان الطابق الثاني من دار أبو نجمة مستطيل يطل على الحوش.. كبير.. تطوّقه الغرف من جهات ثلاث.. على اليمين صالون واسع.. برفق مرّ الزمان على قطيفة مقاعده الستيل فأضاع ألقها.. وبعض تحف كريستال فوق الطاولات، وثريا نحاس وبللور أحمر تدلّت من السقف، كبيرة علاها الغبار.

- في هذا البيت تزوج أخي إبراهيم ومات... وجلست تلتقط أنفاسها.. جاورتها.

صورة إبراهيم وزوجته بالأسود والأبيض في ركن

داخلي.. كإحدى ممثلات السينما المصرية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين بدت وردة، على كرسي فخم.. أو.. أقرب إلى ليدي إنجليزية بقبعة وقفازات.. فستانها الحرير يغطي حتى ركبتيها، وعقد وقرط وخاتم من حبات لؤلؤ كبيرة مؤطرة بالماس.. وإبراهيم بجانبها.. واقفا.. شاب طويل في بدلة أنيقة فاتحة اللون، ينظر إليها بحب وإعجاب.

– كانت الموضة تصل محلات القدس من بلاد الإنجليز قبل أن تنــزل إلى لندن.. قالت لطول تحديقي بالتفاصيل، ثم أردفت في صمتي:

– حوشنا من أكبر دور الحارة، لكن، لم يعجب إبراهيم ولا وردة، فانخرب بيتهما.. قال البلدة القديمة خنقة وحشرة، وصحيح الانجليز مدّوا مجاري لكن الروائح طالعة. وأراضي القدس الجديدة واسعة، وبيوتها شرحة وحماماتها داخلية، وبلكونات وبساتين. اشترى أخي أرض القطمون وبنى دارا بطابقين. سقوف قرميد وفرندات، وبستان ورد وشجر.. وكل المقادسة القادرين هجروا الحارات وعمّروا قصورا خارج السور، شرقا وغربا، وتنافسوا من بيته أكبر وأحلى.. والصحيح.. القدس الجديدة كانت جنّة، وبساتينها فرجة.. وثريات الكريستال في الدور كأنها كنيسة أو جامع.. وأثاثها من تركيا

واليونان وحلب ومصر. والمندوب السامي فتح البلاد لبضائع الإنجليز.. واليهود احتلوا دور العرب وقالوا أخذناها فاضية بدون ناس، وسمّوها أملاك غائبين، وأعطوها ليهود.. كأن أصحابها لم يطفشوا من رصاصهم وهو نازل مثل المطر!؟ روحي تفرجي على دار إبراهيم.. من بعيد.. قديمة لكن من أحلى البيوت.. وحجرها أبيض على حاله.

وعدتها أن نذهب معا.

– بعد الاحتلال [7]، بعض أصحاب الدور من العرب ممن ظلوا في البلدة القديمة أخذوا أولادهم وأحفادهم إلى دورهم الضائعة، اليهود فيها طردوهم وهددوهم بالبوليس.. وبعضهم رفض أن يفتح لكن بأدب.. ومنهم من سمح أن يدخلوا شرط ألا يرجعوا.. دار أخي إبراهيم أخذها يهودي وزوجته، أستاذ في الجامعة العبرية.. قالوا يكتب عن التاريخ، ومعروف في إسرائيل وفي العالم.. وهو في البلكون، لمح إبراهيم يلف حول الدار ويبكي.. نـزل وناداه.. قال تفضل إشرب معي شاي.. أخي دق برقبته مثل المجنون: وكمان بتعزمني على داري؟ اليهودي ما زعل.. خلّص حاله وقال: أنا فاهم عليك بس هذا واقع ولازم نقبله.

لم يرجع أخي إلى القطمون بعدها.. فقع ومات من الحسرة على داره وتعبه ودم قلبه هو ووردة، ومن القهر على دفعة سجاد احترقت في مجمع نوتردام.. يمكن لو ظل السجاد لأعانهم.. لكن. أي سجاد مع الدار؟ لا يُذكر.

امرأة شرنقة تخفي طرف خيطها عن الآخرين.. وحدها تعرف كيف ومتى تسحبه.. فهل يهزم الزهايمر امرأة لـسـمّاحة مثلها؟

– رجع أخي إلى الحوش قبل نكبة ثمانية وأربعين، قال الأحوال في النازل والقطمون في مرمى النار، ولا ننام من الخوف والرصاص. وسنعيش معك حتى تهدأ الأحوال.

قلت: دارك ودار أبيك وأنا ضيفة.. لم يحمل أثاثه الغالي ولا حتى دفعة السجاد الأخيرة.. كل همّه الكتب والبيانو.. أخي عرف أن الأوضاع ستخرب بعد الانتداب. لكن.. فكّر بنكبة وهجرة؟! ولا أخي ولا من أكبر منه.. حتى يوم طلب المندوب من الموظفين معه، العرب واليهود، أن يملأوا الأوراق للتقاعد من حكومة الإنجليز، لم يعرف أن البلاد ستضيع.. قال ستعم الفوضى وتزداد المشاكل بعد إنهاء الانتداب، وداخل السور أمان.. والخطر أكبر على القدس الجديدة لأن الحسيني [8] ورجاله عسكروا في عين كارم، وبعد حادثة لفتا.. اليهود هجموا بالرشاشات على اللفتاوية

في القهوة، وقتلوا ونسفوا دورهم لأنهم قتلوا يهوديا.. ولفتا خطوة من القدس. وبعد مذبحة دير ياسين لم تبق عائلة في القرى القريبة.. وبعض العائلات رجعت للبلدة القديمة، مداخل دورها أقبية مثل الملاجىء، وسورها يحميها.

في ذكريات عائلة أبو نجمة اجماع على لوم إبراهيم، فرغم عمله مع المندوب السامي لم يفهم ما يخطط للبلاد، ولم يتصرف بما يملك، أو يهرّب أمواله كما بعض رجالات البلاد القريبين من الإنجليز، أو كبار الملاك ممن لهم أصدقاء في الوكالة اليهودية، ولو فعل لضمن حياة أفضل لعائلته بدلا من العودة للحوش.. لكنهم اتفقوا على الإعجاب بمهارة المعلمة وردة في العزف، والتحسر على رفضها تعليم أولادهم بعد ضياع دارها.. حتى ابنها الوحيد، أكمل دروس البيانو مع غيرها، وإن ورث موهبتها.

كل مساء، أصغى حوش أبو نجمة لعزف وردة حتى ضاعت البلاد، فأغلقت البيانو ولم تعد إليه.

ابراهيم ابو نجمة عاش عذابا مضاعفا بعد ضياع داره والبلاد، ولم يغفر لنفسه قلة الحيطة بينما الانتداب يطبّق وعد بلفور. تعذّب بعدم مبالاته وهو يصرف كل ما يملك على بيت واسع فاخر، وإغفال إشارات موحية بأن قيام

إسرائيل سيتم مع خروج الإنجليز.

– لست وحدي من لم يفهم! ومراسلات المندوب السامي مع حكومة بريطانيا وفرنسا لا تحتاج ترجمة، فكيف أعرف؟! حتى زعماء البلاد والعرب لم يتصوروا ما حدث!. أو باعونا دون أن نعرف!. واين كان زعماء البلاد يوم زار بلفور فلسطين لافتتاح الجامعة العبرية [9]، والانتداب يقيم مهرجانا كبيرا لاستقباله؟ غير مقاطعة الاحتفال ما شفنا.. ويوم زار وايزمان القدس غير الانسحاب العنتري للزعماء والشيوخ وقادة الأحزاب من عشاء المندوب السامي لم نسمع! قال؟!. خطابه لم يعجبنا فخرجنا!. وبعدين. إذا كانت الهيئة العربية العليا لم تقبل بالكتاب الأبيض [10] لإقامة دولة واحدة للعرب واليهود، لا يزيد عدد اليهود فيها عن ثلاثين بالمئة إلا بموافقة الفلسطينيين.. يعني.. رفضوا التفريط بجزء من البلاد، فهل تسمح الهيئة، ومعها العرب والمسلمون، بضياع القدس؟! من يصدق!؟ ثم من منكم فكر أن البلاد ستضيع والهيئة العربية العليا ورئيسها الحاج أمين الحسيني رفضوا، حتى آخر لحظة، قرار التقسيم! فقط.. عندما ضاعت البلاد انقسموا وقالوا المفتي لم يشاور أحدا، ولو قبل لتغير تاريخ البلاد.. والخطأ في السياسة يجر الخطأ.

لكن إبراهيم، وهو يهدهد نواح وردة، احتضنها وبكى

معتذرا.

– لم نترجم غير الأمور العادية، ومكاتبنا أمام باب العامود، بينما ديوان المندوب السامي في المسكوبية.. فكيف أعرف ما دبروا؟!

قدّمت للعمة هديتي، شالين من صوف كشمير ناعم، وعلبتي حلوى، وكيس الأدوية.. قلت: هذه فيتامينات ضرورية.

شكرت، وقامت إلى مطبخ صغير على طرف الليوان بجانب المكتبة، ورفضت مساعدتي.

صفقة البرتقال [11]

رائحة اليانسون المغلي اختلطت مع عبق مبشور البرتقال في كعكة روّتها العمّة بعصيره، عادت بها من المطبخ الصغير.

– زمان كان البرتقال يزور بيت من اغتنى وبيت من افتقر.. وأكوامه عند باب العامود أعلى من السور، والناس تشتري بالشوال والقفّة وأكياس الخيش، والعتال حاضر.. وأهل يافا اغتنوا من بياراتهم.. اليوم سعره مثل أي فاكهة لأن إسرائيل تصدره إلى العالم.. اليهود احتلوا بيارات العرب، وبدّلوا مع البلشفيك أملاك المسكوب في القدس ببرتقال بلادنا.. يعني "من دهنه سقّيله". لم يخسروا شيئا.. وطلع كله ببلاش.. بيارات العرب وأملاك المسكوب.

على حائط الصالون صورة أخرى للمعلمة وردة.. متوسطة الحجم.. تستند بكوعها على لمعان بيانو فاخر وتبتسم.. كدوقة روسية بدت بخصرها الدقيق، وثوب طويل منفوش، عقصت شعرها خلف رأسها.. مهيبة، دقيقة الملامح.

المعلمة وردة، كما ناداها الناس وحتى رحلت، من الرعيل الأول لمديرات المدارس في البلاد.. تخرجت من السيمنار الروسي، ثم دار المعلمات في بيت جالا بداية القرن العشرين.. أدارت مدارس البنات في الناصرة وحيفا والقدس وبيروت، قبل أن تعيّن مفتشة على عموم فلسطين.

– كانت جميلة.. وأشرت إلى صورتها.

– درهم حظ ولا قنطار جمال.. وردة طول عمرها محظوظة.. من الأب للزوج.. أبوها لم يخلّف غيرها، فحلف أن تكون أحسن من الرجال وتعوّضه عن خلفة الأولاد.. أدخلها المدارس، وأعطاها حريتها ولم يقبرها عند خالها ولم يزوجها طفلة!. يوم توظّفت في بيروت، لم يصدّق أهل عين كارم أن بنتا منهم ستتغرّب.. وردة ضربت رجلها في الأرض وقالت بأروح.. أبوها ترك ماله ورزقه ورافقها.. في أي بلد تتوظف كان يسافر معها.. والله أعلم.. لسواد عينيها وبس؟! فضائحه عمّت وطمّت.. باع قطعة أرض، وصرف نصف ثمنها على عاهرات وجنكيات القدس، والباقي في مواخير يافا وبيروت.. أخي إبراهيم سمع عن وردة قال: البنت تناسبني.. متعلمة وترطن لغات، روسي ويوناني وإنجليزي وتركي، ولفّت الدنيا وتعزف بيانو، وترقص تانغو، وستشرفني في حفلات

المندوب السامي.

وقفْتُ في وجهه.. قلت: وردة كبيرة.. متى ستخلّف إن شاء الله؟ وراح تطلع من الدنيا بلا خلفة.. وبعدين وردة عاشت في مدارس داخلية، ومن يعرف ما جرى مع بنت تنقلت في البلاد، وعاشت وحدها؟!.. والله يرحم أخي.. شتمنيٍ وكسر نفسي.. قال: ومن طلب رأي جاهلة مثلك؟ لو تعلمت لفهمت قيمة وردة!.

قلت: الله يسامحك أنت وأبـــي.. لو كان من خلّفك مثل أبيها لصرت أحسن منها ومنك.. وإذا السمك في البحر نام أنا نمت.. وعمري ما زعلت على حظي، وأكلني القهر من نصيبـــي، في حياتي كلها، أكثر من ذاك اليوم.. وعمل لوردة عرس! القدس ما شافت مثله.. فرقة أم فريال لحفلة حمّام العروس والحنة.. أم فريال؟!.. جنكية باب حطّة؟!. ليش صارت حفلة لأكابر القدس بدون فرقتها؟! وسهرات سامر وعود وكمنجة للرجال.

طويلا انتظرت العمّة من يأتي ليسمعها، شاهدا على زمن يسطع في ذاكرتها ويلح، تتمسّك بتفاصيله لئلا يفلت إلى نسيانها. وبلا تحفظ تنهمر أحداث حياة مضت.

فكيف خشيت امرأة تجيد لعبة الكلام؟

في كتب الطب: تسطع تفاصيل الماضي على حساب

الحاضر مع بدايات الزهايمر، يتقهقر العقل الباطن إلى بدايات مخزونه، فتتوهج أحداثه في تنازل عكسي مع مراحل العمر.. تلتمع صفحات الشباب ثم تطوى، وتحتل صور الطفولة مساحة الذاكرة قبل أن يسدل النسيان أستار النهاية السوداء على عروض الحياة.

هي امرأة تقول ما تريد، وبمقدار ما تسمح للآخرين أن يعرفوا.

بعد أيام من إقامتي معها، حين بدأنا التصوير، وأثناء لقاء مع باحث ودارس لحياة القدس الاجتماعية نهاية العهد العثماني، بداية القرن العشرين، فهمت دهشة العمّة من جهلي بفنانة زمانها، الجنكية أم فريال، وعدم تقديري قيمة أن تحيي فرحا مقدسيا:

– توّجت ليالي القدس الجنكية "أم فريال" ملكة عليها لا تنازع.. فرغم تعدّد الجنكيات والفرق، منيرة العكاوية في حارة اليهود، وأم يحيى الرّقاصة في حارة السعدية، وأم حسين في الشيخ جراح، إلا أن أم فريال احتكرت أفراح ومناسبات القادرين في عموم البلاد.. فنانة بالفطرة، عوّضها الله عن سواد اللون عذوبة الصوت وخفة القدّ.. أجدادها بقايا حجّاج أفارقة زاروا القدس وظلوا فيها.. ولدت في باب حطّة بين النَوَر [12] والأقل حظا.. حفظت

طقاطيق مطربـــي مصر، عشقت أغاني سيد درويش وبرعت فيها، ولم تتوقف عن تجديد راقصي فرقتها.. قست في تدريبهم فأجادوا الموشحات الأندلسية، والقدود الحلبية، وسخت على لباسهم وتعليمهم.. وعمل مع فرقتها أمهر عازفي العود والكمان في زمانها.

ابن العم بينزل عن الفرس

أصص ورد وتنكات ريحان، وبراميل زرعت بياسمين ونباتات متسلقة، رصت عند درابزين الحديد في ليوان الطابق الثاني من دار أبو نجمة، ضاق التراب عن بعضها، فتسلّقت سياج الحديد وغطته ثم تدلت نحو الحوش.

غرفتان في الوسط، واثنتان عن يمين وشمال، ومطبخ صغير.. تقبّل الشمس أبوابها أنّى استدارت.

- تنامين هنا في غرفة اخي ابراهيم.. وفتحت باب إحدى الغرفتين في الوسط، فتركت حقيبتي.

تجاوزت غرفة ثانية مغلقة ومطبخا صغيرا إلى الباب الأخير على يسار الليوان.

- وتشتغلين هنا... وفتحت باب مكتبة أخيها إبراهيم.

تخرسنا الدهشة في اختلاط المشاعر إذ تتحقق أحلامنا على غير انتظار.. قدمت لي العمّة هديتها الأغلى، واضاعت، ببساطة غير متوقعة، ما خطّطت لإقناعها به، الدخول إلى مكتبة إبراهيم! الغرفة السحرية.. كثيرا راودت

أحلام طفولتي.. فرغم شهرتها، وما قيل عن علاقة صاحبها بالكتب، غبطة أو سخرية، حال بابها المغلق دوما دون فضولي.. وفشلت محاولات تلصصنا جميعا، أطفال العائلة، لرؤية ما يثير إعجاب الكبار ونحن نرافقهم لتقديم واجب.

صادمة رائحة الكتب في غرفة مغلقة خاصمتها الشمس طويلا.. رفوف خشب الزان غطت الجدران إلى السقف، وكتب مرصوصة، مصنفة، كأن صاحبها رتبها للتو.. وحده غبار الزمن وشى بغيابه عنها.

لرطوبة الكتب المهجورة قدرة إثارة الأسى على عاشق سكب عمره بين سطورها، ثم اختفى قسرا.

نفائس كتب، مراجع وقواميس، وروايات بالعربية والإنجليزية واليونانية.

– كان مولعا بالتراث العربـــي والتاريخ والفلسفة.. فكرت.

فوق المكتب، في علبة قطيفة زرقاء مصحف صغير بالخط الرقعي بحجم الكف، وتوراة أثرية بعهديها، القديم والجديد، نسخت باليد، قاومت إهمالها وإن حفيت أطرافها.

وصوت أبـــي من ذاكرتي الطفلة يحدّث أمي:

- مجنون ابن عمي، دفن عمره في الكتب.. ضيّع ثروة على الورق، ثم لا يسمح لأحد أن يلمسها! واحد مثله، يعرف خمس لغات! ثم يرضى بمعاش تقاعد؟! ولا يخرج من داره؟! هل الكتب أفضل من الدنيا؟ أليست الكتب عن الحياة وتجاربها؟! إذن نعيشها أحسن الف مرة من أن نقرأها! ويوم فوق الأرض ولا ألف تحتها.

لكن والدي وبعض أقارب قلّدوا إبراهيم أبو نجمة فقرأوا الكتب، وظلت عيونهم تلتمع إعجابا إذا تحدث.

عند باب المكتبة سلم خشبـــي صغير، تآكلت أطراف درجاته الخمس بالوصول إلى الرفوف العليا.

كانت قدما إبراهيم كبيرتين بشكل واضح.

حوش أبو نجمة إرث عائلي، مسجّل في أوراق الويركو العثماني "وقف ذرية" للبطريركية الأرثوذكسية.. تنازل عنه الأجداد مع ثمانين مالك آخرين، تهربا من ضرائب الويركو الباهظة منتصف القرن التاسع عشر.. كان ذلك في سنوات حبلت بالفقر والجوع والمحْل والأوبئة.

ووقف الذرية عقد بين ملاك العقار وكنيستهم، بموجبه يتوارث الخلف من السلف دار الوقف إلى أن يشاء الله، فإذا انقرضت عائلة، أو هاجرت ولم يعد إلى الديار منها

أحد، عادت للكنيسة.

لقضاء صيف أقل حرارة، اشترى جد سالم أبو نجمة بيتا صغيرا مع كرم في عين كارم، فعاشوا بين بلدة ومدينة.

أما نجاة مكتبة إبراهيم وبيانو وردة من الضياع، بلا تخطيط، فقصة تناقلتها أجيال العائلة.

في تصاعد المناوشات بين الثوار وعصابات يهودية مسلحة، ناشد جيش الإنقاذ العربـــي سكان القدس الجديدة ترك دورهم، ليسهل الدفاع عنها ولسلامتهم، ويعودوا بعد فرض الهدوء.. أسبوعان أو ثلاثة على الأكثر.

إبراهيم أبو نجمة، ولاعتقاده أنه أكثر معرفة بالأمور والخفايا بما أتاحته وظيفته، توقع أن يحتاج الأمر شهورا قليلة، فالعصابات اليهودية مدربة وأسلحتها حديثة وكثيرة.. فحمل مكتبته وبيانو زوجته إلى الحوش، لا لأنهما الأثمن بين اثاث داره، بل لضرورة وحاجة له ولزوجته، فالقراءة والعزف طقس يومي منذ تزوجا، هواية ستخفف السأم في شلل الحياة بإضرابات تتصاعد، ولا وسائل تسلية مما اعتادا عليه.. أقفرت سينما أديسون وأوريون بعد تفجير فندق كينج ديفيد [13]، وغاب رواد

النوادي والمقاهي والمتنــزهات.. وخلت المطاعم الفاخرة، ورحل عازفو البيانو والكمان.. وصمتت موسيقى البوزوكي وصخب الراقصين في مطاعم الحي اليوناني، وهاجرت روائحه مع سكانه.

مغالاة إبراهيم في القراءة، والعزف المسائي أثارا غبطة الأقارب وتندرهم، فالرجل لا يغادر الحوش إلا لواجب.. ولم يشاهد يوما في قهوة، أو يشارك في لعبة طرنيب أو نرد، لا يزور أو يزار.. وأيامه روتين.. يدخل المكتبة صباحا حتى الغداء، وبعد القيلولة إلى المساء.. وفي أحايين متباينة انبعثت منها موسيقى هادئة خافتة.

عند الباب، فوق طاولة مرتفعة، غرامافون قديم بقاعدة خشبية صقيلة وبوق نحاسي كبير.

– أخي حبيب قائم بالواجب عن الإثنين وزيادة.. ضاحكا ظل يرد على منتقدي عزلته.

وحبيب أبو نجمة، أخوه الأصغر.. طويل القامة وسيم، طلي الحديث، ودود، مبتسم في كل الظروف.. عمل مديرا لمحلات أي بــي سي البريطانية في باب الساهرة، ولسنوات انتخب رئيس لجنة النشاط الاجتماعي في النادي العربــي الأرثوذكسي، أحبّه الأعضاء واشادوا بتقريبه بينهم في احتفالات الأعياد، وتراتيل المناسبات الدينية،

والعشاءات الخيرية، ومسابقات تنسيق الزهور، وترتيب الرحلات وسهرات العزف والغناء.

تزوج العازب الوسيم فجأة، فتحسّرت الصبايا ولاكته الألسن.. فحين يتزوج شاب مثل حبيب أبو نجمة المفتشة جميلة شحادة؟! من تكبره بسنوات، وتفتقر إلى الجمال! حتى ولو كانت مفتشة معارف لعموم فلسطين! فهو طامع في ثروتها، وبأراض كثيرة ورثتها عن والدها.

وعلاقة ميلادة بأخويها إبراهيم وحبيب شابها الغموض الدائم، ثم الجفاء حد القطيعة بعد ما اثير حول نسب ندى بنت حبيب، وعن دور المعلمة وردة في نشر الشائعة، حين صمتت عما تثيره النساء في حضورها.. والسكوت وعدم الرد على غمز النساء والأقاويل أبلغ من الكلام، ورغم أن أحدا لم يسمعها تؤكد أو تنفي، إلا أن حكاية ندى أنهت الصداقة الطويلة بين المرأتين، وبترت علاقة كانت سببا في زواج حبيب وجميلة.

وعلى الرغم من شهرة مكتبة أبو نجمة بين شباب النوادي والمثقفين، إلا ان قلة منهم عرفت، أن الحاج أمين الحسيني اختبأ فيها في هبّة العشرين.

طبقة الغبار على المكتب الصقيل رسمت ذراعي العمّة إذ جلست واتكأت عليه.. نفضت كميّ فستانها ونظفت

الخشب بمنديل ورق.

– في هذه المكتبة اختبأ الحاج أمين الحسيني ورفيقاه قبل أن يتسلل إلى الحرم ثم خارج البلاد! وعسكر الإنجليز يبحثون عنه في الحارات، والقدس تغلي بهبّة العشرين، لم يتصور أحد أنه في بيت امرأة وحيدة مع أطفالها الثلاثة!.

– لم تكن مكتبة.. أبــي رجل أسفار، في قدميه زمبركات لا يثبت، والكتب والسفر مثل النار والماء.. الكتب تحب مكانها.. المكتبة لأخي إبراهيم وصرف عليها يا ما.. أبــي رجل عشق البحر والمراكب.. حفظ قصصا عن بشر في بلاد لا نعرفها.. يناديه الرحيل فيترك كل شيء ويمضي.. الكتب أحبّت إبراهيم لأنه ظل معها، يدللها ويرعاها.. يوم الهبّة كانت غرفة نوم لأب غائب، وأم تنتظر الغائب.. لا أذكر شكلها أو ما كان فيها.. لكن المفتي اختبا حتى دقّ عسكر الإنجليز باب الحوش، فهرب إلى السطح، ثم تسلّل إلى الحرم.

والصمت صنو للشرود في كثير من لحظاتها.

لقطة نادرة لعودة موكب النبــي موسى من المقام في الأرشيف الفلسطيني، على ظهرها تاريخ العاشر من الشهر الرابع من العام عشرين.. ووجهة الموكب طريق باب المغاربة، مما يعني أنها التقطت يوم الهبّة قبل

الاشتباك مع اليهود والإنجليز بقليل.

من تفاصيلها أستعيد ما جرى.

– في يوم خميس، والقدس صلاة وموسيقى.. وأناشيد وأعلام وبيارق.. ومسيرات كشافة وطبول. والقدس تحتفل بمناسبات ثلاث، للنصارى واليهود والمسلمين.. وجموع تنتظر بشائر الموكب من رأس العامود شرقا.. أطل صفه الأول.. خيّالة يتوسطهم الشاب الحاج أمين الحسيني على فرس شهلاء.. وجوه الفرح تتفرج على الموكب العائد.. من على أسطح الدور، فوق سور مقبرة المسلمين، بين زيتون كنيسة الجسيماني.. هبط الموكب بمحاذاة قرية سلوان، صعد ودخل باب المغاربة إلى ساحة الحرم.. خيول تخب، وبيارق عائلات القدس ومدن وقرى مر بها الموكب ترفرف فوق الرؤوس. وصلوا ساحة الحرم.. مرّوا بجماعة من اليهود تدق رؤوسها بحائط البراق، تصلي وتحتفل بفصحها.. ثارت القدس وعلا ضجيجها.. تعارك العرب واليهود والانجليز، وتفجرت هبّة العشرين واستمرت أسبوعا.

– لا.. مش هيك.. علقت بالأول عند باب الخليل، ثم ولّعت في البلاد كلها.. القصة معروفة مع أني كنت صغيرة لا أتذكر.. مواكب الخلايلة، والفواغرة من بيت لحم،

وصلت باب الخليل، بيارق وصراخ وهتاف ضد الإنجليز واليهود.. الإنجليز زعلوا.. قالوا ستعلق الناس ببعضها.. سدّوا باب الخليل ومنعوهم من الوصول للحرم، الناس في الحرم هبوا مع المفتي وهاجموا عسكر الإنجليز.. فتحوا الباب وقامت القيامة.. وعسكر الإنجليز مثل النمل في الشوارع، سدّوا طريق الواد، ومن باب الساهرة للأقصى.. وشباب نادي الروم [14] سمعوا القصة تركوا احتفال خميس الغسل [15] وهبوا مع المسلمين.. طار عقل الانجليز أكثر لأن الحاج أمين علّق صورة ابن الشريف [16] على صدره وصاح.. يا ناس.. هذا ملككم.. هذا ملككم.. قبض الإنجليز على المفتي وجروه إلى الجيب.. خلصه الشباب منهم فهرب مع رفيقيه.. "هوّ" شافهم وصوت العسكر وراءهم.. دق باب الحوش وقال لهم الدار أمان.. وطلب من أمي أن تخبأهم.. عسكر الإنجليز سدّوا أبواب المدينة، نقبوا حارات القدس. العسكري فتش غرف دارنا.. هبّت أمي في وجهه.. دفشته لبرّة وصاحت يعني مسيحية، ولحالي مع أولادي، وزوجي غائب، كيف أدخل رجلا إلى داري؟ وخصوصا إذا كان حاجا ومسلما؟!. فلم يفتش العسكري سطح الدار.. ومنعت خروجنا من باب الحوش حتى تسللوا للحرم.. وقامت قيامة الناس أكثر لما خلع المندوب السامي رئيس البلدية [17] لأنه ثار مع الناس،

وعيّنوا زلمتهم [18].

وتفترض أنني أعرف "هو". لم تفسر أو تذكر اسمه.. وكثيرا في أحاديثنا اللاحقة، أحالت إلى الخوري ب"هو".. فتواطأنا على الفهم.

قال أحد المؤرخين أثناء لقاء معه:

– هبّة العشرين بداية وعي الفلسطينيين.. غضب وخوف بعد نشر الثورة الروسية وثائق الكرملين السرية، ومن بينها معاهدة سايكس بيكو، وقيصر روسيا شاهد عايها.. طار الأمير فيصل بن الحسين بمخاوفه إلى لندن.. قالوا وهل تصدقون كذبة شيوعية هدفها أن تثوروا على انتداب جاء يعينكم على حكم ذاتكم ثم ينسحب؟ وكيف يصدق العرب المؤمنون كفرة ملحدين ينكرون وجود الله؟ لكن القلق العام تصاعد مع ممارسات الانتداب وتحيزه لليهود وتشجيع هجرتهم وتسليحهم.. والموكب العائد من مقام النبــي موسى نادى بهتافات ترفض الضيم، ويصف بالجبن من يقبل به.. وتلعن من يفرط في أرضه.. وتمجّد من يقاوم غرباء منحوا ما لا يملكون. فتصدى جنود الانتداب للموكب. ومنعوا تعرضه ليهود يدقون رؤوسهم بحائط البراق.. اشتبك العرب مع اليهود والإنجليز. والمظاهرات دامت أسبوعا رغم منع التجوّل.. وحكم

الإنجليز على الحاج أمين غيابيا بالسجن خمسة عشر عاما.. ثم أسقطوا الحكم بعد سنوات، فعاد إلى القدس.

غرفة نوم إبراهيم ووردة واسعة بمقاييس بيوت البلدة القديمة.. سرير خشب محفور على طرفيه اثنتان من الكوميدينو، وخزانة كبيرة، وطاولة زينة بمرآة مستطيلة.. وشيزلونج أمامه سجادة فارسية صغيرة بنقوش وألوان زاهية.

هل نجت السجادة من حريق نوتردام؟ أم اشتراها إبراهيم ليستر عري غرفته؟

والعمّة في ثوب الخروج الرمادي أفسحت لي فدخلت دارها.. صبغة سوداء ردّت غزوة البياض عن جذور شعرها، ناعم شذبه أحدهم للتو.. كثيف بما لا يتناسب وعمرها.. تذكرت صالون حلاقة قريبا من الحوش قالوا لم تنقطع عنه يوما.

– شركة الانتاج تلح أن نبدأ وننتهي بسرعة خوفا من إشكالات محتملة مع السلطات الإسرائيلية، ومصادرة الأشرطة وترخيص الشركة أخف العقوبات، وسيحاكمون أصحابها، وليس لدي تصريحي الخاص بالتصوير، والحصول على إذن مستحيل.. فهل تساعدينني؟.

– شو بدّك؟ أمثّل لك؟.

وسخريتها لاذعة.

– أجيبـــي على الأسئلة.

– لو تذكرت.

– طبيب أسنان في مذكراته"أنا مقدسي" وصف حريق نوتردام.. وأكّد أن بعض العرب المسيحيين والأثرياء من سكان الأحياء القريبة من حي مياشيرم اليهودي، أو حي الشمّاعة المختلط، وقبل أن يستجيبوا لنداء جيش الإنقاذ العربـــي بالجلاء عن بيوتهم، نقلوا أثمن ما في دورهم إلى مخازن كنيسة ومجمع نوتردام خوف النهب أو الاحتراق، فلاحقت القنابل تهجيرهم، والزحف اليهودي المسلح ملأ فراغ المدن والقرى، وفي تبادل القصف احترقت مخازن المجمع كلها.

– المبنى كله.. وسجاد أخي راح معه.. خمس وعشرون قطعة خبأها في مخازن نوتردام.. تبريزي حرير دفع فيها دم قلبه، كانت آخر طلبية.. تأخرت في ظروف البلاد.. استلمها قبل خروج الإنجليز.. بارت في وجهه. ومن يشتري سجادا في مناوشات ومشاكل وحرب؟! لا سجّادا ولا غيره!. سألته وهل السجاد أغلى ما في دارك؟.. ردّ عليّ بمثل... شو قال؟.

بلا جدوى تلحق ما يشرد من ذاكرتها.. ثم طردت ما

يغيب بحركة نــزقة من يدها، وابتسمت في حرج:

- اللّي هوّ.. راح عن بالي؟ يمكن قال سلة؟.. أو يمكن بيض؟

- لا تضع بيضك كله في سلة واحدة؟ ربما؟!. مثل إنجليزي معروف.

- فهمت عليه لأنك مثله.. بس يا خسارة، أخي سمع كلام الإنجليز طلع مثل مصيّف أريحا.. لا بيض ولا سلّة.. ومن يسمع كلام الإنجليز؟

ابتسمنا معا.

- يعني والعرب ما كانوا أحسن!. سمعوا كلام الانجليز وأكلوا هوا.. قبل الحريق بأيام.. حملت صينية الشاي إلى دار أخي.. وتوقفت وردة عن العزف.. إبراهيم أمسك يدها وباس أصابعها.. يا خزاة العين عن رجال أبو نجمة! كلهم حبّيبة.. إبراهيم عامل وردة حتى آخر يوم في عمره كأنها الست الوحيدة في الدنيا، ملكة.. قال: إذا هدأت الأحوال، نبيع السجاد ونشم الهواء في لندن.. بصراحة.. يومها مت من القهر.. يعني ولا كأني واقفة؟! طيب، حط في عينك حصوة ملح.. قل نأخذ معنا أختي ميلادة ما لهاش حدا؟! يعني.. وحتى لو عزم؟ من يسافر مع وردة وكشرتها؟ّ! لكن يا خسارة.. السجاد احترق كله وأخذ معه حلم السفر.

والعمّة تشرد مع رؤى تبتعد، بدأت أروي ما قرأت عن الحريق.

- والدخان غطى القدس الجديدة.. والرهبان دقوا الأجراس فلم ينجدهم أحد؟ لا مطافىء البلدية ولا الإسعاف، والقصف بين العرب واليهود لا يتوقف، والقدس محشورة في دورها، واليهود يزحفون، والجيش العربـي والثوار من فوق السور يحاولون ردّهم.

وسادرة في البعيد ظلت تسحب الذكرى:

- الرصاص زخات مطر، والناس هائمة، وصراخ وركض وصلوات.. والناس في الأقبية والكنائس والجوامع، والبلد تهتز بالمدافع والانفجارات.. وين لوين توقفت.. وعينك ما تشوف المنظر من سطح دارنا، يا ويلي على القدس.. الدخان غطى السماء، والنار من نوتردام أعلى من السور.. قالوا ولّعت من رصاصة.. يهودية أو عربية؟ الله أعلم.. دقوا الأجراس.. لكن من يسمع؟ وحتى لو سمعوا! من يخرج؟ إبراهيم تجمّد مثل الصنم.. لا ينطق ولا يحس.. لكن.. لما انهارت وردة على الأرض، أخذها على صدره وناح مثل النسوان وقال لها:

- فكرت ان الله سيحمي بيوته أكثر من دورنا.

ولم يكن ابراهيم أبو نجمة تاجرا، وإن باع واشترى

السجاد، ثم نوّع في بضاعته بتحف ومزهريات من القيشاني الإيراني تضاهي السيفر العالمي، وأطقم شاي وشمعدانات من الفضة الخالصة حملتها القطارات من جنوب العراق.

والصفقات السريعة "شطارة" تعلّمها إبراهيم من الضباط والموظفين الإنجليز في ديوان المندوب السامي.. استغلوا امتيازا لهم من حكومة الانتداب، "استيراد بضائع للاستعمال الشخصي في أي وقت، ودون تفتيش أو جمارك".. منحة باعوها لزملاء من العرب واليهود ولرجالات البلاد، فازدهرت تجارة رابحة مع حركة قطارات ربطت بلاد الشام والعراق ومصر.. أقمشة، وأثاث خشب محفور، وقطيفة من حلب ودمشق والاسكندرية، وسجاد وتحف من تجار إيرانيين في جنوب العراق، تباع في البلاد، أو تصدّر إلى بريطانيا.

ثمن السجاد المحترق كان ما تبقى من تحويشة المعلمة وردة.. بعد أن أجهز ثمن الأرض وبناء الدار وتأثيثها على رصيد إبراهيم، ونصيبه من بيع بيت العائلة في عين كارم.

– مسكين أخي، سهر الليالي مع وردة وابنه، لفّوا القيشاني، والكريستال والفضة والتحف في صناديق،

وخبأها في مخزن داره.. يعني اليهود أخذوها جاهزة. أو.. الله أعلم من؟! حوادث وفلّة حكم.. جاهزة لمن يحمل.. والناس كلها مثل أخي، حضّروا الغالي في صناديق حتى لا يُتْعِبوا لا يهودي، ولا متسلل ولا حرامي.

يخبو القهر مع الزمن.. تخمد نار الحسرة من الخسارات الجسيمة في الاستسلام لقاهر لا يردّ.. تخفّ لوعة الذكرى، وتصير المرارة سخرية عاجزة.

والعمّة تشير إلى صورة ابن أخيها في ثياب التخرج لم تذكر اسمه، وهي لم تفعل في أحاديثها عنه.. أبدا.

– ابن أخي تعلّم في مدرسة المطران.. كان الأول دائما.. وردة خافت عليه من النسمة.. طلع طري من الحرص الزائد.. خداج.. كل شيء ممنوع.. يلبس الصوف في عز الصيف؟! خنقته.. طفش منها ومن البلاد.. يوم تخرج من المدرسة، بعث مطران الإنجيليين لأخي.. قال ندرّس الولد في لندن إن تحوّل إلى طائفتنا.. طبعا أخي رفض.. شو يعني! يغير دينه؟! فعرض عليه أن يسجله في أحسن جامعة في بلاد الإنجليز، لكن على حساب أخي.. قال الولد فلتة وحرام أن لا يكمل تعليمه.. إبراهيم وافق شرط أن يتعلم ويرجع.. وردة وقفت في وجه الإثنين، وبكاء ونحيب كأنه لا سمح الله مات.. قالت يكفي دار المعلمين

ويظل معنا.. لا أمريكا ولا بلاد الانجليز.. الولد سكت على نجاسة.. اشتغل في بنك، يمكن سنة أو اثنتين، وبدأت وردة تفتش له عن عروس.. قالت يتزوج فلا يفكر بالسفر، وكأنه أحس.. ويا ويلي على هيك نهار. العصر. والقدس مولّعة حر. سمعت صراخ وردة. ركضت. إبراهيم مسطول لا ينطق، والولد يرتب ثيابه في شنطة، ووردة على الكرسي تبكي وتنوح.. والولد العاقل هائج مثل ثور، يعيد ويزيد: لن أضيّع الجامعة مهما عملتم.. وسحب الشنطة من يد أمه، باس رأسها ويد إبراهيم ورأسي ونـــزل.. سافر وما رجع.. طفش من سجن وردة.

لحظات، وتراجعت.. وكأنما تعتذر للراحلة: لا.. لا.. حرام.. وردة مش السبب لحالها.. ابن أخي دوده من عوده! جدّه سالم أبو نجمة!.. يوم رجع لعزاء أخي.. والولد رجع مرتين، ليدفن أباه ثم لجنّاز أمه. سألته: ألا يكفي غربة يا عمتي؟ قال البلاد ضيقة، ولا فرص لي أو لأولادي، وزوجتي تدرِّس معي في الجامعة، واعتدنا على حياة أمريكا.. قلت: والله يا ابن أخي، العرق دسّاس.. جدّك سحبه البحر قبلك، ونسي من تركهم.. لم يعجبه كلامي.. وسافر وهوّ زعلان.

صور ابن أخيها تناثرت في أركان الدار.. على بطاقات أعياد في مراحل عمر مختلفة.. مع زوجته الأمريكية،

ويافعيْن لم يرثا من ملامح أبو نجمة شيئا.

صبيا وسيما وحييا وممتلئا بعض الشيء بدا في صورة له بين والديه.. مسحْتُ الغبار عن إطارها الصدف المنقوش، فتنهدت العمّة.

- رجال أبو نجمة كلّهم عيونهم لبرّة.. ابن أخي تزوج أميركانية.. ما لهم بنات العائلة؟ أو حتى بنت من البلاد؟ جدودنا قالوا ابن العم بنــزّل عن الفرس! وما عرفوا أن عيون الخيّالة زائغة، وركضت وراء أفراس الغرباء ونــزّلوا بناتهم؟ يونانيات وأرمنيات وبايرات الناصرة، مع أن بنات أبو نجمة كل واحدة بتقول للقمر قوم وأنا بقعد مطرحك.

تتهاوى السدود بمفاتيح كلام انتظر من يسمع، وشلال ذكريات تدفّق عنيفا من جانب واحد.

من قال إن الزهايمر يمكن أن يهزم امرأة مثلها؟.. تزهو بالذكرى وتنتعش بعنفوانها.

- لماذا اكتفى العم إبراهيم بولد وحيد؟.

كأنما تجاوزت حدود الخصوصية.. بازدراء رمقتني.. تردّدت: أي وردة بالكاد لحقت حالها بشقفة ولد، وبعده قطعت الضنا، تزوجت كبيرة على الحبل والولادة، ولولا

رحمة الله لطلع أخي من الدنيا بلا خلفة مثل حبيب.

في خوفي من غضبها كتمت السؤال.. هل نسيت ندى ابنة حبيب؟ أم ما زالت لا تعترف بنسبها؟

في حياة ابناء سالم أبو نجمة أسرار كثيرة.. ندى لغزها الأكبر.

سر آخر طاله التخمين والتأويل، ولم يسمح إبراهيم أو حبيب لأحد بالاقتراب منه حتى ميلادة.. لماذا تركا والدهما في التشيلي؟ ولأي سبب فضّل شابان بهدلة هجرة غير شرعية، والتسلل في سفينة شحن صغيرة، والعمل أجيرين، على البقاء في بلد حصلا على جنسيته بالتبعية، ومع أب ملاّك ورجل أعمال ناجح؟!

– لم نطق الحياة في سانتياغو.. ثم أتعبتنا لعبة القط والفار مع الشرطة الأمريكية.. يستحيل أن تعيش أيامك خائفا من الترحيل، هاربا متوجسا.. لا مكان ولا عنوان.. عملنا في اسوأ الظروف عند من لا يشي بوجودنا.. ولولا كاهن الكنيسة، وعطف الطائفة لما تعلمنا في مدارس.. صحيح ليلية وفي مناطق نائية، لكنها خيرية تساعد المهاجرين من كل عرق ولون ودين، ولا تشترط إذن إقامة.. ويعلم الله ما كان عليه حالنا الآن، لولا إعلان الحكومة الأمريكية، أن تمنح الجنسية لأي مهاجر غير

شرعي إن تطوّع لخدمة العلم.. إعلان أضاء حياتنا، وجاء في وقته، فتطوعنا لنخرج إلى النور، ونضمن عودة مجانية إلى البلاد... لم نرث حب الهجرة من الوالد، أو ربما لم نخلق لها.

الضابط الأمريكي المكلّف بمقابلة المتطوعين، وجد في إبراهيم وحبيب لقطة.. شابان يعرفان البلاد وأهلها، ويتقنان الإنجليزية والإسبانية واليونانية وبعض التركية.

على بارجة أمريكية ابحرت إلى المتوسط فرقة عسكرية، ومتطوعون من جنسيات وأعراق شتى، ومترجمان عربيان.

والأمواج تغسل جوانب البارجة توقفت في بحر بيروت.. وإلى الحانات والمطاعم، والبحث عن بائعات الهوى في شارع الزيتونة الشهير، تسابقت الرتب العسكرية من عليها.

وإلى قطار دمشق قفز هاربان بخوفهما.. يسابقان الفجر، ويلاحقان ليل الخلاص في القطارات بين محطات سكك الحديد.. ودون الدار البعيدة عسكر انتداب فرنسي، ونقاط تفتيش على حدود لبنان والشام، ولا أمان إلا باجتياز القطار حدود سوريا إلى حيفا.

احتضنت القدس عودة الشابين.

إبراهيم عمل مترجما مع حكومة الانتداب، وحبيب مديرا لمحلات أي بــي سي البريطانية.

- لم نطق الغربة، مع أن كاليفورنيا تشبه بلادنا، أما سنتياغو؟! ما بنعاش فيها أبدا... جواب لم يتغير في إلحاح ميلادة على معرفة سر الرحيل والقطيعة مع أبيهم، وحتى يوم وصلت فيه أخبار موت سالم أبو نجمة في التشيلي، فكتمت ما عرفته عن الناس جميعا.

العشق الحرام

حكاية العمّة والخوري متري الحدّاد جللها الغموض، قطّع بها أهل عين كارم طول لياليهم حتى خيمت قصة البلاد الكبرى، فبعثرت أحوال الناس وقصصهم.

وحائرة ظلت إجابات الكبار.. أكان زواجا أجازته الكنيسة في مخالفة صارخة؟ أم عشق تحدى الكهنوت والأعراف؟

تلميحات النساء، في مناسبات نادرة، زادت التباس الحقيقة، فالنميمة عمّن يمثل الكنيسة معصية، وفي الحياة من الحكايا ما يغني عن قصة قد تغضب الرب، فتعلقت الأسئلة.. هل سمح البطريرك بزواج الخوري الأرمل مخالفا قانونا كنسيا صارما؟ أم غضّ الطرف عن علاقة محرّمة؟ ولماذا يتستر بطريرك يوناني على خوري عربـــي هزمت شهواته شروط رهبنته؟ مع أن الخوري ينافح تسلط اليونان والبطريرك نفسه، ويقاوم تفرده بإدارة الكنيسة؟ وجاهر بإعجابه بفكر خليل السكاكيني، وناصره في خلافه مع البطريرك، وأيّد دعوته للقومية العربية،

وعارض قرار حرمانه من الكنيسة لتأسيسه جمعية تقاوم هيمنة اليونان، وقرار طرده من بيت الوقف، بدعوى أنه يناصر المسلمين في قضية مدرسة "الصلاحية"، بل وعمل مدرسا فيها رغم علمه بالخلاف حولها، وأنها أصلا كنيسة بنيت مكان مولد العذراء، ثم حوّلها صلاح الدين الأيوبـــي إلى مدرسة.

وفي رأي للمقربين من الرجلين، أن ذيميانوس إنما يردّ جميل الخوري وأبيه في حادثة عزله، وهو من الذكاء بحيث يقدّر مكانة الخوري كثائر صلب، ومناضل خاطر بحياته مرات، وله مريدون وأصدقاء من رجالات البلاد وكتّابها ورؤساء أحزابها وشباب النادي ممن يذكرون دوره الوطني.

يسرق العشق الحرام عيون الحسد.. يشعل النميمة.. وقادرة حكايا الحب على احتلال المجالس.. تخيّل أهل عين كارم والقدس ما كان ولم يكن في قصة الخوري والعمّة.

– ميلادة تربت يتيمة مع أخويها.. تزوجت في عين كارم وترملت بعد سنوات لم تتجاوز أربعا أو خمس، فعادت إلى القدس.. ونسيت البلدة أرملة شابة إلى ان رجعت مع الخوري راعيا للكنيسة، فخرجت البلدة عن طورها.. وعين كارم، بلدة صغيرة غرست فوق جبل.. تحرس أحراش

الجبال أمامها، عشقت الغيوم سماء صيفها، وحنت الغابات بالنسائم فصارت مصيفا لأكابر القدس وسترت أسرارهم.. والبلدة، مثل مصائف الدنيا، لها قانون غير مكتوب، أن تنسى صباحاتها ما يدور في لياليها.. لا ترى ولا تسمع، فما يجري خلف أبوابها ليس من شأن أحد.. قانون ازدهرت به أحوالها. حادثة يتيمة ظلت بلا تفسير، وتثير الدهشة والاستغراب، ثار فيها مختار البلدة على وجود الخوري وميلادة، ودون كل ما يجري في ليالي البدة، وتحت سمعه وبصره... قالت عجوز تعرف العمّة.

في أرشيف البطريركية الأرثوذكسية رسالة احتجاج إلى البطريرك، عليها ختم مختار طائفة الروم الأرثوذكس في عين كارم، وتحته تعقيب بخط اليد باليونانية، ثم ختم:

– يؤسفنا، أيها المبجل عظيم الاحترام، أن نعلمكم، بأن كاهن الطائفة متري الحدّاد يسيء إلى كنيسته، ويسوّد وجه مقامكم الديني الرفيع، ويقلل من هيبة جميع الإكليروس، ويخزي بتصرفاته الطائفة كلها.. كاهن لا يحترم ثوبه، فعلاقته بالأرملة ميلادة أبو نجمة تحرج طائفتنا، الصغير قبل الكبير.. وصرنا مسخرة للطوائف الأخرى. وأتباعهم يتندرون بغرامياته حتى وصل الكلام إلى مدارس الصبيان.. وإن لم تضع قداستك حدا لهذه الفضيحة، وتردع الكاهن الفاسق، فسأكون وحامولتي أول

من يدوّر على طائفة أخرى، وتتحمل أيها المبجل الوزر والخطيئة.. لأننا سنفعل هذا مضطرين، فنحن أرثوذكس ابا عن جد.. وقد أعذر من أنذر.

أعاد ذيميانوس الخوري متري إلى مقر البطريركية في القدس، ورجعت العمّة إلى حوش العائلة.

الحاكم بأمر الله

طفلة لمحْت على جدار العمّة صليبا كبيرا من خشب عتيق، وقناعا لوجه بقرة عاث به الزمن، وقرني غزال.

- القرنان تميمة ترد الحسد وتجلب الحظ، مفعولها أقوى بكثير من الخرزة الزرقاء.. أما الصليب والقناع فحكاية سالم أبو نجمة ومرج العائلة الضائع، ذكرى تثير الأسى وتجرّح النفوس... قالت أمي.

في ليلة شتائية، على نقرات مطر، وفرقعة قشور الكستناء يقلّبها ابــي على النار، وبين زفراته والتنهد أجاب عن سؤال تجاهله مرّات، روى حكاية القناع والصليب.

- شابا صغيرا هاجر ابن عمي سالم أول مرة، وانقطعت أخباره.. وبعد سنين رجع مع شركة فرنساوية لتمد خط سكة حديد يافا- القدس.. أول قطار في بلاد الشام كلها.. وكانت الشركة نفسها قد حصلت على امتياز مد سكة حديد فوق قناة بنما، ولأسباب كثيرة توقف

المشروع.. والقصة كما سمعتها من سالم، أن بنما اختلفت مع الفرنساوية.. قالوا عرض القضبان زاد سنتيمترا عن المقاس العالمي، وأصر الفرنساوية أنه لن يؤثر على سلامة القطارات، لكن بنما اتخذتها حجة لوقف المشروع، بعدما تفشّى وباء الملاريا بين العمال، والبعوضة هناك أكبر
من الذبابة، وهي بلاد مستنقعات وحر لم تحتمله أجساد العمال، وكان لا بد من تجفيفها وردمها قبل مد الخط.. المهم باع الفرنساوية الامتياز للأمريكان، وشحنوا القضبان والوصلات إلى يافا بالبواخر، لأن عطاء مدّ خط حديد يافا القدس رسا عليهم.. وما لا يمشي عند الأمريكان وبلاد برّة يرمونه علينا.. مهندس الشركة الفرنسية عرض على سالم الرجوع معهم منسقا للشركة، فهو ابن البلاد، ويعرف لغتها وأهلها، وفي اسرع وقت، لأن العمل سيبدأ في ثلاثة أشهر ويتم في سنتين.

واربدّ وجه أبـــي:

– كيف خسر سالم في مشروع سكة الحديد لولا قصر نظره وسوء إدارته؟ لو كان حصيفا لجمع ثروة! لكنه ضاع وضيّع لنا المرج.. أما قلّة العقل الأكبر فمن أبـــي وأعمامي، ومن النخوة الكذّابة.. مئات الدونمات راحت خسارة.. وابن عمي بعد أن ضيّع المرج، أدار لنا ظهره

وقال عدّوا لي.

– وميلادة لا تتوقف عن الفوشرة.. أبــي فلتة زمانه لكن الدنيا كسرت ظهره.. ولولا جور العثمالّية ومرض جدي لما ترك المدرسة ثم البلاد. ولو دخل السيمنار الروسي، لكان أول من حمل شهادة عالية في عين كارم.

هي المرة الأولى أفصحت فيها أمي عن مشاعرها نحو العمّة، ظل بينهما احترام وود حين تلتقيان.

– ببغاء وتعيد كلام أخيها.. كلما اجتمعنا صدّع رؤوسنا.. أبــي وأبــي، ولو وصل روسيا لما برز من العرب أحد.. وخذي حكي وبس.

وازداد حنقا.

في روايات العارفين ان عائلة أبو نجمة تسابقت على الاحتفاء بعودة ابن مهاجر، شاب منهم اعترف بذكائه أهل التشيلي والفرنساوية والعثمالّية.

سعادة سالم بالعودة ليست تباهيا بالمنصب في شركة عالمية فقط، ولا فرحا بعودة تطفىء الشوق للبلاد، أو زهوا بالتعامل مع كبار موظفي هيئة سكة الحديد والمتصرفية العثمانية، ورؤساء بلديات مدن ومخاتير قرى يمر الخط في أراضيها، شخصيات لا يحلم احد من أقاربه

بالسلام على أصغرهم نفوذا، بل لسبب يوازيها مجتمعة، أنه قرر الزواج.. ولأنه يؤمن بالمثل "من طين بلادك لط خدادك" لم يفكر بالارتباط بفتاة "من خليط الجنسيات" في الغربة.. فرغم ضجيج الحياة في الأجساد السمراء، وفورة الصبا، وإغواء الجلود البرونـــزية، حلم سالم بصبية من بلدته، جميلة تفك الخط، يعود بها إلى التشيلي... لكن أحلام ما بعد العودة، تجاوزت بنات عين كارم إلى فتاة مقدسية، جميلة، تقبل الزواج بفلّاح مغترب، لفّ الدنيا، موظف مع الفرنساوية، وقد يبقى في البلاد أو تعود معه إلى حياة المهجر.

سالم أبو نجمة لم يتزوج في عودته الأولى إلى البلاد، بل دفعته ظروفه إلى البحر من جديد، هرب من الأتراك والحرج من ضياع المرج في حادثة سكة حديد يافا القدس.. ثم تزوج في عودته الثانية إلى البلاد.. وسالم أدمن الهجرة والعودة.

– حظي يلاعبني.. كلما رجعت إلى البلاد غافلني وظل ورائي.. فيجبرني على الرحيل.. فسر سالم تعدد اسفاره.

قلت لأبـــي:

– في التاريخ المدوّن أن سكك الحديد كانت نقمة على الأتراك وعلينا، عجلت بسقوط خلافتهم، وزرعت

المستوطنات والكوبانيات حول السكة الحميدية [19]، فأثرى سكانها اليهود من انتاج مزارعهم وتسويقه بالقطارات، حتى سمّى الناس قطار درعا حيفا "قطار الحليب" لكثرة ما نقل من مشتقات الألبان من مزارعهم.

- كانت نعمة ونقمة.. سهلت حركة عسكر الأتراك، ونقلت بضائعهم، وانعشت تجارتهم، وتدفق الحجاج إلى البلاد المقدسة، المسلمون إلى مكة، والمسيحيون إلى القدس وبيت لحم.. الحجاج الروس وحدهم صرفوا ملايين الروبلات كل سنة.. وسكك الحديد عمّرت مناطق لم يكن فيها غير الواويات وقطاع الطرق.. البقعة التحتا مثلا.. قبل محطة القطار سكنها البدو الرحّل، وعاشوا على قطع الطرق وسلب الحجاج، والغارات على القدس.. وسكك الحديد نقمة على الأتراك لأنها سهلت تحرك الثوار وتواصلهم وهروب المجنّدين فعجلت بانهيار الخلافة... والباب العالي أدرك منذ احتلاله خطورة النقل السريع بين بلدان تتململ بالجور والفقر، فلم يمد الطرق بين المدن طوال أربعة قرون من حكمه. وحين مد السلطان عبد الحميد سكك الحديد انتهت خلافتهم.. وأكيد كانت نقمة علينا لأن المستوطنات نبتت حولها.. وتملك اليهود الأرض بسببها بعد منع.. وجمعوا ثروات طائلة من تزويد القطارات بالفحم والماء، وحمل منتجاتهم إلى أسواق

العرب والعالم دون أن يتكلفوا شيئا، نقلتها سكك حديد مدتها تبرعات سخية من السلطان عبد الحميد الثاني، وشاه إيران، والخديوي عباس حلمي في مصر.

والمؤرخ يعرض للكاميرا إحدى وثائق أرشيف الأستانة، صورة عن رسالة مستر فيللنج البريطاني إلى صديقه السلطان عبد الحميد الثاني قال:

- حَلِم السلطان بدولة حديثة في بلاد الشام مثلما فعل محمد علِي وأبناؤه في مصر.. وربط اصقاع الخلافة بسكة الحديد فهي فكرة صديقه الإنجليزي كما أوضحها في رسالته، وتمت كما خطط لها. فانقلب حلم الخليفة التركي كابوسا وانهزاما.

"واعلموا يا جناب الصدر الأعظم، أنه لن تقوم دولة حديثة مزدهرة اقتصاديا كما في مصر، إلا بربط أرجاء بلاد الشام بشبكة خطوط حديدية تقصّر المسافات، وتحيطها طرق فرعية تصلها بالداخل، وذلك لتطوير وتشغيل خدماتها في غير مواسم الحج بل طوال العام.. كما أن مد الخطوط سيدخل البدو والعربان في دائرة الطاعة والانقياد لدولتكم السنيّة.. وتعلمون أن بناء دولة حديثة لن يتم إلا بإعمار المناطق حول الخطوط، أمر يتطلب إسكان خمسة ملايين من المتعلمين الموسرين حوله، القادرين على

استغلال خصوبة أرضه بطرق زراعية حديثة، وإنشاء مزارع للأبقار والدواجن بطرق علمية لغزارة الانتاج وتحسين السلالات ومكافحة الآفات.. هكذا تسهم الزراعة في نهضة البلاد.. وكل هذا، كما تعرف عظمتكم، علم حديث بعيد عن جهل الفلاحين العرب.. والحل الوحيد لإنجاح المشروع، هو بإدخال السكان اليهود في التابعية العثمانية، يخضعون للنظم والقوانين النافذة فيها، مع السماح لهم بتملك الأراضي ذات الخصوبة العالية، لتقبل تطبيق جميع الاختراعات الحديثة، والتطور العلمي الزراعي في العالم.. وتعلمون عظمتكم أن جلّ اليهود من الأغنياء، وهم تجار بارعون، ومزارعون تسلحوا بأساليب العلم الحديث.. وستسهل خبرة هؤلاء وعلاقاتهم بدول العالم تصدير إنتاجهم إلى اسواقها.. وفي حال موافقتكم على جلب اليهود من العالم، ولتخوف الصدر الأعظم من هذا الأمر.. نعالج المسألة باتفاق بين حكومتكم السنية والمسؤولين عنهم، لتقييد أي طموح غير تجاري أو زراعي لهم".

والأمر لحضرة من له الأمر.

"12 أيلول، 1324ه - 1908م"

وتخلص وثائق الأرشيف العثماني عن نهاية الخلافة

في بلاد الشام، إلى أن مدّ خط حديد الحجاز، كان أحد أهم أسباب "ثورة العربان" في الجزيرة العربية وبلاد الشام، أفقر قبائلهم، وعطّل تجارتهم، وحرمهم مكاسب حراسة القوافل وتوفير لوازمها، فثاروا على خلافة مسلمة، وساندوا حلفاء نصارى في حرب كونية أولى... أكد المؤرخ.

سكة حديد يافا القدس قلبت حياة سالم أبو نجمة، وسطرت حكاية مؤلمة تناقلتها أجيال العائلة، قبل ان تخبو، مثل قصص الناس كلها، في هيمنة القصة الكبرى، ضياع البلاد والشتات.

لسنوات طويلة حارت مشاعر سالم نحو كبير مهندسي متصرفية القدس، وممثل الدولة العثمانية في هيئة مشروع سكة حديد يافا القدس، هل منحه فرصة العمر فاضاعها؟ أم تخلى عنه في ورطته؟

– أحتاج تسمية المرج ضمانا في عقد توريد مثبّتات القضبان.. وعدني كبير المهندسين أن يرسو عليّ عطاؤها بعد سحبه من الشركة الفرنساوية.. والهيئة قسّمت العطاءات لضمان الإنجاز في موعده.. وتسمية المرج ضمان التوريد في وقته، أما لو تأخر المشروع بسببــي، لا سمح الله، فلهم أن يصادروه، أو أدفع مبلغا يساوي

قيمته.. وهذا مستحيل لسببين: صديقي التشيلي صاحب مصنع الحديد سكب المثبتات الناقصة للفرنساوية ويعد لشحنها، واتفقت على شرائها منهم بمجرد توقيع العقد. والشركة الفرنساوية تفاجأت بعدد الانحناءات والالتفاف حول الجبال، لهذا أوصت على ما سينقص، وهو قليل. وبالتأكيد سيصل قبل أن نترك الساحل.. الأمر الثاني أنني اتفقت على شراء أطنان من الوصلات الحديدية والبراغي المستعملة في مخازن الشركة، نقلتها معها من بنما قبل أن تعرف أن العطاء سيسحب منها، وبأبخس ثمن.. وهذا سيضاعف أرباحي.. وأنا لم ألجأ إليكم إلا بعد أن عرضت رهن دارنا في عين كارم، فقدروا ثمنها بأقل من المطلوب، والحوش وقف ذرية لا يجوز التصرف فيه.. ويا جماعة الخير الربح مضمون، وحصتي من أرباح العوارض والمثبتات يمكن أن تشتري عشرين مرجا، خلاف أجوري كمراقب للعمال، وضابط اتصال بين الشركة والمتصرفية.. وسأعوضكم عن رهنية المرج بنسبة حصة كل واحد فيه، يعني كأنني استأجرته منكم حتى انتهاء المشروع، المهم أن لا يعترض أحد على تسميتي له في العقد.. وكلام في سرّكم.. كبير المهندسين شريكي من الباطن، ولن يسمح بالخسارة، ولا بتوقيع الجزاء.. والرهن إجراء شكلي.. ورجائي أن لا يعرف الطير الطائر بما بيني وبين

المهندس، لئلا نضر بمركز الرجل وسمعته.

لكن خط سكة حديد يافا القدس قلب حياة سالم وعائلة أبو نجمة في حادثين منفصلين، لا يقل أحدهما غرابة عن الآخر.

الأول، بعد قرار الشركة بأن يلتف خط القطار حول سفوح الجبال.. فمدّ القضبان متعرجة أقل كلفة من اختراق جبال صخرية، وبأنفاق ضخمة لخط مستقيم.. والحفر يضاعف الوقت والكلفة وعدد العمال، ويحتاج معدات لم تعرفها البلاد بعد.. لكن سرعة استهلاك الوصلات فاجأت الشركة قبل سالم.. ولا مصنع للحديد في البلاد.. توقف العمل.

واكتملت الحادثة بوصول رسالة من التشيلي، وخبر لم يخطر لسالم على بال. لا سفينة ستصل. أغرقتها أعاصير ضربت سواحل أمريكا في غير أوقاتها.. احتمال لم يضعه المصنع في حساباته، فالشحن يتم في شهور لم تعرف أنواء ولا عواصف في ما يذكره أهل تلك البلاد.

كأنما يسمع مصيبة غيره تلقى سالم النبأ.. أنكر في نفسه قدرة على التجلد مع كارثة بحجمها، والثبات أمام توابعها.

هب لتدارك المال والوقت.

صديقه التشيلي، صاحب المصنع، أكّد أن صرف التعويض قبل انهاء إجراءات التأمين مستحيل.. لكن، تقديرا للصداقة، ولمعرفته بقيمة الشرط الجزائي، وما يعنيه المرج للعائلة ولتفادي الحرج، بدأ عملا متواصلا لإعداد شحنة جديدة.

– ويا حيف على الرجال.. أكثر ما كسر ظهري نذالة كبير المهندسين.. حسرة منقعّة في قلبــي للممات.. ولا تفسير يبرّد ناري.. كأنه لا يعرفني! انقلب عليّ وصار ألعن من الكل، يزايد ويتشدد ويحملني المسؤولية.. قال أهملت تقدير المخاطر، وأحرجت هيئة السكة أمام الباب العالي، ورد التماس المحامي بالتعذر بالقوة القاهرة لإخلاء مسؤوليتي، والأدهى والأمرّ أنه رفض استقبالي في مكتبه، وأغلق باب داره في وجهي.. المهندس رفعني للسماء ثم خبطني بالأرض ولم يسمّ عليّ.. قرر الشراكة، الربح له ولي، والخسارة عليّ وحدي.. وحين وقعت الواقعة، انسحب مثل الشعرة من العجين.. فرض على الشركة أن أمثّلها، وسحب منها العقد ثم تركني أغرق.. ويا جماعة الخير، معروفكم على راسي وحقكم في رقبتي، ولن يضيع لأي منكم ولو بارة [20]. وأرجو أن تكملوا جميلكم فلا يعرف أحد بالموضوع، وأن تصبروا حتى أحصل على حقوقي من العثمالّية، فهيئة سكة الحديد لم تعترف إلى

الآن بديوني على الشركة.. أنا وغيري.. ورئيس البلدية حين اشتكيت له قال: لن يدري بك الذبّان الأزرق لو وقفت في وجه الأتراك، وسلامة الراس غنيمة، ليس لك إلا طول البال والصبر.. أما بطرك الروم فاعتذر عن عدم التدخل لأن جمال باشا لا يقيم وزنا لأحد، ولا يأخذ بخاطر مخلوق... قال سالم لأقاربه في ديوان العائلة.

لثلاثة أسابيع وأربعة أيام تأجّل افتتاح سكة حديد يافا القدس [21]. نفذوا الشرط الجزائي في عقد سالم أبو نجمة، وحمّلوه مسؤولية التأخير، وصادروا المرج ثم باعوه للرهبان الفرنسيسكان.

ولم يعرف أحد، حتى عاد ولدا سالم إبراهيم وحبيب من أمريكا بالرواية الحقيقية لما جرى، وبتفاصيل كثيرة أسقطها سالم في حينه، أنه وهو ينحني ليقبل يد البطريرك اليوناني ويغادر مقّرّه، ابتسم، ودس في يده صرة صغيرة، خمس ليرات عصمالية أفرحته، ونصيحة أدّت إلى خسارة أخرى وقهر أكبر.

– مفتاح التركي صبية في حارة اليهود، في حضنها ينقلب القائد المرعب خروفا، لا همّ له غير إرضائها، وإذا وافقت سارة أرونسون على طلبك، فاعتبر أن المرج في يدك. أما مفتاح العشيقة فعند صائغ يهودي في شارع يافا،

وستعيد لي هذا القرض لو حلت المشكلة.

بريق الماس والزمرد في علبة القطيفة أبهر سالم وألجمه.

– في الحلق عشرة قراريط من أجود أنواع ألماس وأكثرها نقاء، تحيط بفصين كبيرين من الزمرد النادر، وزن كل منهما خمسة قراريط.. كان لدوقة روسية قريبة القيصر حجّت إلى القدس، فسطا اللصوص على أموالها ومجوهراتها في النــزل، بينما تتعبد في الكنائس، فباعت ما عليها من مصاغ لتنفق على نفسها وحاشيتها.. وسارة أرونسون زبونة، أغرمت بالحلق ولم تشتره لثمنه. وستقدر لك قطعة نادرة اشتهتها لنفسها، وتعرف قيمتها.

ورغم خلو المحل وللمبالغة في الحرص همس:

– قبل سارة لم يتذكر العثماني المتغطرس أننا أهل كتاب، ورمى الخط الهمايوني في الزبالة، ومنع ملتينا من العمل في دوائر الحكومة مهما بلغ علمنا. فضّل علينا الجهلة من ملّته.. ولم يتساهل معنا إلآ من أجل خاطر سارة لأنها طلبت! صحيح سمح لنا بوظائف كتبة ومحاسبين، لكن أفضل ألف مرة من العمل في طوابير الشغّيلة "العَمَلة"، نجمع الزبالة، وننظف الشوارع والحمّامات العامة.

بعشر ليرات ذهبية هي ما يملك، اشترى سالم أبو نجمة قرط الماس والزمرد لعشيقة الحاكم التركي.

ذاهلا تسمّر.. صامتا وقف، وسارة أرونسون تدخل صالون دارها في حارة الشرف "اليهود". جمال أعجزه عن النطق.. فقط.. مدّ هديته.

ولما اعتادت الحسناء من الرجال في حضورها ابتسمت، فازدادت فتنة.. أخذتها.. تأكدت من اسم التاجر على العلبة.. لم تشكر ولم تفتحها.. وضعتها على الطاولة.

– تقاسمني حصتك إن أعدت لكم المرج... قالت وما زالا واقفين.

جمعت سارة أرونسون "الفلاح الحقير سالم أبو نجمة بعظمة الجناب السامي القائد المبجّل جمال باشا، أعزّه المولى".

واقفا بين يديه في صالون دارها، روى سالم قصة المرج.

فجأة.. خالطه مع رهبة الموقف إحساس غريب صاعق، أن كرسي جمال باشا، المذهّب في صدر الصالون، بعيد جدا، وربما لا يسمع ما يقول، وأن صوته يفرّ من أوتاره، ويتلاشى في الهواء، فلا يصل القائد.

لكن وجه القائد اربدّ.. واهتز شارباه بلا توقف، عادة لازمت غضبه، واشتهر بها بين الناس.

وبرودة الخوف صقيع ارتجف سالم.. اصطكت أسنانه، وأخرسه رعبه.

هبّت الجميلة.. وعلى ركبيتي القائد جلست بدلال.. قبّلت جبينه، ودغدغت أذنه، وهمست بما لم يسمعه.

دهور لحظات الجزع، وفي غزارة شعرها مرّغ القائد وجهه.. أطال كأنما غفا.. وتوقف الزمان حتى رفع رأسه محاولا الهدوء، وعلى غابة النعومة في شعر سارة مسح بيده، فأراحت رأسها على صدره.

– الأرض بيعت للرهبان، ولا يمكن استرجاعها... بحزم قال.

في هول الخسارة لم يدر سالم كيف اندفع إلى الكرسي المذهب.. جثا أمامه وسيول عينيه تغرق وجهه، ومن جفاف أوتاره، غاصا ومختنقا، جاهد ليسحب صوته.

– يا جناب القائد العظيم، حفظك الله وأدام عز دولتنا السنيّة، نحن خدّامكم عائلة أبو نجمة المساكين، وأنتم رجاؤنا بعد الله.. أن تعوّض علينا المتصرّفية ثمن مرج ضاع بسبب أعاصير أغرقت السفينة، ولا ذنب لأحد في

المقدّر والمكتوب.. وهل من سلطة لبشر على الطبيعة؟ وإذا كان لا بد من الجزاء، فليقع على حصتي، فلا إثم على أقاربـــي ليفقدوا حصصهم، ويصيروا على الحديدة.. وأوراق الويركو تثبت أن المرج مشاع بيننا.

والفلاّح الذمّي يسطو على وقت متعته، وبكل الغلّ والحقد، ركل صدر سالم ببسطاره العسكري فارتفع، ثم سقط على ظهره وسط الصالون.

- وهل أسرق الباب العالي يا خرسيس؟! أم نعادي حكومة الفرنساوية ورهبانهم؟ ومن أجل من؟ فلاحين جهلة ومرج صغير؟ هل ندخل حربا لخاطر عيونكم؟ اخرس وإلا رميتك في حبس الدم.

خنجر الهلع شقّ قلب سالم.. والصور البعيدة هاجمت سواد لحظته.. صغيرا كان، وبكاء الرجال يحمل جثة خاله إلى عويل النساء، أعدمه الأتراك لهربه من التجنيد.. والأيدي عاجزة عن غسل عظام برزت تتكسر.. تطق لأية حركة، فتخترق يباس جلد تجعّد بهروب الحياة.

ضحكة دلال وغنج الصبية انتزعته من فزع تكوّم عليه، وعنق القائد بين ذراعيها قالت بدلع وأنوثة طاغية، فانغرس صوتها عميقا في وجدان سالم وذاكرته:

- وهل يغضب العظيم المبجّل.. حاكم عموم بلاد

الشام! من تخضع له الرعايا والتابعية، ويرتعد من قدرته عليّة القوم، وأصحاب الأطيان والعمائم والقلنسوات، أيكدره فلاح غبــي؟ جاهل، لم يقدّر عواقب ما يطلب؟! بائس طمع في كرم قائد القدس وحاكمها؟! أيتعكر مزاج عالي المقام من دودة مثله؟ لا يليق بقائدنا وسيدنا إلا السماح والمغفرة.

وفي عيني عاشقها خمد الشرر.

مجّ جمال باشا غليونه.. نفخ الدخان، ووضعه على الطاولة.. والها حدّق في وجه سارة.. مأخوذا بفتنتها أطال التفكير.

احتضنت الصبية حيرة العاشق، غرست رأسه في صدرها.. وبيدها أمرت سالم أن أخرج.

زاحفا وصل الباب، ثم سابقت شياطين الرعب ساقيه.

طويلا تعذب سالم بانكساره أمام امرأة فاتنة.. نقم على عدم تماسكه وبكائه "مثل النسوان" أمام متغطرس جبّار، لكن، ولسنين طويلة، تغنى بجمال سارة أرونسون، ولهج بفضلها في نجاته من السفاح، وإلى يومِ أرغم فيه على السكوت.

في تعبها ردّت زوجته مريم الضاوي مداعباته،

وأدارت ظهرها لتنام فدفشها بغل:

– يعني شقفة البقلاوة اليهودية مرة وإنت مرة؟ يقطعني على حظي.

اعتدلت في فراشها.

– الله في سماه.. لو نطقت اسم هذه العاهرة مرة ثانية، أو تلفظت بسيرتها فسأترك دارك.. ولن تعرف مكاني ولو درت العالم.. قطيعة تقطعك.. كأنك ما شفت نسوان؟ زلمة وأبو أولاد صرت مسخرة بحب يهودية نطّت من حضن التركي لحضن الإنجليزي، وهي تلبس الحلق من فلاح أهبل.. يكفي! روحي بمناخيري من تلقيح الكلام، من القريب والغريب.

وثورتها مفاجأة أخرسته، فكثيرا تغنى بجمال سارة، فسمعته في صمت.

لم يعد سالم لذكر سارة أرونسون، وحتى ليلة رحيل ولديه عن سانتياغو.

في قسوة الفراق، وإصرارهما على القطيعة، وعجزه عن إقناعهما بالبقاء في التشيلي، امعن في تصوير خطورة التسلل إلى الولايات المتحدة، فقوارب التهريب تتكدس بالمهاجرين، وكثيرها غرق في أنواء محيط لا يرحم..

وشرطة خفر السواحل تراقب امتداد الشواطئ الأمريكية، لتعيد من لا يحمل أوراقا رسمية أو تسجنه.. مخاطرة بلا مبرر، فالعمل معه مضمون، وليس أحرص منهما على ماله. "وبقر الدير في زرع الدير".

في ليلة الوداع تلك شرب سالم حتى ثمل.. بكى وانتحب، وأخرج أثقال نفسه، واسرارا كثيرة.

- لعنة الله على حظي.. كأنه خواجا.. ما طاق البلاد.. كل مرة قلت البلاد طلبت أهلها ورجعت، عاندني ورماني في المراكب غربا.. ولأني أحب القدس رجعت.. لكن الحظ والأتراك سوّدا وجهي.. حتى الليرات حصتي من الدفينة بعتها.. وهربت من السفاح.. أهانني.. زحفت قدامه وبكيت مثل الولايا.. رفسني كأني كلب.. ولولا عشيقته اليهودية لقتلني.. خسارة في المجرم فلقة القمر.. بنت بتفك عن المشنقة.. ومع ذلك رجعت لأتزوج من بنات البلاد.. وخلّفتكم.. لكن الدنيا ضاقت.. عليّ وعلى الناس كلها.. حرب وراء حرب، وفقر وسخام.

ورغم أن حال سالم كانت "تصعب على الكافر" كما وصفها إبراهيم وحبيب لميلادة يوم وفاته، إلا أن الشابين قررا القطيعة مع أب "ترك زوجته وأطفاله يتلطمون، ونام في حضن "خمارجيّة" من بنات التشيلي.

القصة الحقيقية لما جرى في بيت سارة أرونسون عادت مع ولديه.. أما قبل هذا، فكل ما عرفته عائلة أبو نجمة، ان اليهودية أخذت الحلق وجمعته بالقائد.. فهاج السفاح لجرأته، وهدده بحبس الدم، فأنقذته توسلاتها.

بهدلة سالم في بيت اليهودية قصة اثارت شفقة العائلة، وعجزت عن تغيير إحساسها بالغبن والقهر، والمرج الضائع يتسع لمدرسة، ومشفى، وحديقة، إضافة إلى الدير.

وضياع المرج السطر المؤلم في تاريخ العائلة، انــزوى في تلاحق أحداث البلاد الكبرى، ثم عاد ساطعا بعد سنوات، مع خبر صدور كتاب في بريطانيا اثار ضجة عالمية. "أعمدة الحكمة السبعة" مذكرات لورنس العرب [22] ، جاسوس بريطانيا الأشهر، يروي فيه تفاصيل دوره في الحرب العالمية الأولى، وهزيمة الأتراك.. قرأه ساسة العالم قبل العامة.. وما أثار اهتمام عائلة ابو نجمة في الكتاب، كماأكدت برقياتهم وأحاديث هواتفهم، ورسائل لم يعتد كثير منهم كتابتها، هو دور سارة أرونسون في الحرب العظمى. وتصدير لورنس للكتاب بإهداء "إلى الصديقة سارة أرونسون، التي قدمت خدمات جليلة لبريطانيا والحلفاء، مكنتهم من هزيمة الأتراك".

والمذكرات متابعة يومية للثورة العربية الكبرى، وبنظرة فوقية روى لورنس معايشته للبدو، وصداقته للقبائل، وعلاقته بالأمير فيصل بن الحسين، ومرافقته لشريف مكة وأبنائه، وحتى دخول قائد الحلفاء المنتصر الجنرال إدموند أللنبـــي إلى القدس، وإعلان الانتداب البريطاني على فلسطين:

"وإنني أكثر ما أكون فخراً لأن الدم الإنجليزي لم يسفك في المعارك التي خضتها مع البدو، فجميع الأقطار التي خضعت لنا بعد الحرب الكونية الأولى، لم تكن تساوي في نظري موت مواطن واحد من بلادي".

الستارة الأخيرة على فصول الملهاة المأساة في حكاية العشيقة والسفاح، أسدلتها الوثائق العثمانية، فكشفت دور "المرأة الهالكة" في هزيمة الخلافة، وأجمعت على أن خطة رسمها الحلفاء واليهود، ونفذتها "سليلة ابناء الميتة" سارة أرونسون، جاسوسة الإنجليز، والمجنّدة في الوكالة اليهودية، عجّلت بالثورة العربية. وعملت على تنفيذ حلم قومها بإقامة وطن لهم في فلسطين.

يخدّر تمثيل العشق والافتتان بالهيبة عقول القادة.. تنتشي به قسوة قلوبهم.. اقتنع القائد المولّه بحنكة عشيقته، وسداد رأيها وحرصها عليه، وكل ما حوله يمور

بالعصيان والرفض لسياسته.

تخدم الظروف من يقتنص فرصها فتحقق مآربه.. سنحت فرصة الصبية يوم رفضت القيادات الفلسطينية اقتراح جمال باشا بإنشاء كونفدرالية عربية عثمانية [23].

– البطش أيها المبجّل يفرض هيبة الحاكم.. ووأد الفتنة يعزّز مكانتك قائدا فذا، وإن لم تفاجىء أنقرة بالقضاء على معارضيك، الرافضين لكم، والمطالبين بالحكم الذاتي، فستتهم بالضعف والتخاذل، ولا بد من شنق بعضهم في الساحات العامة "عبرة لغيرهم" لتفرض الهدوء على بلاد الشام.. وأما جريدة "الحمارة القاهرة" في حيفا، وهي لا تكف عن السخرية من جنابكم، ومن حزب الاتحاد والترقّي الحاكم، فقللت من هيبة الدولة السنية بين الرعايا والتابعية، وساهمت في العصيان. ولا بد من تأديب أصحابها وكتّابها جميعا.

وعالم قائد متغطرس يغلي بالرفض له، ومحتميا بالغرام من خطورة القادم، وفي حضن صبية يعشق، اقتنع بنصيحتها.

تحت قناع من البطش والقوة تخفي النفوس الحائرة قلقها من هول القادم، فتغلّف خوفها منه بمزيد من القسوة على من هم دونها.

في لقاء قرب حبس الدم في القدس، وصف المؤرخ تصاعد بطش العثمانيين، وجمال باشا، أثناء حكم جمعية الاتحاد والترقّي:

– التقى قطار يحمل ستة أحرار إلى ساحة المرجة [24] في دمشق، بآخر ينقل أسرهم إلى المنافي في الأناضول.. توقف قطارا الأحزان والدموع لوداع أخير. ثم تدلّت جثثهم في دمشق، مع اثني عشر جثة مناضل على مشانق نصبت في عاليه لبنان، بينما جمال باشا وقادته، وغانيات مأجورات، يمارسون اللهو والمجون تحت أشجار غوطة الشام.

شلال كراهية الأتراك اكتسح بلاد الشام، والسخط العام تجاوز الاحتمال، لقبوا جمال باشا بالسفاح، وأعلنوا عصيانا مدنيا، توقفوا عن دفع الضرائب.. أفرغ التجار حواصلهم، وامتنعوا عن تزويد الجيش بالغلال.

امتلأت السجون، تعددت وسائل الإعدام، وإن ظل حبس الدم أكثرها وحشية.. وتم بوسيلتين: يلقى بالمحكوم في قبو سحيق، عشرات الدرجات تهبط إلى ظلمة حالكة، ورطوبة موت وعفن وعظام جثث.. ثم يغلق بابه بحجر وطين، فينحبس الدم في عروق السجين رعبا قبل أن تجف من جوع وعطش.. أما الثانية فيصلب فيها المحكوم على

جدار، ويقام أمامه تماما حائط آخر ويغلق، فينحبس دم السجين رعبا قبل أن يختنق.

تحققت خطة وضعها اليهود والإنجليز.. إلهاء الرجل المريض [25] بثورات داخلية وحتى الهزيمة الساحقة.

– والعرب طلعوا من تحت الدلف للمزراب.. الحلفاء خدعوا الشريف حسين والعرب كلهم.. خلصونا من الأتراك صحيح، لكن تقاسموا بلادنا بالانتداب.. فرنساوي وانجليزي، ووعدوا اليهود بوطن على حسابنا.. تحسّر أبـــي.

مسيّا المنتظر

الحادثة الثانية في حكاية سالم ابو نجمة وسكة حديد يافا القدس، عاصرتها اجيال العائلة، وامتدت في حياتهم عقودا طويلة، وحتى احتلال باقي البلاد عام سبعة وستين.

في صباح رائق، وخيمة متنقلة، وخط الحديد يقترب مستقيما من سفح الجبل ليلتف حوله، جاذب مهندس المشروع الفرنسي، رئيس عماله سالم أبو نجمة أحاديث التاريخ والسياسة، حوار يومي يقطّعان به الوقت، عن أوضاع دولة عثمانية تنهكها الحروب وترامي الأطراف، تجامل دول أوروبا بامتيازات ومشاريع.. والفرنسي يعرف العربية، وكثيرا من تاريخ العرب وعاداتهم.

تعالت جلبة فهرول الرجلان.

تلة صغيرة اعترضت استقامة القضبان.. أزال العمّال منها يباس العوسج، وشوك الخرفيش، قطعوا شجرة متوحدة، توسّطتها كأنما قاست المسافة ثم قررت النمو.. كبرت وضربت جذورها عميقا.

تعالى التكبير والصفير وانهيار التراب يتكشّف عن رجم حجارة تحته دفينة.. صندوق حديد سميك، استسلمت أطرافه لصدأ الزمان وقاومت فتحها.. فيه رزمة جلد كبيرة لفّت بحرص، وسترت جرابا كبيرا مربوطا بإحكام.

خشخشة الذهب في الجراب عانقت صرخات الفرح.. وعصيّة طبقات الجلد حول اللفة الكبيرة، ساحت برطوبة الزمن فالتحمت.. أولى وثانية ثم ثالثة، وصمت الترقب عميق. وصليب خشب كبير معلّق بسلسلة من حبال الخيش قصيرة، مع قناع جلدي بهيئة رأس بقرة.

– سيقتلنا الأتراك، يسحلوننا أو يحشون مؤخراتنا بالخوازيق، ثم يرمون جثثنا للطيور وسباع الأرض لو علموا بما وجدنا ولم نبلّغ.. سيقولون سرقنا الآثار ولم نجدها... حذّر المهندس الفرنسي عمّاله.

ويمينه على جراب الذهب، ويسراه فوق الأثرين، قال وأشهد العمال:

– القرعة أعدل طرق القسمة، والآثار بأهمية الذهب إن لم تزد، وسأقبل بحظي، وعليك يا سالم أن تقبل.

في تخوفه من حظ قد يغدر به تردّد طويلا.

المهندس الفرنسي منح من الجراب ليرتين ذهبيتين

لكل عامل، ولسالم خمسا.

– وإنها لقسمة ضيزا.. تمتم سالم في قهره.. هكذا يصف أصدقاؤه المسلمون حيف الاقتسام، ولعن حظا عانده.

– ويبقى لنا جميعا في ذمتك يا سالم حصتنا من بيع الأثرين.. ولكن تمهل في ذلك واحرص، لئلا ينكشف أمرنا، وحاذر فعيون الأتراك منتشرة لا تغفل.

رئيس دير الفرنسيسكان، راهب فرنسي درس الفلسفة وعلم الآثار في باريس، واسع الاطلاع، يتقن العربية ويتقرب إلى أهل البلاد، شرح لسالم، بعد مكاشفته بالسر، تاريخ الذهب والأثرين كما وردت في المراجع والكتب:

– الدفينة كلها من زمن الحاكم بأمر الله، الفاطمي الشيعي، في مصر، بداية الألفية الثانية، وبيت المقدس آنذاك تتبع حكمه، يعيّن قائدها ويختار بطريرك كنيستها ويجمع ضرائبها.. والليرات صكت في عهده، وهذه صورته على الوجه الأول، أحاطها بنقش محمد رسول الله– عليّ ولي الله.. واسمه ولقب أمير المؤمنين وسنة صكها 401 للهجرة على الوجه الثاني... أما عن صليب الخشب فعلامة ميّزت رعاياه من النصارى، وبقناع وجه البقرة وسم جميع التابعية اليهودية في أنحاء خلافته،

وعاقب كل فرد من الملّتين غادر داره دونها.. العجوز كما ابن يومه.. الوجيه والوضيع، والفقير والغني، والرجال والنساء.

وفي المراجع التاريخية قصة الأثرين.. بحثت عنها عائلة أبو نجمة وتناقلتها، في تنامي الأمل أن تعوض بعض خسارة المرج، وخوفا من استغلال تجار الآثار لجهلهم بقيمتها:

"الخليفة الحاكم بأمر الله، صبـــي مهووس بالنجوم، جلس على عرش مصر، فشغلته كواكب السماء عن حال العباد على الأرض.. آمن بأن مصائر البشر مقيّدة إلى حركة نجومها، وأحوالهم مربوطة إلى مساراتها.. وتناسى أن "عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو".. مسهدا فوق جبل المقطّم قرب القاهرة مضت ليالي الحاكم الصغير.. يستقرىء الغيب معتقدا أنه علم الممكن.. شيّد مرصدا كان الأكبر في زمانه، وزوّده بأحدث آلات الفلك، واكترى أشهر المنجمين. وبنى مكتبة جمعت ما عرفته الأمم في علوم الأفلاك والنجوم وترجم غريبها، واحتضنت قاهرة المعز كل من له دراية أو مشتغل بها، فغص بلاط الخليفة بهم.. أكرم وفادتهم، وأعظم لهم عطاياه. وجلّهم من يهود ونصارى.

وسماء مصر تنتظر شتاءها تقدّم رئيس الفلكيين

صفوف علمائه وانحنوا للحاكم بأمر الله إجلالا:

– أطال الله عمر الخليفة، وعزّز ملك من قدره أن يحكم بأمر من رب العالمين، إنما جئنا لعظمتكم برسالة واجبة.. بشارة السماء إلى خليفة المؤمنين.. وعدٌ أكدته النجوم ومسارات الأفلاك بيقين لا يرقى إليه شك.. وها نحن نــزف إلى عظمتكم الوعد والبشارة، فمن حسن طالع البشر من أبناء زمانكم، أنكم اصطفيتم من لدن رب العالمين، شاهدا على انعتاق أرواحهم، وعلى خلاص الكون من آثامه.. سينتهي العالم في زمانكم، فأنتم صالح ومن ظهر صالح.. رسمت حركة النجوم الرقم سبعة بعد بداية ألف جديدة، وما زال في السماء راسخا لم يتحرك أو يبهت، وها قد شارفت السنة السابعة بعد الألف على الانتهاء.. والوعد.. الليلة الأخيرة من عامنا هذا.. مع انتصاف ليلها ستتطابق الأفلاك، فتفتح السماء ابوابها، وفي عربة من بروق تخطف الألباب يهبط "مسيّا" المنتظر، تحيطه الملائكة وأجناد السماء، يصطفي الصالح من أبناء الأرض ويحميه، ويتصدى للطالح ويطيح به.. يقاتل شرور العالم وينتصر، ويطهّر الكون من آثامه.

لوهم التفرد أجنحة تحلّق بأصحابها، فتكبر النفوس بفكرة اختلافها والاصطفاء، وتتضخم بالعظمة والغرور.

صدّق الحاكم بأمر الله أنه الشاهد المصطفى على اليوم العظيم... وإلى القدس سابقت رسله الرياح وطوت الرمال، أمر البطريرك فيها بتجهيز مدينة الله، وأقرب نقطة إلى السماء، للوعد والبشارة... ومن كل حدب وصوب غصت بيت المقدس بأتباع الديانات.. فاضت مدينة السماء بالبشر.. افترشوا طرقها والمعابد، وصلاة وترانيم لا تتوقف، وعيون ترصد السماء من فوق سورها وأسطح دورها، تنتظر أن تفتح بابها، وفي عربة من نور يهبط مسيّا المنتظر.. لكن الكواكب راوغت قلق ساهر مسهد، وبعثر صبره ليل طويل وحتى نامت أفلاكه في حضن الفجر.. والعام الجديد أضاء الكون، فعصفت ثورة الخليفة بمن وما حوله تحطيما ورفضا.

فاض نهر النيل بنوادر الرعية وأغرق أنحاء الخلافة، وما قيل فوق احتمال من يظن أنه يحكم بأمر الله... أطاحت سخرية العباد بعقل خليفة مهووس مكلوم بخديعة منجميه.. بطش بهم فلم يرتو حقده، فارتدّ، لهدوء نفسه، بالقصاص إلى مللهم وابناء جلدتهم في مصر وبلاد الشام.. ألبس اليهود قناع رأس البقرة، لأنهم أحفاد من عبدوا العجل الذهبـي بعد الخروج من مصر، بعد أن ثار أجدادهم على موسى وربه في التيه أربعين عاما في سيناء.. أما النصارى أتباع الصليب، فتثقل أعناقهم

بصلبان من الخشب تزن كيلوين لتنحني ذلا وألما.

- الصبـــي المجنون خرب بيتي، الله يخرب بيته! أدار وجهه عني يوم القرعة، فكانت الكتابة على الليرة الذهبية من حظي مع والأثرين.. وقف مع الفرنسي ضدي، ومنحه الذهب.. طيب أنا مسيحي والفرنسي مسيحي! لكن أنا عربـــي من التابعية، وهو من الفرنجة!. لكن عند الأتراك الافرنجي برنجي!

في خوفه من عيون الأتراك وعسعسهم لم يستطع سالم التصرف بالأثرين، فالإعدام عقوبة تاجر الآثار.. قانون عثماني طبقه الانتداب البريطاني وتشدّد فيه.. فأخفى الأثرين في قبو داره في عين كارم، ثم نقلهما خلسة إلى الحوش بعد زواجه.

- الأثران عند زوجتي، من يستطع بيعهما منكم فليفعل، واقتسموا الثمن.. قال سالم لأقاربه قبل هجرته الثالثة والأخيرة.

علّقت العمّة الأثرين فوق سريرها حين لم يستطع بيعهما أحد.. كبلهم الخوف من وشاية ثمنها رؤوسهم، وحتى احتلال باقي البلاد، فأخفتهما في صندوق عرسها.

من وشى بالعمّة والأثرين؟ سر ضاع في الأيام.. أمن عيون الحاكم العسكري الاسرائيلي؟ أو موظف في مكافحة

تهريب الآثار تخفّى كتاجر؟ أو ربما تاجر انتقم منها لمغالاتها في السعر! لا علم لأحد.

كل ما روته زوجة أخيها إبراهيم، ثم تناقلته النساء، تلميحا وسخرية ومغالاة في التفاصيل، أن صندوق عرس العمّة استبيح في ليلة المداهمة.. قلّبه الجنود وبعثروا أسراره.. نثروا قمصان نوم من ساتان حرير، وأروابا موشاة بالدانتيل، وملابس داخلية زاهية لم يتصور أحد أن صرامة العمّة تمرّغت في نعومتها، وأن ليالي وحدتها أشرقت بزهو ألوانها، معها أحذية مخملية مطرزة بالقصب، وأخرى جلدية لامعة بكعوب رفيعة وعالية.

تنمرت ميلادة للدفاع عن حياة خبأتها عن العيون، فردّتها بندقية الجندي.

– بعد منتصف الليل دقّوا الباب.. كادوا يخلعونه.. سألوا أنت ميلادة أبو نجمة؟ قلت أيوه، لكن لا ولد لي ولا زوج تاخذونه.. أزاحني أحدهم وتوجه نحو الصندوق كأنه يعرفه، أخرج الصليب والقناع.. قلت هذه ورثة أبـــي.. فسأل ومن أين حصل عليها؟. قلت لا أعرف، ولدت وهي في الدار.. دفشني فوقعت على الدوشك ونهرني: هذه آثار منهوبة وملك دولة إسرائيل، صرخت، والله؟! كانت لأبـــي قبل أن نسمع بإسرائيل، أو تصير لكم دولة!. سأل

وأين أبوك؟. قلت تحت التراب روح هاته.. شتمني وقلبوا البيت.. وقال تعالي معنا.. قلت بدون رجال العيلة لن أخرج من داري حتى لو طخيتوني.. جرّوا أخي من سابع نومة- وأخذوني أنا وهو مع الأثرين.. لكن أوراق أبـــي كلها سلمت.. أول ما احتلوا البلاد لفّيت الرسائل وصور كوشان الأرض والدار في سانتياغو مع جواز سفر أبـــي في أكياس بلاستيك، وخبأتها في غرفة المؤونة تحت الدرج.. سألني الجندي: هذه الغرفة لك؟ قلت لا فلم يدخلها.

لسنوات تفاخرت العمّة بأنها خدعت اليهود.. أمعنت في وصف تضليلهم فلم يجدوا أوراق العائلة. فيبتسم السامعون.. ولم يقل لها أحد، إن الجنود لم يأتوا بحثا عن الأوراق، ولا علم لهم بها، وما كانت ستعنيهم لو وجدوها.

تعزيزا للعلاقات مع مختلف الطوائف، وإكراما لمطران الروم الأروثوذكس اكتفى الحاكم العسكري للقدس بمصادرة الأثرين دون محاكمة العمّة.. فقط.. وقّعت تعهدا شهدت عليه البطريركية، بأنها ورثتهما طفلة عن أب سافر ومات في المهجر، ولا علم لها بمصدرهما أو قيمتهما، ولا بقانون الآثار، وهي لم ولن تتاجر بأي أثر، وستبلغ عمّن يقتنيها أو يأتي لسؤالها عنهما.

المؤكد الوحيد في حكاية مصادرة الأثرين، أن العمّة

بعد الاحتلال، عرضتهما للبيع بمشورة العائلة.

- ألف دولار ولن تزيد.

عاشقة خذلتها حقيقة هدية الحبيب حين ظنتها ماسا نادرا فإذا هي من زجاج، وما حسبته كنـــزا سيتهافت عليه تجار الآثار بلا قيمة؟ ثارت برفض الحقيقة.. اتهمت التاجر بمحاولة سرقتها وطردته بعنف.

حتى وطاويط الليل غافلها تسلل تجار الآثار إلى حوش ابو نجمة.. أغراب حملتهم المساءات، فانتعشت آمالها من جديد.

- عشرين ألف دولار.. قالت بثقة.

- ثلاثة آلاف ولن تزيد، في متاحف العالم مئات منهما.. نهرها التاجر العجوز.

كثيرا بكت العمّة مصادرة الأثرين.. وظل اجتماع الذهب والأثرين في دفينة واحدة لغزا محيّرا جوابه عند عائلة أبو نجمة.. الله أعلم!

عام الجراد

منتصبة الظهر على الكرسي عند بابها، عكس الغسق ألوان تنين مطرّز على ظهر روب ساتان أسود، أظهر نحولها.. ناولتها الطبق الصغير، قطعة كنافة، وحبات مشمش، وتفاح سكّري، من جولتي في البلدة القديمة.. ابتسمت.

– كان ركوب السفن للعم سالم مثل مشوار القدس يافا.

– جيل أبــي كله هاجر.

– لكن العم راح ورجع أكثر من مرة.

– السفاح هو السبب.. في بلاء الناس، ابــي وغيره.. الظلم والجراد سبب هجرة الشباب.. مثل غيوم سوداء ملأ السماء.. لم أكن مولودة لكن "هوّ" خبّرني.. هوّ أكبر مني بحوالي خمس وعشرين سنة، وواعي على سنة الجراد وغيرها.. قال يا ميلادة طقطقة الأجنحة مثل صوت طيارات الإنجليز.. والجراد أكل الأخضر كله.. لم تنفع معه

شباك، ولم يطرده دخان، والناس تسعل من الحرائق وتكحّ والجراد ولا همّه.. دقوا الطبول والأجراس، وأجران القهوة، والهاون، وحتى الطناجر، فظلت اسرابه تزحف وتطير. ولم تبق ورقة خضراء.. لا في أرض ولا حوش ولا بلكونة.. ولما طار ترك بيضه في التراب.. والسفاح لم يكفه هم الناس، أمرهم، الصغير قبل الكبير، أن يخرجوا لينظفوا البلاد منه.. الرجل يقتل ألف جرادة والولد نصفها، والذمّي، المسيحي واليهودي، الرجل يجمع سطلا من بيضه، يعني حوالي عشرين كيلوغراما، والولد نصفه، ثم يحرقونه، ويمكن للقادر من الذمّيين، أن يفتدي نفسه وأولاده، غرامة الرجل ليرة عصمالية ذهب، والشاب ستون قرشا.. والولد ثلاثون قرشا.. عمي أبو محمد، رحمة الله عليه.. جاء يتفقد زرعه في عين كارم.. وكرمه مع حدود دار جدي، وقف مقهورا في بستان لم يترك الجراد فيه ورقة.. سمع عركة جدي وأبــي.. أبــي يحلف أنه لن يجمع جرادة، ولو قامت القيامة وأعدمه الأتراك.. وسيهج من البلاد كلها ويتركها للظالم ومن يقبل الإهانة.. وجدي يولول ويمسك بأبــي ليمنعه من الهرب، ويبكي ويحلف أنه لو ملك المال لافتدى نفسه ووليه، لكن العين بصيرة واليد قصيرة، وهذا حاكم ظالم سيقتله، وأبــي ليس أحسن من باقي الخلق.. والجور امتحان من الله لصبر

عباده وإيمانهم، وشدّة وتزول.

عمي أبو محمد سمع صراخ أبـــي وجدي.. عالم دين ويخاف ربّه، وجيه وقادر ومن أكبر عائلات القدس، زعل.. حلف وقال لن تتمرمط عائلة أبو نجمة وأنا حي.. والجماعة جيرة هناء، ورفع الأذى عنهم حق وواجب، والنبـــي وصّى على سابع جار، والناس فقراء وعايفين التنك.. دفع الغرامة عن جدي وأبـــي وعمي.. وفي يومه ذاك حلف أبـــي أن لا تجمعه بالسفاح ديار واحدة، فرمى نفسه في مراكب الغربة أول مرة.

قصة افتداء أبو محمد لثلاثة من عائلة أبو نجمة تناقلتها أجيالهم بامتنان وإكبار.

وهجرة سالم أبو نجمة الأولى إلى التشيلي، مرورا بكوبا، قدر لم يسع إليه، قذفته الصدفة والأمواج على شواطئها.. وهو أكّد مرّات انها كانت منتصف العام 1887.

يافعا تسلل سالم مع عشرات الراحلين غربا، تناوبوا ركوب بغال معدودة، دليلهم بدوي خبر الطرق والمخابىء، وجهتهم بحر يافا.. ستر الليل سيرهم، ورطوبة الكهوف حنت على نهاراتهم. ينشدون شواطىء غريبة نائية، لعلها أكثر رأفة من موت مجاني في حروب الأتراك.

وصف سالم أبو نجمة رحلته الأولى:

– على همومها تكومت أجسادنا، ضاق رصيف الميناء بنفوس حائرة بالمجهول، ثم حملنا الظلام وسفينة ناءت بنا.. خليط من وجوه وأديان، وأزياء مدن وقرى، ولهجات حضر وفلاحين، شيبا وشبانا، وقليل من عائلات وأطفال.. غابت منارة يافا عن عيون وجومنا، فأسلما أمرنا لله، والمركب ألقى خوفه في مياه المتوسط.. مرعب انتظار المجهول وما لا نعرف.. والأزرق من حولنا ممتد بلا انتهاء.. اسابيع والمياه لا تعرف شواطىء، ولا دراية لها بيابسة.. وأمواج المحيط أعاصير.. غريب عنفها عن بحرنا.. بلا رحمة تلاطم المركب وتتقاذفه.. ولا غصن زيتون في درابيل [26] البحارة، مياه ثائرة ولا نهاية.. وأجسادنا هدّها الدوار والخوف وطول السفر.. والصراخ رعب وصلاة.. والسماء أثقلها سواد غيوم أسقطت حملها في سخط، برقا ورعدا ومطرا لا يتوقف.. انتقى القبطان عشرين من بيننا شداد الأجسام، ووزّعنا على قاربـي نجاة. قال: جميعنا نراهن على الحظ.. يصل القاربان بكم إلى الأمان، وتنجو السفينة من الغرق بتخفيف الحمولة.. وفي الرهان القاسي على الحياة لم يعترض أحد.. وبين نجاة وغرق، وأَمل ويأس، وأيام بطول الزمان، تاه القاربان فوق اضطراب الموج وصخب المحيط.

كم طال احتضان الرمل والشاطىء لأجسادنا الغائبة؟! لا يذكر أحد.. عطشى وجياعا سرنا نحو مزارع تحرس الشواطىء وتجاور البحر، فتلقفنا عمالها.. كأنما اعتادوا وصول أمثالنا عاملونا برفق.. وعرفنا أنها كوبا.. وفي نهاية مزرعة القصب مصنع للسكر، عماله هنود ومهاجرون بلا أوراق مثلنا.. عملنا معهم.

أما ما وصل البلاد يومذاك من أخبار الفتى سالم، أن صاحب مصنع كوبـــي قرّب ابن العائلة المهاجر، فتى لــمّاحا من البلاد المقدّسة يرطن لغات عدة، ويتقن عمله.

– التركية واليونانية والروسية تعلمتها في مدرسة الروم.. كل يوم مع طلوع الشمس، اقطع المسافة بين عين كارم والقدس على حمار.. حوالي سبعة كيلو مترات.. كنت ارتعد من العتمة، ويطاردني نباح كلاب البدو.. لم تأنس لي وأنا أمر بها صباحا ومساء.. أما الروسية فأتقنتها أكثر من عملي في السنتواري، والتعامل مع الحجاج المسكوب، بداية في محل أبــي حتى مرض، ثم أجيرا عند شخص آخر.. قال سالم لدهشة الكوبــي من اتقانه لغات عدة.

كثيرا سأله الكوبــي عن بلاده المقدسة، عن كنائس وآثار ومدن وردت في الإنجيل والتوراة.

وما حيّر الفتى سالم، امتزاج ذاك التديّن بقسوة القلب،

فالكوبـــي وهو لا يفوّت قدّاسا، وتسبق صلاة الشكر أي لقمة إلى فمه، يملك الأرض ومن عليها، ولا حقوق لعمّال يهدّهم طول العمل، أو رأفة بأجساد تنوء بقلة الأجور وسوء الإقامة، يسوطهم لأية هفوة بينما صليب الذهب يزيّن صدره، ويطوّق عنقه.

ورغم عطف الرجل على سالم لم تطل إقامته في كوبا.

في مركب صغير، مع خمسة عمال وصل التشيلي، رفاق زينوا النجاح في بلد لا يعرف عنه غير اسم عاصمته سانتياغو، وإليها حملته أحلامه.

ولم يكن رحيل سالم عن كوبا احتجاجا على عبودية البشر، فهو ليس مناهضا للإقطاع ولا اشتراكيا، وهو لم يسمع بكلمة اشتراكية، ولم يكن العالم قد عرف ثوراتها بعد.. ولم يقدّر أن ظلم الإقطاع في المزارع والمصانع بذور نبتت منها أفكارها، وفجرت ثورتها بعد عقود طويلة.. بل ولم يخطر بباله أبدا، وهو يغادر شواطئ كوبا، أن تغيير أوضاع العمّال فيها أمر ممكن.

– كرهت عبودية البشر، ومسوح التديّن على وجوه الملاّك وفي تصرفات الأغنياء.. خشية من الله لم تمنع إذلال خلقه.. كرهت فجور الثراء، ونظرات التعالي، والتمييز باللون والعرق، والتعصب، ربما لهذا لم أذكر

لصاحب المصنع حادثة محمد نسيبة الشهيرة في تاريخ القدس، وكانت سبب تركي للبلاد.. عملت في دكانه أجيرا بعد موت والدي رغم تعصبه، وحتى الحادثة، فألقيت المفاتيح في وجهه وتركت له البلاد ومن فيها.. لكن.. كلما سألني الكوبــي عن معاملة المسلمين لنا قلت: نحن والمسلمون ركبنا البحر هربا من ظلم تركي طالنا جميعا.

لماما تحدث سالم عن رحلته من كوبا إلى التشيلي، وصداقته مع صاحب مصنع للحديد.

– بلا سبب تتآلف النفوس.. يضع الحظ في طريقك من يرفعك، أو يخسف بك الأرض.. صاحب مصنع الحديد أحبني.. "لله في ل الله" أمريكي من أصل فرنسي.. قال عني "فلتة" أتعلم اللغات بسرعة، وعقلي أحسن من دفاتر المحاسبة.. أمسكت حسابات المصنع ثم مصروف داره.. وأحضر من علمني الإسبانية والفرنسية.. لكن حياتي انقلبت يوم اختارني لأمثله في مشروع سكة حديد بنما، مشرفا على استلام وتسليم القضبان.. والظاهر أن لقمة عيش كانت ما تزال مكتوبة لي في البلاد، فتوقف مشروع بنما.

وفي مرات قليلة، دون خوض في التفاصيل قال سالم: "اللي بيطلع من داره بينقل مقداره".

قدري البحر والهجرة.. ولا راد للمقدر والمكتوب!. قال سالم لزوجته وأولاده قبل هجرته الثالثة والأخيرة.

وسالم هاجر من البلاد ثلاث مرات ولم يكمل الأربعين بعد.. أما أقصر غياب له فهجرته الثانية إذ لم تتجاوز سنتها الرابعة، وكثيرا أسقطها من حساب غربته.

بفرمان سلطاني انطلق النفير العسكري: "يجنّد عموم الذكور الأبكار من تابعي الخلافة في جميع الأمصار، "للجهاد المقدس" دفاعا عن سيادة الخلافة. ولخوض الحرب إلى جانب حلفائنا دول المحور. ويجند كل مسلم بلغ الثامنة عشر، ويعفى أبكار البدو والرحل والأكراد ووحيد والديه.. ويمكن للذمّي أن يفتدي نفسه بالمال. ويعدم كل من يتخلف عن واجبه".

أطلق شباب البلاد نفير الهرب من تجنيد إجباري، ورحلة موت مجاني في حروب الأتراك.

ضيق ذات اليد وخسارة المرج، وفداحة فدية الذمّي، دفعا بسالم إلى البحر.

تشتهي الأوبئة أرواح البشر في مدن الفقر والجوع.. حصدت الملاريا أخاه الأصغر، ونفوسا كثيرة في أرجاء البلاد، وتركت أمه وحيدة ومريضة، وأجبرته على العودة.

باسم جوزيف هليلة من مواليد سانتياغو، وبجواز سفر تشيلي وصل سالم إلى عين كارم.. تغيير في هويته كلفه بعض المال، وجنّبه عقاب الفرار من التجنيد الإجباري، وعدم دفع الفدية.

في توسلات أمه المريضة، وإلحاح منها لم ينقطع، أن يفرّح قلبها قبل أن يأخذ الله وديعته، تزوج سالم قريبته مريم بنت خليل الضاوي، بعد رجوعه بقليل.

والضاوي فخذ من عائلة أبو نجمة.. ولا علم لأحد بمن أطلق اللقب، أمّا سببه فمعروف.. فالقندلفت خليل أبو نجمة، والد مريم، ظل لسنوات طويلة مسؤول الإضاءة في دير الروم.. يشعل ويطفىء قناديل الزيت في البطركية ودكاكينها والدروب إليها.. ولأن الرجل حاد الطبع.. متسرع ونافذ الصبر، كلما ناداه أحدهم لأمر، قاطعه محتدا دون أن يعرف ما يريد.. قلنا ضاوي.. يا عمي كله ضاوي، فلقّبوه بالضاوي.

ومريم الضاوي صبية لـمّاحة، علّمت نفسها القراءة والكتابة من كتب أخيها يوسف، ثم توقفت يوم ترك مدرسة الروم ولم يكمل صفوفها.. لهجت البلدة بجمال الصبية وطيب معشرها.. عرفوها متطوعة مع جمعية"حاملات الطيب" الخيرية.. أحبوا تفانيها وهي تعود مرضاهم، وتعين

المحتاج، وتجمع التبرعات، وترتب الجنازات رئيسة لفرقة كشافة البنات.

- في القدس ما يشبه مدن الغربة، اما عين كارم فصغيرة... قال سالم لمريم بينما يستعدان للزواج.

استبدلت مريم الضاوي ثوبها الفلاحي المطرز بفساتين وقبعات "مثل نسوان أمريكا".. كشفت شعرها وعقصته.. ورحلت مع سالم إلى الحوش، وفيه أنجبت أولاده الثلاثة، إبراهيم وحبيب وميلادة.

وعلى وعد اللحاق به حالما يدبر أموره وسفرهم، هاجر سالم للمرة الثالثة وتركها مع أطفاله.

سالم وصف هجرته الأخيرة بأنها: لا على البال ولا الخاطر، وإن جاءت في وقتها.

رسالة وصلت القدس فجأة، فقلبت حياة سالم واسرته، وسحبته إلى المراكب والاغتراب من جديد.. كان ذلك بعد هبة العشرين بوقت قصير.

كتب له صديقه التشيلي: "أقلقني كثيرا ما تنشره صحفنا عن أوضاع البلاد المقدسة، والمتغيرات بعد الحرب العالمية، والمشاكل المتوقعة بين العرب واليهود.. وإكراما للصداقة أؤكد أن مصنعي وبيتي مفتوحان لك، هذا إن

رغبت في العودة للعمل، أو حتى الاستقرار الدائم مع عائلتك".

ليلة الرحيل، أمسك سالم يد مريم.. مسح دمعها.. قبّل رأسها وأوصاها بالأولاد، واقسم أن يعمل ليلا نهارا ليلحقوا به على سفينة كبيرة، وفي الدرجة الأولى، ويرتب استئجار أوتوموبيل جديد وقوي يحتمل وعورة الطريق، وحراس يحمونهم من خطورة الطريق إلى التشيلي، فلولا أن صديقه في موطن الحديد والبيارات، لما فكر بالعودة إليها.. وسيعوضهم عن الانتظار فيلف بهم بلاد برّة، وتسعد بحياة لا تشبه ما تعرف.

والضياء يغمر القدس الجديدة، ملأ سالم عينيه ببهاء مدينة قرر الرحيل عنها، ومن نافذة القطار لوّح لعائلته مودعا.

والقطار يطوي الجبال غربا غصّ بأساه، وكأب حنون تمنى لو يعود. فيعانق ولديه ويحتضن صغيرته، يهدهد روعها ويمحو الجزع غير المصدّق في عينيها.. وفوق احتماله نظرات الرجاء والعتاب والخوف إذ يتركها ويمضي.. صراخها لا يبارح الخاطر وشقيقها ينتزعها منه، تتشبث به أكثر، ترفس صدره وتتعفر فيه.

سنوات انتظار مريم وأولادها للوعد طرزتها الرسائل،

زينتها الوعود، وألهبت أشواقها صور متبادلة، وأغرقتها دموع الحنين.

وما ظل يطمئن قلق مريم نسخ عن كوشان الأرض في سانتياغو، وعقود بناء البيت، وطلبات لم الشمل، و"الغائب حجته معه".

ولا يدري المهاجر بجروح الأسئلة إذ تحمل أكثر من رغبة الاطمئنان، ولا بالحرج من اختلاق الأعذار لسفر تأخر سنوات، أو طعن الكلمات تغمز من زوج استمرأ وحدته وراقت له العزوبية!.. كثيرا تمنت لو أن سالم قدّم السفر على شراء الأرض، واكتفى بدار صغيرة.

سنوات ثم وصل القدس تلغراف يحمل البشرى: ستصلكم المعاملات وتذاكر الباخرة في رسالة مسوجرة [27] ، رتبوا أموركم لتكونوا في يافا نهاية الشهر القادم، موعد إقلاع المركب، أنتظركم على أحر من الجمر.

توقف موظف البريد عن دق باب الحوش.. لأسبوعين بحث عمن يتسلم التلغراف في حوش مغلق دون جدوى، ثم نسي أمره.. أما الرسالة، فلم يرسلها سالم لا مسوجرة ولا عادية، حفظها في درج مكتبه حتى ليلة الفراق مع ولديه.. فلم تردهما عن تركه أو القطيعة معه.

رسالة من ابن عمه يوسف الضاوي أوقفت سالم عن

إرسالها.

– ويا ابن العم، تفاقّيد الله رحمة.. وليس لنا إلا الصبر والإيمان في الابتلاء.. هما الدواء والعزاء في المصائب العظيمة.. وليس في يدنا غير الصلاة وطلب الراحة والمغفرة للحبيبة مريم، فهي في الأمجاد السماوية وفي حضن العذراء البتول.. رحمة الله عليها، وصبّرنا على فراقها، وكان في عون أيتامها.. كانت الأب والأم لهم في غيابك. راحت بالهواء الأصفر [28] مثل المئات من أهل البلاد.. وأريدك أن تتأكد أننا لم نقصر معها، ولم نوفر في علاجها، لا أنا ولا أم عوض، فهي بمقام أختها.. لكنها إرادة الله وعمرها والمكتوب عليها.. عالجها أشهر دكتور في البلاد، توفيق كنعان البجالي، نطاسي بارع يسمّونه "العالِم" لشطارته.. متخصص في هذا المرض، لكن لم ينفع معهاَ لا دواء الكينا ولا الحجر الصحي، وعجز طبّه عن رد القضاء.. واسترد الرب وديعته.. وأقمنا لها جنازة ما شافت مثلها القدس كلها.. رفرفت فيها بيارق الجمعيات، وكشافة حاملات الطيب.. وصلى عليها البطرك، وألقى الخوري كلمة طويلة.. عن ورعها وتبرعاتها وشغلها للطائفة، وكلامه رفع رأسنا وخفف مصيبتنا.. ثم عملنا جناز الثالث والتاسع وفرقنا عن روحها، ونستعد لجناز الأربعين.. وأما عن الأولاد، فلا يكون لك فكر، عندي في

الحفظ والصون، وبداية المبتدأ نقلتهم من القدس والمدارس الغالية إلى داري في عين كارم، قلت نتقاسم الرغيف واللحاف، ويبقون مع ابني عوض حتى تنتهي إجراءات السفر.. ولا داعي أن أذكرك بأن الخال والد. وكان الله في العون.

نوبات البكاء مزقت أعماق سالم حتى أنكر نفسه.. والنحيب تواصل وهزم تجلده.. واحتار.. هل أحب مريم إلى حد العويل مثل ثكلى؟ أم هو عذاب الضمير للتلكؤ في لـمّ الشمل؟ فماتت وهي تحلم بالسفر، وببلاد غريبة تمنت العيش فيها.. وكماليات تعلل بها حتى ضيع حلمها، وحرمها تجربة حياة تمنت لو تعرفها. ماتت تنتظر.. والإثم يفتت احتماله.. والذنب صخرة تدحرجت على روحه.

حبر رسائلها ساح بدموعه.. والأسى تعاظم بما أكدته دائما: العيش معك على حصيرة ليوم واحد يعادل الحياة بطولها، وغرفة مثل خم الدجاج أحسن من قصور العالم لو كنت معي فيها.

كابوس ذنبه تعاظم بمفاجأة موت مريم، رحيلها قلب علاقته بنادلة الحانة إثما وتأنيب ضمير، وكانت في حياة مريم متعة مسروقة، ومغامرة مثيرة.. جرفه عشق محرّم وشهوة لا تنطفىء، يغرفها قبل وصول عائلته، فشاغله

الهوى، وإغواء صبية مجبولة بالرغبة، أغدق عليها كثيرا مما ادخر، بينما الراحلة تتقلّب على جمر الانتظار ووحدتها.

تفرغ العيون شحنة حزنها في فجيعة مفاجئة. تسحّ ينابيع دمعها أياما أو ساعات.. تجف، وتتوقف.

عشيقة لياليه كفكفت دمع سالم.. منعت موت زوجته أن يسرق متعة الحب ويحولها إثما وذنبا.. بصبر وحنكة لـمّ حضنها حزنه.. أصغت لحكايات عن زوجة بعيدة ماتت تنتظر، تفهمت خوفه على أيتام صغار في البلاد وحدهم، وبدهاء اقتلعت جذور الذنب وزرعتها على صفحة المقدر والمكتوب.. وصوّرت التلكؤ في إحضار عائلته حكمة إلهية تستحق الشكر، جنبته وعائلته كثيرا من الشقاء والتعاسة.

وسالم أراد أن يصدق.. "مريم كانت ستموت في موعدها وعلى أي أرض، في القدس أو سانتياغو.. بالكوليرا أو غيرها.. ومن يرد ساعته؟! وكانت ستترك صغاره أيتاما، ولو كانوا معه لتضاعفت همومه، وتعطّلت اعماله، وأشقى صغارا لا يعرفون البلاد أو لغتها ولن تقبلهم مدارسها.. على الأقل هم مع خالهم وفي بلادهم.. وقادر المال أن يمسح الجراح ويعوض الغياب، ويضمن

تعليما وحياة كريمة، ويكافىء الخال عن رعايتهم".

تحتمي قلوب الحزن بمن يزيح اثقالها، يمسح إحساسها بالإثم، ويرفع كأس ذنوبها... ترتاح النفوس المعذبة بإثم ارتكبته عمدا أو دون قصد، إن حمّلت وزره للقدر.

وقادر البعد أن يخمد لهيب الأحزان.

والعاشقة تفانت ليسلو.

الآباء يأكلون الحصرم

في بيت خالها يوسف الضاوي كتبت السطور الأولى في حكاية العمّة ميلادة.

رسائل سالم أبو نجمة إلى الخال وصلت بعد انتظار.. حملت النقود، وعجّت بالعواطف والشوق، وزخرت بأعذار تعطّل سفر أولاده، وشتائم لغربة لا تقدّر لهفة الاباء، وإجراءات هجرة معقدة ليس في حسابها الخوف على فلذات الأكباد.. فقط، ما يطمئنه ويصبّره أنهم في دار خالهم وتحت جناحه.

– من أية طينة جبل ابن عمك؟ رمى خلفته على الناس ودار على حل شعره.. هذه السنة الثانية من غضب الله على البلاد والعباد.. جفاف وقحط.. حتى الزناجيل [29] وكبار المزارعين وتجار الغلال عرفوا الحاجة، فكيف بمرابع صغير مثلك؟ وما يرسله لا يكفي حتى أكلهم؟! أمهم ماتت صحيح، لكن الأب حي وأولى بهم! وفي أية شريعة بدل أن أخدم ابني الوحيد، صرت خدّامة لثلاثة معه يقاسمونه لقمته؟

يفتر الأسى في ضيق الحال، وتخبو فورة العواطف مع الوقت.

تغلبت المصلحة في إلحاح زوجته.

وجوه صغيرة حائرة بلغز حياتها، تائهة في ساحة مدرسة شنللر المختلطة للأيتام.. ينابيع أسئلة تحجّرت في عيون الحزن ولا أجوبة.. لماذا قضى الآباء في حروب بعيدة؟ ولأي سبب ركبوا السفن وتركوهم فابتلعتهم طرق الاغتراب؟ سحبتهم بحور لا يعرفون شكلا لها أو مدى؟ وكيف اختارهم الوباء دون غيرهم من خلق الله؟

التف الصغار في فضول حول يوسف الضاوي وايتام أخته، ورافقوهم حتى باب مكتب المدير.

– وقّع على التعهد بصفتك كفيلا لهم.. أن يتعمّدوا على مذهب البروتوستانت. وألا يرتدوا إلى طائفتكم.. وستتكفل كنيستنا بتعليمهم، ونرسلهم للخارج إن تفوقوا، أو ندربهم على مهنة إن لم يفلحوا.. ولو عادوا يوما إلى طائفتكم فستدفع لنا، بصفتك كفيلهم، جميع ما ننفقه عليهم.. المأكل والملبس والتعليم والرعاية... قال المدير الألماني للخال.

وبحسبة بسيطة لن تكفي قطعة الأرض مع داره لسداد نفقة واحد من الأيتام الثلاثة لو عاد يوما إلى طائفته.

– أنا خال ووالدهم حي.. لكن ظروفه في المهجر صعبة وبالكاد يدبر رأسه، الغربة بهدلت الرجل لأنه بدون عمل ثابت.. ولم يتمكن من العودة لأخذهم بعد موت أمهم أو تأمين سفرهم، لكني طلبت منه تعهدا موقعا بختم رسمي من حكومة التشيللي، يتحمل فيه كافة مسؤولياتهم، في الكفالة وغيرها، وأن يرسل موافقة خطية على تحوّلهم.. التعهد سيعفيني من المسؤولية لو قلّ أحدهم عقله ورجع إلى الطائفة في المستقبل، وإلا انخرب بيتي.. وأنا خال.. والعين بصيرة واليد أقصر من قصيرة، وأنتم أدرى بحال الناس، وأقسم أن اباهم لن يعارض تحولهم، فأنا أعلم الناس بابن عمي وزوج أختي، ومن الأصل لا فرق عنده بين طائفة وأخرى. المشكلة في بعد التشيللي وتأخر المكاتيب، وأحلف لك أنني عاجز عن إطعامهم إلى أن تصل الأوراق.. وحرام أن يموتوا جوعا.

على مضض، وإشفاقا على عتاب ممتد في عيون الأطفال الثلاثة إلى لا أحد، وفي توسلات الخال قبل المدير انتظار التعهد.

– أختك ماتت وهي تستنى، وسالم يتصرمح مع فالتات التشيللي، ونسي من وراءه، يمكن مفكّر حضرته أننا خلفنا أولاده ونسيناهم؟.

– كل يوم لا يطلبني فيه المدير مكسب من الألمان، لنا ولهم.

كثيرا تذلل الضاوي.. بكى وتوسل فيتراجع المدير عن طردهم.. تحاشى الاقتراب من المدرسة، وأنكر وجوده لمراسيله.

وبين دهشة وفرح، وعلى غير توقع، توقف الألماني عن ملاحقة الضاوي.. فخشي السؤال رغم فرحه، موقف لا تفسير له، لكنه أراحه من عبء الأيتام وكفاه هم الأولاد ثلاث سنوات، استولى فيها على ما أرسله الأب لنفقات عيشهم وتعليمهم.

ورسائل سالم لا تذكر سفر أولاده، والخال يطمئنه بأنهم في الحفظ والصون.

وما فعله المدير الألماني لأولاد سالم سابقة في تاريخ مدرسة شنللر للأيتام.. فلا ذكر لأي منهم في سجلاتها.. واختفى ملف خاص قيّد فيه أسماءهم.. ولم يكن تصرف المدير تسامحا مع ذكاء نادر في أي منهم، أو إعجابا بموهبة ميّزت أحدهم، بل لأن ميلادة صارت تعويذة جنبتهم الطرد، مع إصرار زوجته على الاحتفاظ بالصغيرة لتعينها، ميل فطري في الصغيرة إلى الترتيب والنظافة لفت نظر زوجة المدير، ومهارة في مسك الإبرة مع ذوق في اختيار

الألوان دفعها للتمسك بها.. فيها نباهة لا تخفى، لماحة سريعة التعلم، خفيفة الظل رغم بؤسها.

– وقّع الكفالة أو خذ الأولاد الآن... قال الألماني ليوسف الضاوي.

وهو يخرج بالأيتام من الملجأ حمد الله أن جميعهم بخير! هرول مذعورا من مكروه أصاب أحدهم ومراسيل المدير تنبش البلدة بحثا عنه.. ومصيبة أهون من مصيبة.. فاي حادث لأحدهم سيفضح أمره أمام سالم. وطردهم من المدرسة أخف بلاء من رد كل ما أرسله من مال.

– هل الناصرة في التشيلي؟! سألت ميلادة.

ضحك في ورطته، واحتارت الصغيرة.

– عائلة المدير ستهاجر إلى الناصرة ولن يرجعوا أبدا.. مثل أبـــي.

– الناصرة في بلادنا.. قريبة.. لا مراكب ولا بحر.. والتشيلي دنيا ثانية.

– لا أحب الهجرة، لا القريبة ولا البعيدة.

وايتام سالم في رعاية خالهم تقبلوا أيامهم في عجزهم عن تغييرها.. تحمّلوا شتائم امرأة الخال وتبرمها، وكفاف

العيش، والتعليم الهزيل في مدارس الروم، وثيابا لا تتغير، وحتى يوم لم يحتمل المزيد، سطّر فصلا جديدا في حياتهم جميعا.

صراخ زوجة الخال تجاوز الجدران والأبواب، والخال في عجزه عن إقناعها يطالبها بمزيد من الصبر، وسيجد "تصريفة" تريحها منهم، وفي تعنتها صاح: أعرف لن تستريحي حتى أرميهم لضباع الوادي!

رسالة من سطرين كتبها إبراهيم لأبيه غيرت أحوالهم: "وإن لم تسحبنا خلال شهر، فأقسم بروح أمي أن نمشى أنا وحبيب إلى يافا، ثم نقطع البحر سباحة.. فإما أن نموت أو نصل إليك.. أما لو عشنا فسنسحب أختنا ميلادة".

في رسالة سالم تذكرتا سفر بالباخرة للولدين:

"ويا ابن العم خلفة البنات همّ للممات.. ويعلم الله أن قلبـــي يتقطع لترك ميلادة وحيدة رغم عطفك عليها، لكن البنت ليست حمل غربة ولا بهدلة هجرة.. ورجائي بعد الله في أختي أم عوض أن تكون أمها التي حرمت منها، وأن تدخلها أحسن مدرسة لتصير معلمة، فتعاملها الدنيا باحترام، وتضمن مستقبلها، وستصل مصاريف حياتها وتعليمها حتى أعلى درجة، لأعوضها عن غربتنا، وجازاكم الله وأختي أم عوض كل خير.

- سيغتني ابنك من خير سالم وأخويها لو تم المراد، واقرب الغني بتغنى. وليس بعيدا أن يسحبونا إلى التشيلي.

في مرات نادرة من عمرها الطويل، ألمحت ميلادة أبو نجمة إلى أنها تعلمت الطهي والكعك والتطريز في بيت مدير مدرسة شنللر الألماني بينما تخدم عائلته.

سانتياغو

بلهفة سأل سالم عن ميلادة، وعانق ولديه في غبار السفر.

– تلطمكم الدنيا معي وقدّامي أحسن ألف مرة.. وبكى.

وما أضاع فورة العواطف، واسكت عتاب الغياب، ومنع قبول الأعذار، مشهد لم يحتمل تأويلا.. ثلج أطفأ حرارة اللقاء، أخمد الشوق وزرع الغل.

من باب الدار خرجت.. حامل تبتسم مرحبة، جميلة فاتنة السمرة.. تجر صغيرا يرفض الاقتراب.. انفلت إلى سالم باكيا "بابيتو.. بابيتو" ويحتمي به.

دوار الأسئلة أطاح بالشابين.. ألهذا تركهم يلاطمون الحياة؟! يعانون الجور والفاقة ليتنعم مع صبية في رغد عيش وبيت مثل قصر؟!.

وعاجزة الأعذار في سورة غضب مكبوت، وحقد لا يسمح بغفران، وعبث محاولات سالم لوصل خيط انبت في التو واللحظة.

وحدها ميلادة لم تعرف سر القطيعة مع أبيها حتى يوم وفاته.. موقف منهما أعجبها، وإن لم يغفر تخليهما عنها في محنتها.

– لم نكن قادرين على مساعدة أنفسنا!. لم نكن باشاوات.. لا تجارا ولا موظفين.. كنا نبيع الجرائد.. نرميها في فتحات الأبواب، أو صناديق البريد قبل أن تطلع الشمس، نتدارى عن سيارات الشرطة ونهرب فنتزحلق على الصقيع ونتكسر، نغوص في الثلوج، تطوّح بنا العواصف لدولارات لا تكفي عيشنا.. ولولا صلبان الصدف وخشب الزيتون التي حملنا من البلاد لمتنا جوعا، بعناها على أبواب الكنائس في أيام الآحاد والأعياد.. كتبنا على زجاجات زيت زيتون صغيرة "من القناديل حول قبر المسيح".. وماء الحنفيات صار من الشريعة والمغطس [30] .. وتراب أمريكا من الأرض المقدسة.. كل يوم أحد كنا نكذب على الله وعلى الناس. ثم خفنا أن يسخطنا الله أكثر، فتعلمنا صنع البسبوسة.. والمصلون يدفعون لليتيمين المهاجرين أضعاف ثمنها.. نراهم يرمونها في الزبالة لأنها ملبّطة ومثل الحجر.. وكثيرا جمعوا التبرعات لإعانتنا.. قبلت بنا مدرسة ليلية على مسؤولية الكاهن.. ولولا طمع أمريكا في كعكة من بلادنا مثل الانجليز والفرنساوية، فأرسلوا بارجة إلى المتوسط، لبقينا شحاذين على أبواب

الكنائس، نهرب كلما لمحنا شرطيا.. انفجر غضب حبيب في لحظة عتاب قاسية مع ميلادة.

حتى العصر مرّ النهار عاديا رتيبا في حياة ميلادة، إلى أن استهجنت دعوة غريبة من أخيها إبراهيم لشرب الشاي، فتلاحق ما هو غير عادي.

والوجوم في انتظارها حارت بما يجمع أخويها وعائلتيهما.

– وصل مكتوب من زوجة أبــي...

– أبو من؟ وزوجة من؟

لم يجب أحد.

– تقول إن الله أخذ وديعته.. مات فجأة فدفنته في مقابر عائلتها.. أطلبــي له الرحمة يا ميلادة وسامحيه.. كان يعرف أنه قصّر في حقك ويتعذب... أكمل إبراهيم.

– فيك وفيه الخير والله.. وأين أصرف عذابه؟ وماذا عن تعاستي وبهدلتي يوم رماني للحياة تلطش بــي كأني مقطوعة من شجرة؟!

في تبرمها وسخطها قرأ الرسالة.. سكتت:

"وأما البيت والمزرعة فقد سجلهما سالم قبل وفاته

لولدينا، بيعا وشراء، وأرى بالمقابل أنه من العدل أن يكون الحوش وبيت عين كارم لكم، ولن نطالب بحقنا فيهما.. وآمل أن نبقى على تواصل، فلا ذنب للولدين ليكونا بلا أهل أو عائلة.. وسالم حدثهما عنكم كثيرا.. وربما نعود إلى القدس لتقيم جنازا عن روح رجل عظيم مثل سالم، ونتعرف على عائلة رجل أحبني كثيرا.

- أصيلة وبنت جود.. أخذت الجمل بما حمل، وتريد أن تلاحقنا على بيت وقف، ودار صغيرة.. تشيلية ساقطة.. سأقطع رجلها لو فكرت تحطها في البلاد.. واسمعوا.. اكفوا على فضائح أبيكم ماجور.. مات ومات سره معه.. وبالناقص بهدلة.. لا امرأة ولا أولاد... صاحت قبل أن تصفق باب الصالون على من فيه.

- ابن أمك وابوك يا اللا ينفعك مش أولاد الزنى.

فتحوا حوش أبو نجمة سرادق عزاء أياما ثلاثة.. وأقاموا جناز الثالث والتاسع والأربعين عن روح فقيد مات وحيدا في غربته.

- الغريبات عرفن بزواج أبـــي وخلفته قبل بنت الأم والأب.. طيب، أنتما من صلبه؟ وأنا بنت الجارية؟ لكن أرجع وأقول، من خلّفكم رمى دمه لحمه ولم يسأل، وأنتما مش أحسن؟! ماتت أمي بقهرها وهو يجمع ثروة ليصرفها

على هاملة كتب لها رزقه.. واستخسر حتى تعليمي.. رماني لجور الخال والغولة حماتي.. الله يسامحك يا أبـــي.. ولا تجوز عليك غير الرحمة.

أن كراهية أولاد سالم لأبيهم زرعها الخال، فأمر لا يحتاج الدليل في روايات العارفين.. لكنهم تمادوا إلى الحديث عن المال الحرام الذي لا يدوم، فمال الحلال" يا دوب أربعين عاما" فكيف بمال أيتام؟. و"الاباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون" وراح فيها ابنه المسكين عوض، الذي لا يهش ولا ينش.

قالوا، والله أعلم.. إن سالم ابو نجمة، في لحظة اندفاع عاطفي، وتكفيرا عن إحساسه بالذنب والتقصير نحو طفلة تعلقت برقبته يوم رحيله، ورافقه صراخها إلى المهجر، كبرت وصارت عروسا في غفلة منه، كتب رسالة مؤثرة، تكون اعتذارا علنيا لابنة وحيدة يغيب عن عرسها، وأرفق معها مبلغا كبيرا هدية زواجها.

"وأرجو يا ابن العم العزيز أن تقرأ مكتوبنا هذا لقرة عينينا الغالية ميلادة، ثم تعلم بمحتواه جميع الأقارب، لتعرف البنت أنني أتمزق حزنا لغيابـــي عن فرحتها، وأستحلفك بالله أن ترفع رأسها بجهاز لم تحلم به صبية في عين كارم، وتقيم لها عرسا تحكي وتتحاكى عنه

البلدة.. ولا تقصّر في شيء، ليعوضها الفرح عن غيابنا.. ويشهد الله أنه للشديد القوي، فالأعمال واقفة.. وفكرت بأن الصبـي والبنت أحق بمصاريف المجيء للبلاد والعودة لي وأخويها.. مبلغ تبدأ به حياتها مع عوض.. وكلاهما ولدنا.. والبركة فيك وأختنا أم عوض.. فهي في مقام المرحومة مريم، وستعوض على البنت غياب أمها.. وأستحلفك أن لا ترد لها طلبا.. حتى لو صرفت المبلغ كله.. وهديتي لها غرفة نوم كبيرة من خشب الزان المحفور.. ورقبتي سدّادة لو نقص شيء، مع العلم أن المبلغ كاف وزيادة.

– وما فائدة عرس كبير؟ وإهدار المال على سهرات وإطعام الناس؟ وقماش وفساتين؟! الولد والبنت أحق به.. وبعدين؟ هل نسي سالم حقك في عباءة الخال؟ زوّج ميلادة لابنك أو لغريب!. هذه عاداتنا من زمن جدودنا، وأكل الحقوق فأل عاطل لا أرضاه لابني.. أم نسي أنك صرفت عليها دم قلبك وأضعاف المبلغ؟ وأنه بدّد حصتك في المرج، أنت وغيرك؟

من القدس عاد الخال يوسف الضاوي بصندوق خشب كبير. مزخرف بالمسامير والنحاس لا تعرفه عرائس المدن، ولا يقبل به القرويون القادرون، قال: ما أرسله سالم لم يكف لشراء خزانة مع السرير.

أشجار الصنوبر في أحراش دير الروم لملمت نحيب ميلادة.. ندبت أحلامها بعرس يليق بابنة عائلة رجالها الثلاثة مغتربون، وبفساتين جاهزة من يافا وتل أبيب.. والعمّة لم تغفر يوما لأبيها وأخويها أنهم "وطّوا رأسها بين الصبايا".

في عرس بسيط تزوجت ميلادة وعوض، وفي جهازها فساتين قليلة فصلتها خيّاطة في عين كارم.

الخال وقد وفر من مال سالم أكثر مما تخيل، رق قلبه وميلادة تتكفىء على حزنها وقهر عاجز، وفي لحظة ندم قاسية وهو يسمع بكاءها المكبوت، ودون علم زوجته، اشترى لابنه عوض خزانة بمرآتين ليفاجىء بها عروسه، واقام حفل غداء كبيرا لأقاربه جميعا.

سجل يوسف الضاوي في الطابو قطعة أرض واسعة اشتراها لنفسه، بعد زواج ابنه باسابيع.

وميلادة التي لم تفرح بهدية والدها، ولم تعرف قيمتها، لم تدر برسالته حتى ليلة العتاب الطويل مع أخويها.. ورغم معرفتها المتأخرة بأن ما أرسله والدها، كان يكفي لنفقات زفاف كبير.. إلا أن "قهري وكسرة خاطري بين البنات أكبر من غفران أو سماح... لا لخال طماع ولا لأب تركني أتبهدل".

نفر قليل من العائلة سمع الضاوي يوم وفاة ابنه عوض، يلطم خديه ويبكي وحيده، ثم يعاتب الله على معاقبة ولده بجريرته، ويطلب المغفرة.

خلقت اجيال عائلة أبو نجمة وصندوق عرس العمّة عند سريرها.

مكتبة الأسرار

موحشة دور رحل عنها أصحابها، وتركوا آثارهم في جنباتها.

والمساء يطبق كآبة على حوش ينعس في سكونه.

لمكتبة إبراهيم أبو نجمة هيبة أكبر إذ أضأت نورها.

أوراقه مرتّبة في ملفات، وموزعة على أدراج المكتب... لوّنت صفرة الزمن بعض أطراف منها.

هل نسيت العمّة إبعاد أسرار عائلتها عن فضولي؟

مسحت عنها غبار الأيام.

الملف الأول من الدرج العلوي: وثيقة زواج إبراهيم وردة 1933.. صك ملكية أرض القطمون مناصفة بينهما 19. رخصة بناء صادرة من بلدية القدس 1937.. شهادة ميلاد ابنه 1934

في الملف الثاني رزمة فواتير ضخمة لمواد البناء والتشطيب.. وصولات استلام وتسليم بتوقيعي المهندس

والمقاول.. تصاميم البيت الواسع، شبكتي التدفئة والمجاري، موافقة بلدية القدس على تركيب عدادين للماء والكهرباء.

تحت الملف سلسلة مفاتيح.

لم يفهم الفلسطينيون لعبة السياسة فتاهوا في دهاليزها.. سذّجا حملوا مفاتيح دور تآمر الجميع على سلبها.. ازددت اقتناعا برأيي.

في درج المكتب السفلي بعض مسودات لرسائل المندوب السامي بالإنجليزية مع ترجمة إلى العربية.. صادرة وواردة، ولسبب ما احتفظ بها إبراهيم دون غيرها.. ردود إلى زعماء عشائر ومخاتير قرى في أنحاء البلاد أو مخاطبتهم، وعرائض تظلّم ومطالبات من حكومة الانتداب مترجمة إلى الإنجليزية.

عريضة احتجاج طرزتها أختام وتواقيع رئيس البلدية، ومفتي الديار، وعلماء وشيوخ ورؤساء الطوائف، يستنكرون إزالة برج باب الخليل [31]. ويتساءلون عن مصيره مع توأمه الساعة الدقّاقة.

يسطع الإلهام من حادث عادي، وتشع الرؤيا من كلمة.

من رسالة في الملف الأول توالت الصور والأفكار..

جزء من الفيلم سيروي اعتداء البشر على التاريخ في مدينة السماء.

بتعال ردّ المندوب السامي: حكومة بريطانيا العظمى إنما أزالت تعدّيا تركيا على هيبة السور، ومسحت التزوير في شكله!. فالسلطان عبد الحميد الثاني تجرأ على التاريخ، ومنح لنفسه حق تغيير معالم الباب الأثري بإضافة البرج، دون مراعاة لأنماط المعمار في زمن بناء السور.. بل وغالط حقائق التاريخ بوضع ساعة دقّاقة، بينما كانت ساعات الرمل والمزاول مقياس الوقت الوحيد آنذاك.. وحكومتنا ازالت رقعة جديدة من ثوب التاريخ العتيق، فكل منهما يشوّه الآخر، ولا يحتمله.

وتجاهل المندوب البريطاني السؤال الثاني عن مصير البرج والساعة.. فلم يشر إلى أن البرج معروض في متحف لندن، وأن محرك الساعة ما زال يدق في ساعة بيج بن.

مزيد من أوراق إبراهيم ابو نجمة عزز ما تحويه فكرة انتهاك التاريخ.

مسوّدة رسالة من المندوب السامي إلى بطريرك طائفة الأرثوذكس، ترجمها إبراهيم إلى اليونانية، يستنكر سؤاله، باسم الطائفة، عن الثريا الضخمة، الفريدة في العالم،

وأجمل ما ابتكره صناع الثريات، وأنفس هدايا كنائس المسكوب إلى كنيسة القيامة، اختفت، مع عدد من ثريات اصغر لا تقل جمالا وقيمة، أنــزلها عسكر الانتداب من سقف القيامة يوم الزلزال الكبير، فككت إلى مئات من قطع الكريستال البوهيمي، والمورانو وقضبان النحاس والذهب الخالص.

بجفاء وتكبر كتب: "بل تُسْأل أنت ورهبانك والعاملون في مقرك.. فبعد أن أنــزلها عسكر حكومة بريطانيا خوفا من سقوطها، رتبت قطعها في صناديق وسلمت لمخازنكم، على أن تعاد إلى مكانها بعد الترميم.. ولا علم لإدارتنا بمصيرها.. وأما عن إعادتها "إن وجدت" فمرهون باتفاق الطوائف.. ولأننا انتداب مؤقت، نجد لزاما علينا، تطبيق قانون الستاتيكو العثماني، فيبقى الحال على ما هو عليه، وإلى أن تصلنا موافقة من جميع الطوائف على إعادتها، في حال وجودها! أو حتى إشعار آخر.

في رسالة أخرى طلب البطريرك الأرثوذكسي السماح له، بترميم واجهة كنيسة القيامة المتصدّعة، وعلى نفقته الخاصة، ودون أن يترتب من ذلك، أي تغيير في حصص الطوائف، أو أي التزام عليها، أو حق لطائفته، فهو تبرع خالص لإزالة دعامات حديد [32] وضعت، كإجراء مؤقت لتثبيت الواجهة بعد الزلزال الكبير. فالدعامات تشوه

المدخل.. وتقلل هيبة الكنيسة، وتظهر بيت الله متداعيا يحتاج من يسنده.. لذا.. يلتمس منه ممثلا لدولة بريطانيا العظمى، السماح بإزالة الدعائم، وإعادة بناء الواجهة وأعمدة الرخام البيزنطية.

شرْح مختصر بخط اليد، ترجمه إبراهيم إلى اليونانية على حاشية الرسالة: "لعدم توافق الطوائف على المحاصصة، وللخلاف الدائم عليها، يستمر تطبيق قانون الستاتيكو".

كان خط إبراهيم ابو نجمة جميلا وهو يكتب باللغات جميعها.

في ملف ثالث رسائل مناسبات كثيرة.

شكر على تهان من البطريرك اليوناني بأعياد بريطانيا.. ثمّن المندوب السامي في رده على بعضها تعاونه وحكمته في دحض دعوات عنصرية من شباب طائفته، فالمناداة بالقومية العربية تثير الفتن بين السكان.. ويشكره، باسم حكومته، على إقصاء أصحابها المضلّلين عن إدارة النادي العربـــي الأرثوذكسي.

وصادم ختم أحمر "سري وعاجل" على إحدى الورقتين الأخيرتين في الملف.

تقرير بخط اليد من شخصية عربية تبدو نافذة، شطبوا اسمه بالحبر.

"ونؤكد لكم أن قادة جيش الإنقاذ العربـــي ودوله غير راغبين في مواجهة مسلحة مع اليهود، فهم يدركون أنها معارك غير متكافئة، لكنهم يخفون هذا عن الجنود والشعوب لئلا يتهموا بالخيانة.

وجيش الإنقاذ لن يبدأ أية معركة مع اليهود أو يخوضها إلا في حال تعرضت قواته لهجوم.. والقيادة العربية تتوقع عصيان بعض الضباط والجنود، ممن يؤمنون بالشهادة من أجل الأقصى، وربما رفض هؤلاء أوامر الانسحاب، خاصة بعد انتصار الجيش العربـــي في معركة اللطرون، واستعادته للقدس الغربية في معركة باب الواد.

ونؤكد أن هزيمة عبد القادر الحسيني وثواره ستكون سريعة وقاضية، في أي هجوم مباغت، فهو يعاني اكتئابا شديدا منذ عاد بالأمس من دمشق، ورجاله محبطون.. وعلمنا من مصادر الاجتماع، أن القيادة العربية رفضت مدّه بالسلاح، وطالبته بالانضواء مع رجاله تحت لواء جيش الإنقاذ، فالدفاع عن فلسطين شأن عربـــي، ويحتاج جيوشا مدربة، وأسلحة ثقيلة ومتطورة، لا مناوشات بلا

خبرة قتالية أوعتاد عسكري، وما يقوم به ورجاله لن يقضي على اليهود، بل يربك خطط جيش الإنقاذ ويعيق دفاعهم.

وختم تقريره بالتأكيد على "ما تعرفه حكومتكم السامية عن الانقسام والصراع بين الحاج أمين الحسيني وراغب النشاشيبـــي، والاتهام المتبادل بين العائلتين بالعمالة، وانقسام الحسينية، وتفكك اللجنة العربية العليا بعد استقالة راغب النشاشيبـــي وألفرد روك، مما يمنع توحيد اللجان الشعبية وتدريبها، وتشكيل قوة دفاع حقيقية في القدس".

وذيّل تقريره "بنصيحة واجبة": الا يتورط اليهود في قتال داخل البلدة القديمة، والحذر من جرّهم إليه، فأية معركة داخل السور ستتحول إلى حرب عصابات، الغلبة فيها لمن يعرف خبايا المدينة ودروبها".

أما الورقة الأخيرة في الملف فصادمة ومحيرة، ومعها صفحة كتبها إبراهيم بخط يده وثبّتها بدبوس:

"وقعت هذه الوثيقة في يدي صدفة، بإهمال من أحد الموظفين الإنجليز، أيام انتدبت إلى أرشيف ديوان المندوب السامي، لتصنيف وثائق الدائرة، وترتيبها وترقيمها، لنقلها إلى الأرشيف البريطاني في لندن قبل إنهاء الانتداب.. وثائق كثيرة لم أصدق ما فيها.. لكن هذه بالذات أدارت

رأسي؟! فأعدت قراءتها مرات.. فيها كشف ببيع وشراء الأراضي بين عائلات عربية والقيرن قييمت [33]، ومع سماسرة ووسطاء، واعتمد الكشف على سجلات الطابو في أنحاء البلاد، من بداية القرن العشرين وحتى نهاية العام سبعة وأربعين. مع أرقام العقود المسجلة.. وما أطار ضبان عقلي، أسماء عائلات قادت نضال البلاد، وعائلات لبنانية وسورية ثرية، منحها الأتراك حق الانتفاع بعشرات آلاف الدونمات.. مرج ابن عامر والحولة وطبريا والقرى ومن فيها، حق انتفاع يورث لأبنائهم، لا ملكية رقبة تجيز بيعها.. أردت أن أخرج إلى الشوارع.. أن أوقف المارة وأطلع الناس على الكشف.. لكن من سيصدق؟ قلت سيتهمونني بالجنون أو يقتلونني.. واين أنا من الأسماء فيها؟ لكن.. يوم أخذ اليهود البلاد قلت أنا لم أبع داري لليهود، ورغم ذلك أخذوها، وأكيد الناس كلهم مثلي.. ومن باع؟! عشرون، ثلاثون!. لكنهم أخذوا أملاك شعب بأكمله.. وما باعه الفلسطينيون والعرب لا يذكر مقابل ما اغتصبوه بالقتل والتهجير والحيلة".

لمن كتب إبراهيم ملاحظته؟! للتاريخ؟! للحقيقة.. أم مجرد صرخة في البرية؟

هي الوثيقة إذنّ؟! كثيرا تهامست العائلة عن ورقة خطيرة حول ضياع البلاد يحتفظ بها إبراهيم.

وفي كادر الصورة ناطحات القدس الجديدة، تطاولت بين فيلل عربية واسعة سكنها أصحابها ردحا من الزمن قصيرا، قال المؤرخ:

– بدهاء، ولما يعتوره من ثغرات، طبّق الانتداب البريطاني قانون الطابو العثماني. "يجوز لمن يستثمر أرضا زراعية من عشرة إلى خمسة عشر عاما متواصلة، أن يتقدم بتسجيلها ملكية رقبة، إن لم يعترض على ذلك أحد". فانتقلت آلاف الدونمات سرا من بدو وقرويين غافلين، إلى مرابعة وسماسرة ومستثمرين، وانتهت إلى الوكالة اليهودية بيعا مباشرا، أو عبر وسطاء.

مدينة القسوة

طفلة استهوتها لعبة لا تشبه ما عرفت، ملك تصوير الفيلم عقل العمّة، توهجت ذاكرتها.. تفرح إذ ننتهي دون اعتراض السلطات، صادقت فريق العمل، واحتفت بضيوفنا.

- سبقنا الفريق إلى الأقصى لتصوير صلاة الجمعة، وإغلاق الجنود للبوابات، وتدقيق أوراق المصلين ومنع الشباب. والأفضل أن يكونوا وحدهم فالتصاريح باسمائهم.. وجودنا قد يلفت النظر.

هدأ إلحاحها على اللحاق بهم.

وهي تلتقط حبات ليمون من شجرة الحوش سألتها:

- لماذا لا يكون الفيلم عن صديقتين؟

- من حارة النصارى؟

- لا.. مسيحية ومسلمة، نسمي المسلمة زهرة.. والمسيحية

- بدون اسم.. قاطعت.

- ميلادة؟.

- لا أنت ولا عشرة مثلك بيضحكوا عليّ.. ودخلت دارها.

ظلال المساء فردت وحشة وعتمة.. وعند بابها ترددت طويلا.. ناديتها.. رائحة البخور تناغمت مع جسد نحيل تمدد على الأريكة، ومسلسل تاريخي في التلفزيون شارف على الانتهاء.. أمسكْت يدها فلم تعترض.

- سيحكي الفيلم عن صداقات النساء لأنها تعمّر أكثر.

وفي سخرية ابتسمت.

- صداقات النساء تلهيها المشاغل الصغيرة فتنقطع.. تتزوج البنت وتنجب فيصير همها البيت ومن فيه، ويتزوج الرجل فيظل همه خارج داره.. وهكذا انقسم اهتمام النساء والرجال من زمان بعيد، يشتغل هو بالقضايا الكبيرة، وتقبل هي بالصغيرة.. أما إذا لم تنجب فتصير حياتها كلها أن تثبت بأنها لا تقل عن الأخريات.. تتعربش بالسموات والأنبياء، وتحتار بين الأطباء والدايات والسحرة.. صوري التقاء امرأتين وصداقة دامت سنوات حتى فرقها الأولاد والحياة.. الأولى زهرة، اما الثانية؟ اتركيها بلا اسم.. وتعيشان في القدس.

بضيق تبدأ العمّة في سحب ذكرياتها، ثم تنهمر شلالا.

– القدس مدينة قاسية.. صحيح فيها رب الملل الثلاث، ومساجد ومعابد وكنائس وأديرة وزوايا، وفيها كنيسة نصف الدنيا أقرب نقطة إلى السماء، لكنها قاسية.. حتى على أهلها وعائلاتها.. تعطي الغرباء مكانا فيها لكنها لا تحضنهم، صدرها لا يلم وحشة غريب، حضنها لا يعرف الدفء، دائما تضع مسافة بين أهلها والآخرين. الغريب في القدس مثل النبـي إيليا [34] في بطن الحوت، صحيح خرج منه سالما، لكنه لم يخرج مثلما كان.. غيّرته الظلمة والخوف وانتظار الرحمة في ثلاثة أيام.. الصداقة بين المرأتين تباركت لأنها بدأت في كنيسة قبر العذراء. وإلا شو جاب لجاب.. مستحيل أن تكون صداقة بينهما.. فرق من الأرض للسماء.. المسيحية بعد أن ترمّلت، تعلمت التطريز عند الراهبات، تبيعه للسنتوارية لتعيش.. مسك الإبرة فن، وذوق، ومزج القصب وخيطان الحرير مثل رسم الايقونات.. في الروسية عينا العذراء تتابعان من يقف أمامها اينما تحرك. لكن في ايقونة الأرمن عينا العذراء دائما ثابتتان.. وطرزت أثواب لعرائس القرى من الأغنياء.. ونافست التلحمية جميلة مهيوب اشهر خياطة في البلاد، وأي بنت اصل وناس من القرى كانت تتفاخر بأن في جهازها ثوب جميلة مهيوب.. وفي الانتداب أدخل

الإنجليز ماكينات سنجر، فعطّل تطريزها على جميلة وغيرها.. الإنجليز وسكة الحديد خرّبوا على الكل.. القطار لم يأخذ أبـــي وبس، أخذ رزق الناس.. القطارات بين يافا وحيفا والشام، حملت الحرير والخيطان والقصب فغمرت المحلات.. والإنجليز فتحوا الأسواق لبضائعهم بلا جمارك. والموضة في القدس قبل لندن.. صوري القطار وفيه نسوان غريبات، شقر وعيون ملونة ودلع لا تعرفه بنات بلادنا، ولو رجعت الواحدة في بطن أمها.. غنج لا على تركية ولا يونانية ولا يهودية.. شاميات حلوات وقع عليهن رجال لفتا مثل النحل على الدبق، قالوا المقادسة لا أحسن ولا أغنى، وصدقوا أن من بتزوج شامية يعيش عيشة هنية.. ولفتا فيها مصانع الشيد [35] والمطاحن والمعاصر، والشاميات لبسن كنادر مطرزة بالقصب وكسر الفضة، ضحك عليهم المقادسة وقالوا "رجال لفتا طرزوا الذهب على كنادر نسوانهم".. صديقتها المسلمة بنت عائلة لها "هزّة ورزّة".. لكن الخلافات بين عائلات القدس قسّمتهم.. أبوها مع الحسيني وزوجها مع النشاشيبـــي، وهي في الوسط.. دائما.. تدفع النساء ثمن خلافات الرجال ومشاكلهم.

- واين الرجال في هذه الصداقة؟

- لا علاقة للنساء بأمور الرجال، لا صداقاتهم ولا

صراعاتهم.. التقت الصديقتان مرات في الحفلات أو السينما.. يوم غنت أم كلثوم في سينما أوديون.. سلمت كل منهما على الأخرى كأنها لا نعرفها، وإذ بالرجلين يتعانقان ويتحدثان في السياسة، ومشاكل البلاد، حتى رفعوا الستارة.. كل من الرجلين وطني! أو كانت قلوب الناس على بعض أكثر من اليوم.

– وكانت الأفلام تعرض في القدس والقاهرة في وقت واحد.. وكبار النجوم العرب حضروا عروضها الأولى، والرجال والنساء في ملابس رسمية.. وغنى المطربون الكبار في حفلات عامة، أو لجمع التبرعات، وتنافس الوجهاء على الاحتفاء بهم.. محمد عبد الوهاب، وراقية إبراهيم وبديعة مصابني ونجيب الريحاني وليلى مراد ويوسف وهبـــي.

– لكان شو مفكّرة القدس؟! كانت جنّة حتى مع المشاكل بين العرب واليهود.. يا عيني على محمد عبد الوهابّ؟ النسوان والبنات ماتوا عليه.. واستقباله في القدس! لا عيد ولا موسم، الناس فوق بعض، وتصفير وتصفيق لما نـــزل من القطار تقولي ملك! وخلصت التذاكر قبل عرض الفيلم.. شاب حلو.. طويل ونحيف وصوته كأنه وشوشة حب.. طلع على المسرح وحيّا الناس فوقفوا كلهم.. صورة بديعة مصابني مع زوجها [36] علقها

أبو عرب في قهوته حتى ضاعت البلاد.. ويمكن تركها اليهود معلقة.. يهود بلادنا عشقوا الأفلام العربية، حفظوا الأغاني مثلنا، وعشنا مع بعض حتى بدأت المشاكل.. روحي صوري قهوة أبو عرب في عين كارم، فيها صور الفنانين كلهم.. وحضرنا حفلات ليلى مراد وأم كلثوم.. ولما غنت أسمهان في فندق الكولونيل [37]، وقفت القدس على رجل واحدة.. ولم تبق تذكرة لمخلوق.. المتصرف والأكابر ورجال الدين مع اللمم والحفتلية [38].. القدس لا تقول لأحد لا.. صغيرة.. لكن للغرباء مكان فيها، ولا تتدخل بهم.. أديرة وحارات، للأرمن، والحبش، والأقباط، والمسكوب، والمغاربة والخلايلة والنور والنصارى واليهود، وما حدا قصدها إلا قبلته.. أما التعارف وصحبة النساء فكانت تتم في الاستقبالات، تجمّعات دوّارة على مدار الأسبوع، كل يوم في دار واحدة من الشلّة، وقصص وأخبار وسفرة ما لذ وطاب، وضرب عود وأغاني، لكن القدس تغيرت.. القدس الجديدة مثل بلاد برّة كل واحد بحاله.. وفي حفلة أسمهان، التقينا مع زهرة والشيخ.. سلم الرجلان بحرارة وجلسنا في الصف الأول، وتكلما في السياسة وأحوال البلاد، وأنا وزهرة سلمنا ولم نسكت.

– زهرة الأنصاري؟!

توقفت عند سيرة تقود إلى أسئلة.

- لا أدري إن كانت ما زالت تسكن في الشيخ جراح.

قامت.

وقادرة العمة على التملص مما لا تود الخوض فيه... تغير الحديث أو تنسحب منه بصمتها، فظنوه الزهايمر.

حكّاءة ساحرة.. لا عجب أن خطفت قلب كاهن من عبادته.

قصة عادية

وهي تتكىء على ذراعي قطعنا سوق الصاغة.. قلت للعمّة: نبدأ الفيلم ببنت صغيرة تلوّح لأبيها المهاجر. هو في الباخرة وهي على شاطىء يافا.

– أو في الترين!. القطارات بعثرت الناس.. والمحطة في البقعة التحتا شهدت على دموع وحسرات ياما.. صوري البنت تتعلق بثياب أبيها ليبقى.. وهو ينسحب ويدخل غرفته.. ولما خرج ما كان أبوها.. صار خواجا، بدل الطربوش لبس برنيطة بنما.. من القش ومربوط عليها شريط مخمل أسود؟!.. صوري الأب وسيما، وهيبة كأنه ممثل أو باشا.. أو صوري البنت تلوّح للأب وتبكي، وهو من شباك القطار جاعص في بدلة يلوّح لهم. والبنت حزنت لأنها شافت في عينيه ضحكة فرح.. وبكت أكثر لأن وجه أمها غرق بدموعها.

– ما رأيك لو نحكي قصة سيدة تركها زوجها مع أولادها وغاب.. وعد أن يسحبها أو يرجع.. فكبر الأولاد والغائب لم يعد؟.

– وعمر الست راح وهو لا أخذها ولا رجع!.. كل يوم تطلع الشمس وتغيب وهي على سطح الدار تراقب الزقاق.. في الصبح والمساء.. ودموعها على خدها، لا النهار جاب الغائب ولا الليل رجّعه.. بتعرفي تصوري الانتظار؟! لـمّا العمر يروح وصاحبه يستنى؟! لا أنت ولا غيرك!. أو تصوري بنتا ضاع عمرها وهي تستَنى؟! استنّت الأب وما رجع؟ وطفلا يتحرك فيها ولم يحصل.. وحبيب جاءها في غير وقته.. وحب عاشته سرقة. حب خائف من الناس، وعيونهم عليه مثل الرصد.

– الأسهل أن نحكي عن أب مهاجر يعود ليلتقي مع ابنته.. تركها صغيرة تبكي عند المركب، ولما رجع كانت صبية.

– من يعتاد السفر لا يرجع!.. ومراكب البحر غرّبت بالناس إلى بلاد بعيدة وابتلعتهم.. ضاعوا فيها ونسوا من وراءهم... صوري البنت وهي تلطش بالدنيا بعد أن تركها ابوها.

– حلوة؟

– بتفك عن المشنقة!. لكن أي امرأة لن تعرف قيمة جمالها إن لم يحبها رجل!. وترى صورتها في عينيه.. حتى المرايا لا تظهر جمالها.. عينا الحبيب أصدق من أية

مرآة، وإلى أن يتغير هو أو هي.

- ولماذا تركها أبوها ولم يأخذها معه؟

- خاف عليها.. سفر زمان طويل وتعب، سفن وقطارات ودواب وقطاع طرق وبهدلة.. عذاب أنسى بعض الغائبين من وراءهم، وبدأوا حياة جديدة في الغربة، أسهل من المخاطرة بالرجوع.. أو.. صوري الأب في سفينة عند بحر يافا والبنت تلوح له.

- قصص عادية!

- شو يعني عادية؟! القصص العادية هي الدنيا، وهي الناس والحياة!.. فكرك، نلغي الناس لأن قصصهم عادية؟! ونترك أصحاب القصص غير العادية؟ ومن هم؟.. اسمعي.. ما في قصة عادية.. كل إنسان مختلف، وقصته مختلفة.

- أو نصور البنت في احتفالات القدس، للمسلمين والمسيحيين واليهود.. تراقب من مكان عال.. مثلا تطل على درب الآلام من شباك هيرودس البنطي؟ الشرفة التي غسل فيها الحاكم الروماني يديه وتبرأ من دم المسيح، حين لم يجد له تهمة.. واليهود يصرّون على صلبه صارخين دمه علينا وعلى أولادنا.. لكن.. المشكلة ان بابا الفاتيكان برأ اليهود من دمه!

– لا بابا ولا ماما.. البنت أرثوذكسية.. الإفرنج ومثلهم الأتراك فصّلوا الدين على مقاس مصلحتهم السياسية، هذا ما ظل يقوله.. السفاح التركي عند عشيقته اليهودية كل ليلة، وسهر ورقص وعربدة.. وكل البلد عارفة أنها تحكم وترسم، والأتراك مسلمون في النهار وفي الليل هز وفقش ومسخرة... وزعل الله على القدس.. رماها بغضب وراء غضب.. سبع ثلجات في سنة! وجراد وهزات وهواء أصفر وجوع ومحل وفقر وكمّلها بالحروب.

– ثم نصور البنت وهي تسمع خبر وفاة أبيها في غربته. فلا تبكي لغضبها منه.

– ليش البكاء دموع وبس؟ القلوب تبكي أكثر من العيون. والفاجرة تبكي أكثر من المستورة. وفي المثل "دموع العواهر نواهر"؟ الحزن مثل الفرح لا يشاور صاحبه بل يهجم عليه.. البنت حزنت لكن ما بيدها أن تبكي.. والنواح مثل الزغاريد نستأجر له جنكيات يزغردن أو يلطمن لمن يدفع.. انقهرت البنت وحزنت على أبيها لكن دموعها لم تطاوعها.. وفي العزاء سمعت وشوشة النساء عن قسوة قلبها. دخلت دارها وناحت في الليل، وقالت قصائد تفتت الصخر لكن لم يسمعها أحد.. والبنت لا تدري هل تنوح على حالها، أم على أب هاجر ونسيها؟

– لعل الأب معذور، ولسبب لا تعرفه أجبر على تركها؟

– الحرب هي السبب.

– أي حرب؟

– كلها.. الحروب على بلادنا لم تتوقف بحجة أنها مقدسة.. بين الأتراك والفرنج، والأتراك والعرب، والعرب واليهود، وقيس ويمن، وعائلات القدس ببعضها، وروم وأرمن، ومسلمين مع مسلمين، ونصارى مع نصارى، ومسلمين مع نصارى.. والصحيح، البيارق هي السبب.. فرّقت الناس، كل عائلة رافعة البيرق، وتقول يا أرض اشتدّي ما عليك قدّي، وخطب وصراخ.. ومثلها بيارق المسيحيين في عيد الكبير.. من القيامة لحارة النصارى للباب الجديد، وكل عائلة تقول أنا وبس.. حتى اليهود حملوا بيارق [39] وهجموا على القدس في الهبة الكبيرة.. والدنيا ولّعت بين العرب واليهود، لأنهم يضربون رؤوسهم بالحائط ويبكون.. قلت مغلبين الناس على حائط، أعطوهم خمسة بداله وفكّونا.

ضحكت معها:

– ومن يومها لم تهدأ القدس.. اليهود وصلوا في السفن من الدنيا كلها.. ومظاهرات العرب لا تخمد.. من هبة البراق للإضراب الكبير لضياع البلاد، وكل يوم

مناوشات ومشاكل.

– والبنت لاهية بهمّها، ومراجعة الأطباء.

– الحياة لا تتوقف لأي سبب.. الحروب تعطل حياة الناس وتضيق عليهم.. لكن الحياة أقوى من الحرب.. لا يهزم الحياة إلا الموت.. والناس ظلت مشغولة بحياتها لأننا لم نعرف أن البلاد ستضيع!. لم تكن التلفزيونات تحشو السياسة في رؤوسنا، ونعرف كل صغيرة وكبيرة مثل اليوم.. إذاعة القدس كام ساعة وتسكت.. لا.. في ناس عرفت عن مشاكل بين العرب واليهود! من خطباء المساجد ومن الشباب في النوادي، ومن الإضرابات والمظاهرات لكن.. من فكر أن البلاد ستضيع؟! حياتنا تأثرت كثيرا بالإضراب الكبير [40].. ستة شهور وبعده رجعت، أسواق وأعراس وحفلات وموت وطهور واستقبالات، وفجأة تهب القدس بين العرب والانجليز واليهود، مناوشات وقلاقل، ثم تخمد.

المقاهي احتلت يمين الطريق والساحة، أمام طاولتنا نافورة وماء سبيل، جلست والعمة بين أفواج سيّاح متعبين.

رشفت العمّة قليلا من عصير البرتقال، وانفجرت ضاحكة، استغرب النادل الشاب، وضع فنجان قهوتي

ومضى.

– يا ويلي على ما جرى في الهبة الثانية [41] قبل موت عوض بسنة أو أكثر، بداية الثلاثينات، امرأة خالي رأسها وألف سيف أن نتبضّع من القدس. كانت هذه القواهي نوفوتيهات ومحلات أقمشة وملابس جاهزة.. لا.. الكذب حرام.. جئنا لزيارة الشيخ المراكشي لعمل حجاب يفك نحس عدم الحمل قالت: ما دامت الداية اليهودية أكدت أن لا عيب فيك، يبقى حجاب يفك النحس أرخص من الدكاترة.. والمراكشي مصيِّت، أشهر مبصر وكاتب أحجبة في القدس كلها.. والمغاربة يتوارثون السحر أبا عن جد.. وفي داره أمم.. انتظرنا دورنا.. وأنا في يدها مثل الشخشيخة.. روحي.. وتعالي.. أصعب ما تمر به امرأة، لومها على أمر لا ذنب لها فيه.. وأصعب منه أن تفتح رجليها لفحص الدكاترة، وهي عمرها ما تكشّفت على أحد.. يعني لو كان بيدي لزرعت الولد في بطني وافتكّيت! ونحن عند الشيخ قامت القيامة.. مظاهرات في الشوارع، والمحلات سكّرت.. وعسكر الانجليز سدّوا أبواب السور.. وتكبير في الجوامع وسخط وغضب.. وأنا أبكي، وحماتي تلومني وتلعن الحبل وسنينه، كأنني قلت للعرب واليهود والانجليز هبّوا في بعض.. وامرأة خالي ركبتها حمّى، ترتجف وأسنانها تصطك.. الله يرحمها.. شاطرة تتمرجل

عليّ.. قلت نروح لعمي أبو محمد وهو يدبّرنا، عمي افتدى أهلي في هجمة الجراد ولن يرضى أن نتبهدل.. بيته في باب السلسلة.. بقينا معهم نهارا وليلة، ومع الفجر هرّبنا ابنه إلى عين كارم.. مشينا إلى سلوان، ثم على بغلين إلى عين كارم، ولا نسمع غير الواويات في الوديان والجبال.

– لماذا لا نصور بنتا مع حبيبها في حرش! فتهاجمها حيّة!

– صوري البنت وحبيبها يمسك بيدها.. رفرف الحب على قلبها مثل طير وخطفه.. ركضت البنت وراء قلبها.. صار وزنها مثل الريشة.. طارت من يد حبيبها بين الشجر، ركضت ولحق بها.. سبقته.. ضحكتها غمرت الوديان ورجع صداها.. وما عاد في الحرش غير الحب.. والعشب بطول الركبة والشمس منوّرة الدنيا.. تزحلقت على شيء أملس، وما جرى بعدها سرقه الخوف.. حيّة طولها أمتار هاجمتها وتسحب جسمها من العشب وتطوّق خصرها.. تلتف حوله بسرعة كأنها طابة صوف.. أنيابها كبيرة لكن لا تعض.. ولما وصل حبيبها كانت خرساء.. الخوف سرق صوتها.. قال اثبتي ما تخافي وإلا اهتاج الحنش أكثر.. صلّي وقولي "الأيدي الممدوة إلى السماء لا تعود فارغة".. تجمدت البنت والحنش يشد ويعصرها.. صرخت من الوجع كأنه سيقطعها.. بدأ حبيبها يشاغله،

جرب أن يمسك برقبته ففحّ في وجهه.. لاعبه بحركات يديه وبعصاه فارتخى قليلا في انشغاله.. صلى الحبيب للرب أن يساعده ليمسك برقبته.. والبنت صلّت: يا العذراء الحنونة.. يا أم النور.. يا شفيعة الولايا لا تبهدليني ولا تفضحيني، استري عرضي.. صاح الحبيب أمسكت به فاثبتي.. وسحبه للأرض وسحقه بحجر صوان. ارتخى الحنش فدبت القوة فيها.. الحنش ناعم لو مسحت عليه، ولما سحبته جرّح يديها.

– وقالت قتلته وحدي فلم يصدقها أحد.

– يصدق الناس ما يريدون.. قصص كثيرة ضاعت منها الحقيقة.. تشوّهت بخيال الناس والغيرة. وفي قصص الحب الكبيرة والغريبة، يشطح خيال الحاسدين فيصور فيها ما يعجزون عن فعله.. أو يتمنون لو فعلوا.. فتدنس خيالات الغيرة حكايا العشق بما لم يحدث فيها أصلا.. تلوث طهارة الحب وتجعله خطيئة.

وهي تمنح للشمس بياض ساقيها عند الباب، ناولت العمّة كوب البابونج بالعسل.. شكرت وابتسمت.

وفي ملامحها ودّ سهّل ما انتوي.

– سأبدأ الفيلم بمناظر من القدس، ألاحق صبيتين تسيران في السوق.. لا تعرف أي منهما الأخرى.. تلتقيان

صدفة فتبدأ صداقة تمتد في الأيام.. الأولى مسلمة كبرت في حاراتها، ولعبت في أزقة وشوارع البلدة القديمة، والثانية مسيحية كبرت في عين كارم، أنتقل معها إلى نبع عين العذراء، ودير المسكوب، وأحراج الصنوبر، ودار زوجها الأول.

– أولا بنات القدس زمان يلعبن في الأحواش لا في الشوارع، ثانيا دور عين كارم كلها أخذها اليهود!. ولم يبق فيها عربــي واحد.. دخلوها فاضية، قالوا جندي أردني تائه أو هارب؟ الله أعلم.. اختبأ وراء سور، وظل يقاتل حتى نفذ الرصاص فقتلوه.. أهل عين كارم هجّوا من دورهم بعد معركة القسطل ومذبحة دير ياسين. لأن الحسيني [42] ورجاله تمركزوا في الأحراش حولها.

زفرت قهرها.

– أهل عين كارم خرّبتهم جيرة القدس.. تعلموا من المقادسة واستفادوا منهم، صحيح، لكن الواحد في النهار غير عنه في الليل. المصلحة أخرستهم. أوض [43] وقهاوي، وحفلات، وأجّروا دورهم مصايف.. وما شاء الله على المختار، لم يعرف الشرف والعيب إلا على كبر، بعد ما أجّر داره لكامل النشاشيبــي وصاحبته اليهودية، يعني ما كان شايفه داخل طالع وعلى عينك يا تاجر؟!. أو

كان أعمى عن عربات الأكابر والجنكيات وسهرات الكاس والطاس، ولم يسمع أحد صوته يوم فتحت النيرس اليونانية الدار الحمراء للهمالة.. ومن أعطاها لها؟ رئيس الدير المسكوبـــي لأنها تحسس عليه وتقول للعلاج!

بمرارة الماضي انكفأت على نفسها.

عجوز قريبة استعادت حكاية العمّة:

– مصلحة العباد تسبق مصلحة السماء!. صحيح عين كارم مقدّسة، وستنا مريم شربت من نبعها، وفيها بشّر الملاك زكريا بولادة ابنه يوحنا المعمدان بعد أن شاخ مع زوجته، لكن البلدة عاشت على توفير طلبات المصييفين. أبو عرب فتح قهوة "العرب" على نبع العذراء.. وقال: يوم لك ويوم لربك.. الله أعطانا خضرة على مد البصر، وينابيع، وصيف لا يعرف الحر، وحرام أن نضيع النعمة.. كل ليلة مغنى وعود وهز وفقش.. والقدس القديمة خنقة وحشرة وصيفها ولعة، وعين كارم قريبة وبعيدة.. رصفوا الطريق لخيول عرباتهم.. والناس كلهم استفادوا فسكتوا، تجار العلف والعسل وعصير الرمان.. قالوا ينقي الدم فلمعت وجوه الرجال.. حتى النساء، لم تبق امرأة بدون عمل في دارها، تحضير الكبيس والزيتون والجبن الأبيض والخبز، لأن أبو عرب قدّم المازة مع المشروب ومطرب

وعازف عود.. شباب القدس اشتغلوا جرسونات في خمارات بيروت وتعلموا منهم.. المصلحة غيرت الناس؟!. والقهاوي والأوض جاورت الأديرة والكنائس والجامع.. ومع الكاس تتساوى الرؤوس، العربـــي مع التركي مع الروسي واليوناني واليهودي والكل مبسوط.. والطوائف بنت أديرة في عين كارم وعيادات ومدارس.. وسكنها الأجانب فتغيرت.

وفي البال قول أبـــي:

– السياسة فوق الدين في علاقات الدول.. والعثمانيون قدّموا العرب الأرثوذكس لوزة مقشرة للإرساليات.. منحوا التسهيلات والأراضي لدولهم.. ووضع اليونان أيديهم في ايدي الأتراك لقمع الطائفة، وهذا حال اليونان منذ تفردوا بالكنيسة "اللي بيتزوج أمي بأقول له يا عمّي".. والصحيح أن الإرساليات خدمت طوائفها وعلمت شبابها.. أما اليونان فعاشوا وما زالوا على قفا الرعية.. راحت أيام العزّ يوم كان البطاركة عربا، فحرّموا على الكاثوليك ان يلبسوا مثلهم، أو يدخلوا بيوتهم، ولا يدفنوا موتاهم إلا بإذنهم.. اليوم طائفة الكاثوليك في البلاد من أكبر الطوائف.. ثم قامت ثورة البلشفيك فكفّت ووفّت.. البلاشفة أوقفوا المال عن الكنائس والنوادي والجمعيات في عموم بلاد الشام فأغلقت كلها، والرهبان المسكوب بعد

الثورة الشيوعية صاروا تحت حسنة الطائفة.. الشيوعية هزمت الأرثوذكس كلهم، مسكوب وعرب.. تبهدلت كنائسهم والأديرة في البلاد.. والحجارة تهرم بالفقر وتزهو بالغنى، الفقر يذل الحجر مثلما يبهدل البشر.. أنكر الملاحدة وجود ألله فنــزل غضبه عليهم وعلينا. والناس جوعانة.. لكن الواحد يرجع ويقول: الله للفقير محل رغيف الخبز.

– لكن روسيا القيصرية، قبل الشيوعية، خاضت حرب القرم [44] ضد الأتراك وانجلترا وفرنسا للدفاع عن الأرثوذكس.. وأجبر القيصر تركيا على توقيع معاهدة نصبته حاميا لهم، وألزم الخلافة بالمساواة في الحقوق والمعاملة بين جميع رعاياها، مهما كانت أديانهم أو معتقداتهم.

– يعني الخط الهمايوني [45]؟! أسعد الملل كلها وحماها من التعصب التركي.. وبعد توقيعه فتحوا ديار الخلافة للدول الغربية، بنى الروس مجمع المسكوبية خارج السور، وهو حجر الزاوية للقدس الجديدة.. والمجمّع دولة داخل دولة، كنيسة فخمة يجاورها نــزل ومحلات ومشفى ومحكمة وبنك وسجن.. وليس لتركيا أية سلطة على الحجاج المسكوب وهم في ديارها، ولا ينطبق عليهم قانونها، فلهم محكمة وسجن داخل المجمّع؟!. لكن القيصر

أضر بالطائفة العربية عن غير قصد، يوم وزع الأرمن الناجين من مذابح الأتراك في أرمينيا ودول البلقان، على متصرفيات بلاد الشام.. وفتح لهم العرب الأرثوذكس بيوتهم وكنائسهم. أما أرمن القدس فسكنوا ديرهم، وما زال يغلق بابه عليهم كل ليلة، ونقشوا على حجر رخام فوق المدخل نص الأمان من السلطان الظاهر أبو السعيد، ويحظر فيه على الغرباء دخول الدير، ويؤمنهم ويلعن كل من يتعرض لهم بأذى.. وتجنّس آلاف منهم رعايا وتابعية دون عناء.. منحها لهم قولاغاص [46] تركي كبير لم يعرف أحد أنه أرمني حتى مات، فطالب الأرمن بالصلاة عليه ودفنه في مقابرهم.. المشكلة أنهم بعد استقرار أحوالهم، انقلبوا على الأرثوذكس، وطالبوا بحصة في كنيستي القيامة والمهد، فلم يتدخل الأتراك وطبقوا الستاتيكو.. قالوا فخّار يكسر بعضه وكلهم نصارى، ويبقى الحال على ما هو عليه.. قانون أجج الفتن وكرّس الانقسام، عداوة وثارات امتدت في الزمان ولم تزل، فيوم صحا الناس على الأرمن وقد قسّموا كنيسة المهد بالطوب ثلاثة أجزاء، مثل السراديب، طبّق العثمانيون الستاتيكو.. أما الانجليز فهدموا الحواجز، وقالوا لا يجوز تقسيم كنيسة، وستحدد حصص الطوائف فيها بعدد بلاطات الأرضية، وليس لطائفة أن تتعدى أو تتجاوز إلى بلاط

الأخرى، فدقّ الإنجليز إسفينا بين الأرمن والروم ألعن من التقسيم بالطوب.. والمعارك بين خوارنة الطوائف لم تتوقف حتى اليوم، وكل يقف للآخر مثل الناطور، فإذا زلّت رجل كاهن على بلاط طائفة أخرى، دقوا الأجراس ونشبت المعارك وسالت الدماء.

في كادر الصورة كنيسة المسكوبية الضخمة على النمط البيزنطي، وقربها مجمع صار وزارة لإسرائيل.

قال المؤرخ:

– في المجمّع سجن المسكوبية، جربه من قاوم أو عارض حكومة الانتداب ووعد بلفور ثم احتلال إسرائيل.. حوّل الإنجليز سكن الرجال إلى ديوان للمندوب السامي، وضموا جناح النساء إلى السجن ليتسع للمعارضين من العرب، ومعهم بعض أعتى المتطرفين اليهود ومنهم الحاخام الأكبر بعد نسف سكة الحديد، وكلاهما قاوم الانجليز لأسباب مختلفة.. العرب خوفا من هجرة اليهود وتدفق الأسلحة، وبناء المستوطنات.. واليهود كلما أوقفوا الهجرة، أو منعوا دخول الاسلحة ليسكتوا العرب، مع علمهم أن حليمة ستعود لعادتها القديمة، وبعد أن يضحك الإنجليز على زعمائنا بكلمتين.

حديث المؤرخ سحب العمة إلى داخل نفسها.. استمعت

في صمت، وكتمت رغبة التدخل.

أغلقت باب دارها.. وموحش سكون الليل في الحارات الخالية.

العشق المحرّم

مع العصر، ونحن نشرب الشاي في الحوش.. فردت العمة بعض صور من حياتها فجأة، إذ عادت من دارها بمظروف.

- هذا أبــي أمام داره في سينتياغو.

والصورة اصفرت بطول العهد.. شاب أنيق فارع الطول، على باب بيت واسع، والحديقة منسقة.. رشيق في بدلة وبرنيطة، وسيم بشنب رفيع عقص طرفيه، ومن جيب سترته تدلت ساعة بسلسلة.

- كان حلوا كأمير، يشتري أغلى الملابس، عيناه عسليتان واسعتان وصوته حلو.. أذكره يغني في السهرات على السطح أو في الحوش مع الجيران والأصحاب.. يقدم لضيوفه الترمس والفستق ومخللات يشتريها من كبانية اليونان، ثم تعلمت أمي عملها من صديقات يونانيات.. كثيرات تزوجن من شباب الطائفة.. يعني اليونان حكمونا من الكنائس ومن غرف النوم.

وضحكتها صافية.

- رجع أبـــي من الغربة يغني أغاني غريبة، اسبانيولي وهندي.. مرحة راقصة، أو حزينة.. مثل الدنيا.. لم نفهم الكلام لكن حزنها وصل.. أبـــي حنون.. المشكلة في قلبه الضيق.. صغير، إذا أدخل فيه واحدا أخرج الثاني.. وماتت أمي وهي على الباب ولم يأت دورها... لكن، كان أحلى الشباب.

هل تذكر وجه والد تركها طفلة؟ أم استعادت وصفه من صوره؟

تتشوّش الذاكرة بعد مشاهدة صور قديمة.. وتحتار.. هل اختزنت تفاصيل ذاك الماضي وحده، ودون غيره من أحداث؟ ولأي سبب اختارت الذاكرة حادثة أو شخصا دون سواه؟ أم أن الذاكرة والصورة في اختلاط محيّر؟. وهل كان العقل ليستعيد تفاصيل لحظات وأحداث معينة إن لم تسجلها الصور؟

بفرح وحب مدت إحداها.

- زهرة الأنصاري!

شابة آسرة في ثوبها الاسود، ياقته وطرفا كميه مطرزة باللؤلؤ.. مبتسمة.. شعرها الناعم بقصة "كاريه"

يغطي إلى حدود كتفيها تحت غطاء شبه شفاف، وعيناها واسعتان.

- تصورنا خفية. وتبادلنا الصور.. ولو عرفت عائلتها؟! الله أعلم ماذا فعلوا بها!

خلف الصورة ختم استوديو القدس.. خليل رعد]. وإهداء بخط ينقصه الثبات.. إلى صديقتي العزيزة ميلادة ابو نجمة.. للذكرى.

- مصور ماهر.

- زهرة من الأشياء الحلوة في حياتي.. بوجودها احتملت أكثر.

- والحب؟

- الحب نعمة.. لولا الحب لم أكن أنا.. حوّلني إلى إمرأة أخرى.. كشف أشياء حلوة فيّ، ما كنت سأعرفها وحدي.. الرجل إذا عشق امرأة صارت مئة امرأة.. حب الرجل يعيد خلق المرأة لأنها ترى الدنيا بعين المحب والمتسامح معها.. والرجل قادر لأن المرأة من ضلعه! وهو أحبني بشكل مختلف.. صالحني مع نفسي ومع الناس.. معه أصير طفلة وصبية، مجنونة وعاقلة، قديسة وخاطئة.. حبه أطفأ غلّي ونقمتي.. ثلج برّد ناري. صالحت

العالم لأنه فيه.. كان إذا هدهد حضنه خوفي، أرضى عن الدنيا وما فيها.. عن امبارح وعن بكره.. سامحت أبــي وهجره لأمي وغيابه عنا.. وقسوة اخوي ورميهما لي في شدتي.. وشكرت الله لأنه خلقني امرأة ليحبني.. تغيرت الدنيا صحيح، لكن الحب لا يتغير، منذ آدم وحواء وقصص الحب تغطي الأرض، فوقها، وتحتها.. في بلدان بعيدة أو قريبة، لكن الحب فيها لا يتشابه.. كل حب له قصته.. والحب هو الشيء الأكيد في حياة الناس، الحب مثل الموت لا يد للإنسان فيه.. الناس كلهم جربوا الحب، أعلنوا عنه أو أخفوه.. دافعوا عنه أو تركوا الدنيا والناس تلطّش بهم وبه.. لكن.. ولا امرأة في الحب تتشابه مع أخرى.. هذا لو كانت محظوظة برجل يحبها.. أنا لو أكملت حياتي مع عوض، رغم أنه حنون، لبقيت واحدة من الستّات.. امرأة مثل أي ست، لكن حبه عجنني وخلقني على صورة ثانية.. صرت أنا.. حبه رفعني فوق كل النساء.

شوفي هذه الصورة.

بالأسود والأبيض.. يجلس الخوري متري الحداد، وفي يده عصاه، والعمّة رشيقة نحيلة، عيناها واسعتان وتشعان فرحا.. تقف بجانب الكرسي وتبتسم.

- يا ربــي على ما جرى.. الفستان من محلات

"كاكا".. يهودية تنــزل الموضة في محلها قبل أسواق الإنجليز والفرنساوية.. لونه أزرق سماوي.. لم نكن نعرف الصور الملونة يومها.. أخذنا الأوتومبيل إلى بيت لحم.. قال: أول محل تصوير في البلاد لبنت عربية.. بنت قسيس البروتوستانت من الناصرة.. سبقت بنات جيلها لأن طائفتهم اهتمت بتعليم البنات.. زمان كانت معامل التصوير تابعة للكنائس والأديرة، وصور البلاد من مئات السنين محفوظة في المطرانيات. أو عند المصورين الأرمن. قال: يا ميلادة الصور حياة ثانية.. يموت الناس وتبقى صورهم.. إذا ضاعت قصتنا الصورة تذكرهم بنا.. لو خلقنا الله قبل هذا الزمان، لحكى الناس قصة حبــي لك على الربابة.. أو خلقنا بعد هذا الزمان فربما كانوا متسامحين مع الله ومع الحب أكثر.. نتصور في بيت لحم لأنها بعيدة، ولا أحد يعرفنا فيها.

– كريمة عبّود؟!

– أتعرفينها؟!.. إحك عنها في الفيلم.. متعلمة، ساقت أوتوموبيل، وافتتحت محلات تصوير قبل الرجال!؟ رجعنا لأخذ الصور قالت: أنت حلوة صحيح لكن الكاميرا أحبتك.. والكاميرا تحب وجوها ولا تقبل غيرها، ومن تحبه تصوره أحلى.

- أكانت تعرف هذا؟

- ما كنا نعرفه لا تعرفه أجيالكم!

اعتذرت بشدة:

- هذه وجوه "فوتوجانيك" يعني "الكاميرا تحبها"، الملامح المسمسمة والناعمة والعيون الواسعة مثل وجهك، تصلح للتصوير، بل وتظهر أكثر جمالا.

للإطراء سحر البيان.

- قالت المصوّرة إمسك يدها.. مسح على رأسي ولم يترك عصاه.. استوديو التصوير كأنه محل نوفوتيه.. فساتين سهرة وأعراس، وأثواب مطرزة، وتقصيرة تلحمية، وطرابيش وكل ما يلزم لوجاهة رجل أو امرأة.. لم أغيّر فستاني لأنه هدية منه.. شوفي هالطلة.. هيبة وحنون.. لمسته سحر، نظرته سحر، كلامه سحر. إذا حكى سكت الكبير والصغير.. خبأني في صدره وحماني.. ومعه شفت وعرفت، فتح عيني على الجديد والحلو.. على عالم مثل أمريكا وما عرفه أبـي وأخواي.. أول مرة التقينا مشينا إلى شارع يافا.. المرأة بجانب من تحب تملك العالم.. ملكة.. ركبنا في عربة مذهبة مثل عربة ملكة الإنجليز، ويجرها حصانان.. تقف دائما أمام أوتيل كينج دبفيد، فندق نسفه اليهود في شارع يافا ضد الإنجليز..

ودفع كثيرا لأجربها.. قال، شارع يافا يشبه مدن الغربة، مثل مدينة فيها أبوك، محلات وقهاوي وسينمات.. وبعدها أخذني في القطار إلى يافا، قطع تذكرتين درجة أولى.. مع أن الثانية أرخص.. قلت حرام غالية؟ زعل وقال أعوذ بالله.. لن تتبهدلي وأنا عايش.. وأنت أحسن من كل الناس.. وبعدين لابقلك.. وضحكت في خفر صبية.

– في يافا خلع ثوبه ولبس بدلة.. ركبنا حنطور على الشط.. ناس يافا غير. ويافا لـــمّت نسوان عاطلة من كل لون وجنس.. بحر يافا حلو وموجه أبيض.. دخلنا سينما الحمراء، وفي العتمة تسللت يده تحتي. وأمسك يدي وضغط عليها، أحببت السينما من يومها.

تضحكنا أحلام حلقت بنا في استحالتها، ثم شدتنا يد الزمان منها بقسوة، فتهشمنا على أرض الواقع.

ضحكت العمّة من خيال جنح بها يوما، وحلم زيّن غابر أيامها. غطت فمها بيدها، وضحكت بخبث فتاة في العشرين.

– أتعرفين؟! تمنيت في صباي أن أكون ممثلة!

ضحكت بالمفاجأة.

– وهل كانت ستقبل عائلة أبو نجمة؟

- لا أبو نجمة ولا القدس كلها.

- وشوشته.. قلت يا ريت أصير ممثلة.. ضحك وقال: لو كنا في مصر يمكن.. أي عربــي يحب الفن لا بد أن يسافر إليها.. هناك السينما والمسارح والمغنى، لكن القدس؟! مقدسة وصغيرة، والناس تعرف بعضها.. مدينة محكومة بالأديان.. ولولا خوفي من كلام الناس لسجلتك في مدرسة الفنون.. مديرها صديقي، وتعلمت العزف والغناء والتمثيل وشاركت في مسرحيات الجمعيات والنوادي.. وكنت أول امرأة تتخرج منها.. لكن.. بالناقص فضائح.. يكفينا أن نتفرج.. حضرنا أفلاما ومسرحيات وحفلات عزف وعود ياما.. في القدس ويافا.. ثلاث ساعات بالقطار بين المدينتين، وتصير في عالم لا يعرفك ولا يهتم بك.. وهو لا يمل من تعليمي.. وأنا تعلمت وتغيرت لأرضيه.. إذا عشق صاحب عقل امرأة، فواجبها أن تعمل المستحيل لتلحق بمستواه، وإلا ضاع منها.. الرجل الذكي يحتاج من تفهمه.

- وعوض؟

- عوض؟! مسكين.. أحبني.. لكن مات.. كنا صغيرين.. والعالم الذي نعرفه مثلنا صغير.

تململت.

– ماذا لو يحكي الفيلم قصة صبية، جميلة، صغيرة، زوجها يحبها لكنها لا تنجب؟ تزور الكنائس، تضيء الشموع.. وتعاني من معايرتها بأنها لا تحمل.

– ملون أو اسود وابيض؟

– لا يُستعمل الأسود والأبيض هذه الأيام إلا في أفلام تاريخية، أو للرجوع إلى الماضي.

– صوّري البنت تدخل الكنيسة بفستان عادي.. يمكن أخضر فستقي، أو زهري فاتح، لأنها تحب الألوان الهادئة.. تغطي شعرها بإيشارب دانتيل أسود.. تضيء الشموع، وتصلي، وتطلب أن تتحرك أحشاءها بولد.. وبعدها صوريها وهي تدخل الحرم.

– الأقصى؟!

– لم تبق كنيسة ولا جامع إلا زارته.. ولا مبصِّر ولا قارئة بخت أو فنجان.. لا في حارة المغاربة ولا حارة اليهود.. وصفوا لها بلاوي زرقاء، والبنت تطيع.. ولا فائدة، ولم ينفع العلاج، لا مع الزوج الأول، ولا مع الثاني.

عابرا مرّ اعتراف صريح بالزواج.. أسكتتني عنه الخوف من غضبها.. ودون أن تلتفت نحوي سحبت من الفضاء خيوطا نسجت ذكرى.

– حتى أوراق الجوز غلتها وحقنت نفسها بمائها، وصفة من الداية اليهودية.. نفضتها الحرارة ووصلت الموت.. دسّت الداية كفها فيها، وقالت البنت سليمة.. والدكتور اليهودي، وصف لها مقويات وقال لا تفكري بالحبل، وإن فكرت بالأولاد وأنت "نائمة" مع زوجك لن تحبلي.. بكت.. كيف؟ وأمه كل يوم تسألها، وتعاير وتلعن ساعة تزوجها ابنها فيها، وتسم بدنها بالكلام عن شجرة لا تثمر حلال قطعها، وابن سيخرج من الدنيا بلا ولد!

وحكايات الغضب شلال فتح نوافذ الذاكرة.. توهجت حياة تهرب من نسيان يطاردها، قلّبت صفحاتها أمام من تصغي وتهتم بسيرة لم تفردها أمام أحد.

العلاقات الانسانية اختراع تحايل به البشر على هباء الحياة وتبعثرها في العدم.. يرتبط شخص بآخر ليجعله شاهدا على حياته، ويمتد عبره في الزمان بالذكرى ولو إلى حين، ليسجل تفاصيل عمر يبدأ وينتهي بلا إذن منه.. العلاقات البشرية رفض من الناس لأن تتناثر حياتهم في الوحدة، وتتبخر برحيلهم، فيرتبطون بحب أو صداقة أو شراكة، أو زواج وابناء ليمتدوا بهم.. وقلة منهم تعتقد بتميزها، فتبحث عن الخلود بإنجاز يشهد عليها.

– والدكتور الدجاني، أول وأشهر طبيب نسائية في

القدس والبلاد كلها، كشف على البنت، وطلب فحوصات ومصاريف ياما، قال القنوات [47] ضيقة ومسكرة.. خلقة الله، وفتحها ممكن، لكن بعملية في الجامعة الأمريكية في بيروت.. بكت أمه ولطمت، وقالت أبوها يدفع المصاريف.. غني ومغترب. في الليل حضنها زوجها.. بكى معها.. قال تحمّلي.. يكفيني من الدنيا أنت، لا أولاد ولا خلفة.. لكن أمه لم تسكت.. وأبوها لم يرد على المكتوب لأنها طلبت مصاريف العملية، فكتبت لأخويها في أمريكا.. قطعوا إيديهم وشحذوا عليها.. قالوا نحن بالكاد ندبر أمورنا، والعملية غير مضمونة. أصبري على وعد الله.. وإذا لم يملك الإنسان غير الصبر يصبر مثل ايوب.. يتحمّل حتى لا يصدق نفسه.. صبرت البنت وتعلقت بحبال الرجاء، لكن زوجها مات.. انفجرت الزائدة [48] في بطنه.. أمه قتلته بهبلها.. صبر على وجعه، يصرخ وأمه تسبها لو تأخرت في تسخين الماء.. لصقة وراء الثانية على بطنه.. صراخه وصل المرج.. والمسكين لم يعد يحتمل أخذوه إلى المستشفى في القدس. مات على بابه.. الكمادات فجّرت الزائدة، وترملت البنت وما صارت عشرين.

– لكن الزوج الثاني حنون وهي سعيدة؟

– أي زواج لا يواجه الناس سعادته ناقصة.. الكلام والشك والاتهام الباطل يكسر النفس، ويذلّ الروح مهما

كان الحب! أية سعادة إن لم يشهر الرجل حبه للمرأة، وافتخاره بها؟ الحب أمام الناس له طعم غير الحب في غرف النوم.. حب الرجل المخفي عن الناس، مثل حرامي يسرق حلاله.

جلوس مقدسيتين بين أفواج سياح في مقاهي الأرصفة، قرب كنيسة القيامة، اثار دهشة النادل.. بسطات البضائع والطاولات تزاحم المارة والسياح والمشترين.. لغات وألوان تتسكع أو تهرول.. وشهية رائحة الفلافل والشاورما مع الشاي بالنعناع.. مرّ شيخ لوّحته الشمس، وزادته تجاعيد وجهه سمرة، لاه بأمر يشغله عن طفل يمسك بيده.. صامتا يجره كلما أحس بتوقفه.. والصغير يتمهل ليرصد ما حوله.. أشهل، عيناه ورقتا زيتون اتسعتا بدهشة الاكتشاف الأول.. اصطدم بطرف مقعدي فابتسمت له.. اشاح خجلا ولم يبتسم.. توقفت العمة عن الأكل وتابعت.. استدار الطفل خلسة ليتأكد من اهتمامي به.. التقت نظراتنا.. ابتسمت. أطرق.. سألته عن اسمه.. قاوم إغواء الابتسام، والتمعت عيناه بالأهمية ولم يجب.. وابتلعهما الطريق.

– كثير من الأبناء لا يشبهون آباءهم.. شكلا ورؤية لأنفسهم وللحياة.

بحذر وافقت.

- ولهذا توقفت سدانة الحرم عند زوج زهرة.

- الشيخ هو السبب.. انقطعت عنها سنوات.. ثم.. قبل الاحتلال بسنتين أو ثلاث ألحت عليّ صورتها.. قلقت.. تلمع الصداقات القديمة في عقولنا أحيانا مثل برق ورعد.. البرق يختفي والرعد يسكت إن تمهلنا.. لم أنتظر.. ينشغل الناس بالحياة فتفتر بعض الصداقات ثم تنقطع.. وزهرة لا تزور ولا تخرج إلا للضرورة، وزيارتها تعني أن أمشي إلى مجمع باصات باب العامود، ثم من موقف الباص في الشيخ جرّاح إلى دارها.. بعدنا، والبعد جفاء لأنه يجفف الكلام.. خرجت إليها.. إذا فكر الإنسان كثيرا بأمر تردد فيه.

- كيف نعتبرها صداقة ولم تلتقيا إلا مرات؟

- الصداقة الحقيقية أكبر من البعد، وأعمق من الغياب.. وإذا التقى صديقان بعد انقطاع، فتح كل منهما قلبه وأسراره للآخر، وكأنهما افترقا بالأمس.. لا تحسب صداقة حقيقية بأيام تمر، ولا بسنوات تطول.. بل بقدرتها على الصمود في نفوس أصحابها.. وأنا وزهرة التقينا على درج ستنا مريم؟ وبعدها في الحرم؟ يعني تباركت من المسيحي ومن المسلم!.. وضحكت.

– ابن زهرة درس الهندسة، مع أن الشيخ حارب ليستعيد حقه في سدانة الحرم؟

– لأنه لم يقل لابنه لا.. مثل الخوري.. كأن الحب لا يعرف كلمة لا؟! منظر لن أنساه.. وأنا وزهرة في الصالون، والقدس لهيب صيف، والباب مفتوح.. دخل الشيخ يحمل أغراض بيته في أكياس ورق.. رد السلام.. تعبان والعرق يتصبب منه قال، تعطل الباص على الطريق لأكثر من ساعة.. ثم سأل عن أحوالنا.. وطلب من الله أن يصبّر الخوري على ما ابتلاه بموت ابنه، وأن أسلم عليه.. شكرته وخرجت.. وعلى الباب وقفت سيارة حمراء كبيرة وجديدة.. نــزل منها ابنه مع أصحابه يضحكون ويرطنون.. قلت لنفسي: ولو يا شيخ، تروح وتيجي بالباص، والسيارة أمام المدرسة للولد وأصحابه؟ وكم من أكابر القدس، أو من معلمي الولد عندهم مثلها؟ ولد بسيارة وشلة أصحاب؟ ويصير شيخا ورئيس سدنة؟!.. وهذه غلطة الخوري مع رفيق. لم يعرف كيف يتعامل معه.. وشغل عنه بقضايا البلاد، وكتب هذا في أوراقه.

– وترك الأوراق مع امرأة يحبها ولا يثق بغيرها، فخبأتها عن الناس، ثم نسيت مكانها.

– كيف؟! في علبة كرتون في مكتبة إبراهيم؟ طلبها

حبيب فخبأتها عنهم.. قال نطبعها في كتاب. قلت حيطان أخيك معبأة بالكتب ولا أحد يقربها.. وهذه أمانة ورسالة لابنه، ولا يجوز لأحد أن يعرف ما كتب أبوه.

أنا والليل، وملف سميك في الخزانة الأخيرة من المكتبة.. بخط جميل وبالحبر والريشة سجّل الخوري متري الحداد ما يشبه المذكرات.. وكتابة اليوميات ميزة لأدباء ورجالات ذاك الزمان، رووا سيرهم، وأوضاع البلاد، وتجارب الرحيل والمهجر.

من أوراق الخوري متري الحداد
الشهر الرابع من سنة ألف وتسعمائة وأربعين ميلادية

كيف أبدأ رسائلي إليك؟. ومتى ستقرأها! في حياتي أم بعد رحيلي؟ لم أقرر بعد.

هل أكتب لتفهم وتصفح؟ أم أعترف طلبا لغفران الرب؟ ولاعتقادي بأن البلاد على مفترق خطير، ولا بد من تسجيل شهادتنا على ما نعرف، ربما أكثر من غيرنا، من أمور العباد والبلاد؟

مهما يكن.. سأكتب كأنما أحدث نفسي، لأنك قطعة منها.

تحيرني البداية.. أكثر مما تتخيّل، ولا أدري بما عليّ أن أخاطبك؟ وأي نداء قادر أن يملأ مسافة الجفاء بيننا؟. وترهبني المكاشفة.

هل أناديك بولدي الحبيب؟ نعم، وأكثر مما تتصور، رغم اعتقادك بأنني لا أحبك، كما لم أحب أمك من قبلك،

ولا تدري أي فرح عظيم وبهجة ملأت حياتي يوم ولدت.. قصيرة سعادتي سرقها ملاك الموت وطار بها.. وأمك تهذي بحمى وعرق ونـــزيف.. وحمى النفاس استكثرت فرحتي بمولدك.. كسرني موتها يا بني كما لا يمكن لك أن تتصور، وأثقل كاهلي بالذنب.. وأعتقد أنه لو مد الله في عمرها لقرب وجودك بيننا. لكنها إرادة الله.

وصدق يا رفيق، لم أنشغل عنكما بها.. فحبـــي لها صليب حملته في دروب آلامي.. ونصيب مكتوب على جبيني.. به كانت سعادتي وبه شقائي.

الحب كالموت.. أنّى شاء طاشت سهامه.. لا زمان يرده ولا مكان.. ولا جاه يعانده أو سلطان.. لا قدسية أمامه غير إرادته.

منذ رأيتها أمام المذبح [49] ارتكبت المعصية في التو واللحظة، خالفت واحدة من الوصايا العشر، اشتهيت امرأة قريبـــي في قلبـــي، وارتجفت أعماقي كما لا يليق بخادم للرب، إحساس سامني عذاب الضمير، ومنع إخلاصي الكامل لأمك، حين لم أعد بكلي لها.

والعشق إن تحرّم فرس حرود، لا لجاما يثنيه أو يوقف اندفاعه، تنفلت قيود العقل بإغواء الحب. وكلما لجمت القلب أمعن في عصيانه وعلا صهيله.

مس من شيطان الهوى خطف قلبـي في التو واللحظة.. أعجز تعاويذي. وبائس من يتحكم قلبه في أمور عقله.

بيني وبين الله وقف حبها، وتهت أنت من يدي.

ولا تعلم أنني اضعت البصر، وهدرت أيامي أراقب دربا يعيدك، فأذبح في استقبالك العجل المسمَّن، وأقيم أفراح رجوعك، كما في عودة الابن الضال، فمضى العمر وطريقك خال.. والمسافة بيننا سبخات ملح لا تجف، ووعورة درب لا سبيل لتجاوزها.. وحائر بما عليّ أن أفعل، وبأي وسيلة أستعيدك.

حين تكون في وسط دائرة لا تلـمّ بمحيطها.. فقط.. من يقف خارجها يقدّر مداها ويكشف داخلها.. وأنت أغلقت دائرتك دوني، وأنا محاصر بدوري في دائرة لا تتوقف عن الدوران، فأسأت تقدير ما أنت فيه.. خدعني مظهرك المتماسك حتى صدمني ضياعك، فدافعت عن حقي فيك بمزيد من قسوتي عليك.. فكيف لم تفهم بأن جفاءك قطع طريقك إلى حضني، وسد دروبـي إليك.. وكلما دنوت جذبك بعيدا اعتقادك بخيانتي لأمك، وحفر شعورك بالخذلان أخدود الجفاء بيننا.

تاج الشوك جلل رأسي، والحربة غاصت عميقا وطعنت

قلبــي، وأنت تعود مترنحا مع الفجر.. مستهترا بسؤال غضبــي، ترد بتعثر الكلمات وثقل لسانك: خمارة مرقص هي الصدق الوحيد في هذه الحياة، وكل ما عداها رياء وزيف؟

فكيف استطعت أن تلقي بــي إلى هاوية؟ واي وسواس صوّر لك أن عالمك خاو بلا حب؟ وأن السلوى في الخمر؟

المحبّة في خيبتها مندفعة، عنيفة مثل الكراهية.. قاسية. هجمْت على أحلام لي فيك تتهاوى.. فكيف طاوعت يدي غضبــي وضربتك؟!.. عذبني الندم، تمنيت لو أنـي لم أجد ذاك القاووش معلقا عند الباب، فهويت به على أمال فيك تخذلني، وتختار مسارها بعيدا عمّا أردت لها..

من جنود أتراك هاربين من هزيمتهم، تخلصوا مما يدل عليهم، اشترى جدّك مسدسات وبواريد وذاك القاووش، وعلقها ذكرى لعهد قاس من تاريخنا.

بحقد وغل هاجمت يدي، فهل لاحظت أن القاووش سقط قبل أن تصل إليه؟. بقسوة الحقيقة وقع من ارتخاء يدي إذ صحت في وجهي، بأن لا سلطة لي عليك، وأنك ترفض ابوتي.

فكيف كرهتني إلى حد أن تدفن نفسك في الشراب؟

وتتبرأ مني أمامي؟

تتعرى النفوس، وتتكشف بواطن القلوب في سورة الغضب، أو تحت تأثير الشراب.

سوادا مشيت المسافة القصيرة بين مدرسة المطران وباب العامود.. صخور جثمت على روحي، تهشمها كلمات المدير فأتعثر بشظايا نفسي.. ضاع بصري وطار صوابــي، وتجللْت بعار فشلي، ونظراته تتهمني بالانشغال عنك، فلم أعرف أن غيابك زاد عن المسموح في اللوائح.. مهمل وغير مهتم لو حضرت!

لماذا يا رفيق؟

كثير على مثلي البكاء واستجداء الرأفة والتوسل يا بني.. منحنا المدير فرصتك الأخيرة.

ألا تدري يا بني، كم من انتقاد رموه في وجهي بقسوة، وخنجر طعنوا به ظهري، يوم أدخلتك مدارس تفاخر بها.. صغيرا في راهبات صهيون، ثم مدرسة المطران؟

– كهنتنا يجرّون أولادهم إلى مدارس الطوائف؟ ويقفون بهم على أبوابها يستجدون علمهم. أي عار لطائفتنا؟. نهرني ذميانوس بعد أول يوم دراسي لك،

رافقتك فيه.

– مصلحة ابني فوق صراع الطوائف.. ضعفت مدارسنا فلجأنا إليهم.. ولن أحرم وحيدي تعليما متميزا لأنه ابن كاهن، وهو ليس بأقل من أبناء الطائفة لأني أبوه.. ثم.. أنا لست أكثر تعصبا من شيوخ المسلمين، وزعماء القدس. معظم أبنائهم في مدارس الطوائف أو تخرجوا منها.

للحقيقة طرائق لا تدخل حساباتنا.. تفاجؤنا فنتبعثر.

كثيرا ظلمتني يا رفيق فسامحت جفاءك.. تفهّمت نبذك لمجلسي.. صليت لينير الله قلبك، ويخفف قسوتك عليّ، وعليها.. وصدقني، لم تكن منصفا وأنت تحمّلها وزر ذنب لم تقترفه، بأن عشقها منعني عن حبك، وخان أمك.. وأعذرك، فما قاسيته بعد موت والدتك فوق احتمال طفل صغير، لكنها إرادة الله.. كان ظلما أن تلمح بعض نسوة جاهلات إلى ارتباط مولدك برحيلها، واتهام وجهك بالنحس، أستغفر الله، واعذرني لمواجهتك بما قيل.. لكنني وعدت أن أكتب كما أحدث نفسي.

وأنا عجزت عن ردّ ما تتهامس به النساء رغم مواعظ كثيرة حرّمت فيها مثل هذا التطيّر القاسي.. فظل التهامس يلاحقك.

ألهذا حملتني وزر موتها؟ هل أراحك لومي على أمر لا سلطان لي عليه؟ فشقينا، انت وأنا، بذنب لم نقترفه! كيف صدّقت أنها ماتت كمدا وقهرا، وتناسيت أن الموت والحياة بيد الرب وحده!

وما أريدك أن تتأكد منه، أنني أكرمت أمك حتى آخر لحظة في حياتها، كما على زوج صالح أن يفعل! ويعلم الله أنني لم أقع يوما في الخطيئة الجسدية، بل وقاومت التجربة وإغواء الشيطان.. صارعت قلبــي لأظل مخلصا لأمك، جسدا، وحتى استرد الله وديعته.. أما القلب فلا سلطة لغير الخالق عليه.

وصدق يا بني، أنا لم أصرح، في حياة أمك، لجنس مخلوق بعشقي وما قاسيت.. عشت محنتي وحدي.. أما كيف عرفت؟ فلا علم لي.. ولم أجرؤ على سؤالها.. يرحمها الله، كانت شديدة الذكاء، طيبة ومرهفة الحس.. وكم عذبني شكي بأنها تعرف.. كنت أقرأ العتاب معلقا على شفتيها، مغروسا في عينيها فأتمزق مثلها، ونتفادى النظر.. لم تعاتب، ولم أسأل.. فهل لامرأة مثلها حاسة سادسة تكشف مشاعر رجلها الخفية؟ أم تراني هذيت باسم الأخرى في منامي؟ لا يقين عندي.. ويمكن أن أجزم بأنها أفضت بشكوكها، عن قصة لم تحدث بعد، إلى صديقة لم تحفظ سرّها.

كل ما أشهد الله عليه، لعلك تستريح، أنني لم أصرح بمشاعري، حتى لمن أحببت، إلا بعد وفاة أمك بسنوات، وبعد قراري بتغيير حياتي وترك الكهنوت.

سأحدثك عن هذا حديث رجل لرجل.

ليست شهوة جسدية ما دفعني إليها، ولم أخالف القانون الكنسي من أجل رغبات لم استطع لجمها.. بل لإحساس غريب تسلط عليّ حد اليقين، بأن هذه المرأة قطعة مني، وانفصلت لسبب لا أدريه.. أو أن جزءأ مني جُبل مرة أخرى وتجسّد فيها.. سكنت إليها نفسي.. طفل عاَجز يحتمي بأم حائرة مثله.. كلما التقيتها أولد من جديد.. لا قيود معها تكبل نفسي.. طفلا ورجلا ومعلما وأبا أصير.

لا مشاعر تعادل الإحساس بأنك العالم لامرأة.. لا تراه إلا بعينيك.. طفلة محرومة تحتمي بحضنك.. وهي ما زالت قادرة، رغم قسوة السنين، على تملك نفسي.

منذ رأيتها، أدركت في التو واللحظة، أن شيطانا يسحبني إلى تجربة عظيمة.. يقف بــي على حافة هاوية ملوحا بالغواية، كما وقف إبليس بمخلصنا على قمة جبل قرنطل [50] في أعظم تجربة إغواء إنسانية.. ممالك الأرض مقابل الكفر بربه.

وأنا لم أنجح ولم أفشل.. توقفت بـــي تجربة الحب عند منــزلق لا يرحم.. لم أسقط ولم أصمد.. فقط ألقى بــي في دائرة تلوب بالأسئلة، وتلوّح بالإغواء دون توقف.

عذاب هي الأسئلة الكبيرة.. وأعوذ بالله من أسئلة تحملك إلى حدود الشك.. تسرق نعمة الهدوء، تشتهي الروح وتلتهم سلامها.. كنسر يقتنص فريسة تخطف عقلي.. للأسئلة مخالب تنغرس في روحي، تفتت صلابة إيماني: فهل يعرضنا الله للتجربة فقط ليحاسبنا؟ ألم يخلق القلوب لتحب؟ أو ليس هو المحبة؟ الم يأمرنا بأن نحب حتى أعداءنا؟

ويعرف الله أن أجمل الحب عشق محرّم.. دونه قسوة العالم وقوانينه! نكتمه حتى نذوي، أو نبدو معه كما لم يعرفنا أحد!.

قيّد العشق نفسي، وكانت توّاقة إلى الانعتاق.. أجاهد للفكاك فيكبلني أكثر.. تسلط وجه امرأة اشتهيتها على سجودي، ونومي، وصحوي، كأنما هي توأم نفسي لا تفارقها.. سكنت أوقاتي واحتلت عبادتي.

وصدّق يا رفيق، لا مبرر لحقدك عليها.. فلا يد لها في ما قاسينا، ولا علم لها بمشاعري إلى أن صارحتها..

ولأنني أشهدت الله أن أكتب صادقا، أعترف بأن استجابتها السريعة حيّرتني. كأنما كانت تنتظر، أو تعرف انني آت؟!. لم تتردد.. ولم تُعْرَف بين الناس عنها خفة ولا لاكتها الألسن، ولا سُمِع ما يشينها.. اندفعت إلى الحب بلا تردد، وقبلت بظروفه رَغم قسوتها.

هل كان موت أمك إشارة البداية لقدر جديد؟ لا تغضب يا بني! فعمر أمك تحدد قبل أن تولد، وعذابـــي مكتوب قبل أن أرى النور. واللهم لا اعتراض.. بيدك حياتنا والموت.

قررت ترك الكهنوت فردّني قدري.. والحواجز سدّت دربـــي، كلما أزحت صخرة تدحرج غيرها.

– لن تحتمل كنيستنا فضيحة ثانية! يتحلل كاهنان من الرهبنة من أجل النساء والشهوات؟! ستنال الطوائف من سمعتنا.. وكنيستنا ما زالت تقاسي من فضيحة الراهب أشيل، بعد أن فشلنا في السيطرة على رعونته.. لن نحتمل فضيحة أخرى... صرخ ذيميانوس في إصراري على التحلل من قَسَم الكهنوت.

هل تعرف حكاية أشيل؟ أحد رهبان أخوية القبر المقدس، شاب يوناني بهي الطلعة ذكي، ترقّى إلى أعلى مراتب الكهنوت.. ولا عجب فدربه ممهّد.. أخته زوجة

رجل مقدسي نافذ، أديب وشاعر، ولعائلته بيرق، وأجداده من كبار المتبرعين للطائفة. والصديق الأقرب لذميانوس. لا يفارق أي منهما مجلس الآخر.

الراهب أشيل فتن بصونيا.. صبية يونانية وابنة أحد أكبر تجار المجوهرات.. جمالها فريد.. إذا مرت في طريق التوت إليها الأعناق.. فتن بها أشيل فنسي من يكون، ولمن نذر نفسه.. والإغريق عشقهم نار، فضحت عينا الراهب اضطرام مشاعره، وجرفه عشق لم يرده عائق.. ضجت القدس براهب ترك عبادته، وتبع صبية في الدروب والأزقة.. نهاره انتظار أمام دارها، ويفرش لوعة الغرام بساطا تدوسه أينما سارت.

وأعنف الصبابة عشق محرّم.. للحرمان جذور تتوحش، تعربش في القلب، فلا يرى أو ينبض بغير من يحب.

– يعرف الرب أنه أبدع صونيا من أجلي، ولن أعصي ما أمر به قلبــي.. قال أشيل للبطريرك الثائر وهو يوبّخه.

وأشيل لم ينتظر قرار البطريرك.. قص شعره وخلع ثوبه، واستنكف عن واجباته. ولزم من يحب... والحسناء اليونانية فضّلت المنذور لله على شباب عرب ويونان تمنوا

رضاها.

حوّلت عيون الحسد حكاية عشق الراهب والحسناء فسقا وفجورا، وعلى ألسنة الغيرة أضحى عارا وصَمَ كهنوت الأرثوذكس.

طردوا أشيل من الرهبنة.

وأنا لم أنتظر.. وقفت أمام ذيميانوس وطالبت بتحلّلي من قسم الكهنوت.

كان مطلبــي عادلا.. قلت إذا سمحوا لراهب يوناني، من أعلى مرتبة كهنوتية، بالتحلل من قسمه، فلن يعنيهم بالتأكيد أمر كاهن عربــي بسيط مثلي.

حزين وحائر أصغى ذيميانوس.. ثم طلب بعض الوقت.. قال نصلي كي يهدينا الله إلى توليفة لخروجك، تحفظ ماء وجه الكنيسة، وتبعدك عن المعصية.

تلهو الأقدار، تعبث بالبشر، تتسلى بحيرتهم والخوف مما تخبىء؟!

لم يتصور أحد أن زوبعة عشق أشيل وصونيا ما زالت تلف، لتعود أكثر عصفا فتقتلع ما حولها، وأن غرام راهب يوناني، سيحدد مصير كاهن عربــي.

ذاك العام منيت الطائفة بنكسات توالت، وهزت

مكانتها.

فضيحة جديدة على صلة بالأولى، سدت طريق خلاصي، زلزلت أركان البطركية، ولوّثت سمعة الطائفة.

ممرضة يونانية عزباء. جميلة، وبالمصادفة هي خالة صونيا، أشرفت على تمريض أرشمندريت روسي في دير المسكوبية في عين كارم، أصيب بفالج [51] بسيط، وأقامت معه.. والعلاج طال، واللغط جاوز البلدة، فتدارك المسكوبــي خطأه بما انقلب فضيحة مدوّية.. وكما في المثل. "إجا يكحّلها عماها" منح الممرضة بيتا موقوفا للكنيسة لتترك الدير.. قال. "مكافأة لتفانيها في خدمتي وتحملها مرضي".

أكان ما فعلته تلك اليونانية انتقاما من بلدة لاكت سيرتها؟ أم طمعا في ثراء سريع تعود به إلى بلادها؟ الله أعلم، لكنها حوّلت بيت الوقف خمّارة، ومجلس انس لكبراء القدس، سهر وغناء وكاس وطاس لم تغب صونيا أو أشيل عن ليلة منها.

نفى ذيميانوس أشيل وصونيا إلى اليونان.. فانتقم الأرشمندريت الروسي من قراره بأن تمادى في غيّه لإحراجه، والعداء بين الروس واليونان كبير منذ انفصال كنائس المسكوب عنهم، أجّر البيت الأحمر، الوقف التابع

للجمعية الروسية، لفخري النشاشيبـــي فأسكن فيه عشيقته اليهودية.

– الأفضل، للمحافظة على ما تبقى من هيبة الكهنوت أن تبتعد عن البلاد حتى ينسى الناس أشيل والمسكوبـــي. ثم.. البعد امتحان لحقيقة مشاعرك، وربما دواء لها.. وحين تعود يكون الله قد ألهمنا ما فيه صالح الكنيسة.. الآن لن يحتمل الأرثوذكس فضيحة خروج كاهن آخر ليتزوج.

لا ينتهي عشق غير عادي بفرمان، لا ديني ولا دنيوي.. فلا سلطة لغير الخالق على قلوب تنبض بهوى جارف.

"وجهك يا رب أطلب.. لا تحجب وجهك عنّي".

تركتك في رعاية جدتك لأمك، وأبحرت أطلب خلاصي في دير بستان العذراء، فوق قمة جبل أثوس اليوناني، متوحد يراقب البحر، زاهد يتعبد لخالقه، يسبّح بترانيم الإعجاز صبحا ومساء.

صورتها سبقت رحيلي.. سكنت كهوف تبتلي، تجلّت في صلاتي.. لوحة على جدران الدير.. تعربشت اشجارا تحرس البحر.. غطىت صفحة الماء. وعاجز عن الانقطاع لطهري.

"الرب نوري وخلاصي ممن أخاف؟ الرب حصن حياتي ممن أرتعب".

البقاء بين نسّاك عابدين أثقل صدري، زهدهم زاد ذنوبــي. عدت إلى القدس لأتحلل من قسم قطعته على نفسي فخذلتني قدرتي، ونذر لأمي حمّلني ما لم أطق.

- أيها المبجل.. نفسي تدفعني إليها وعاجز عن ردعها.. سنوات وأنا أقاوم رغبة المعصية، ولا مجال لاحتمال أكثر، يراودني الإغواء كل لحظة.. وستتحمل ذنبــي يا عظيم الاحترام.

- بعد تفكير طال، واستخارة الرب في مصلحة الكنيسة، والتشاور مع رهبان أخوية القبر المقدس، هدانا الله إلى قرار نأمل أن يكون فيه الخير، واعلم أن مصلحة الكنيسة مقدمة على أي اعتبار. توصلنا إلى أن فضيحة ثالثة ستقضي على سمعة كهنوتنا، وتقوض كنيستنا.. وعلينا أن نجنبك معصية الزنا مع تلك المرأة بعدم حرمانك منها، والزنا هو أعظم الخطايا عند الرب.. حرّمته الوصايا العشر والنواميس جميعا، وفي شريعتنا هو السبب الموجب للطلاق.. ولأن قوانين الكنيسة لا تجيز زواج كاهن أرمل، وظروفنا لا تسمح بإخراجك من الكهنوت.. فنحن محكومون بأهون الشّرين، فاجتمع رأينا على أنه رغم

قداسة آباء الكنيسة، واضعي قوانين الكهنوت، إلا أنهم بشر واجتهدوا، وربما أصابوا أو أخطأوا، ومخالفة تفسير البشر، مهما علت منـزلتهم وتعمّق علمهم، أهون من مخالفة شرائع الرب، وبالتأكيد أخف ذنبا وأقل معصية.. ويشهد الله أن هدفنا من زلّة عظيمة كهذه، منع فضيحة جديدة تطال كهنوتنا، وأن محبتي لكنيستي هي الدافع الوحيد لارتكاب ذنب عظيم كهذا.. إنها المرة الثانية أرتكب فيها معصية من أجلك. كذبت أمام العثماني لأنقذ حياتك.. واليوم ساسمح بزواج كاهن أرمل لحماية الكهنوت، ولأمنع خطيئة الزنا.

ركعت أمام كرسيه وقبّلت يده.. قرر ذيميانوس مصيري، وعجزت عن الرفض.

– الشرط الوحيد أن تقسم على الكتاب المقدس، أن يظل الزواج سرا لا تعترف به لأحد، حتى ابنك، لا يظللكما سقف واحد، ولا يضعف أحدكما أمام قسوة الأقاويل وظنون البشر، والصبر على الظلم وظن الناس يمحو الذنوب.. وصحيح أن المرأة لم تنجب من زوجها الأول لكن عليك بالحيطة.. لن نحتمل فضيحة أكبر.

في دار ذيميانوس عقد زواجنا، والإشبينان [52] مدبرة المنـزل وزوجها اليوناني.

بررت بقسمي فلاكتنا الألسن.. وأضاعك همس الظنون والأقاويل وكتمان الحقيقة.. كثيرا راودتني نفسي أن أعترف لك.. بل وأن أخرج إلى الشوارع صارخا بأننا زوج وزوجة.. فيردني قسمي... فكرت برحيلنا عن القدس لنستريح.. فلم أجد عذرا اقنعك به، وردني ما اعتقدت أنك سعيد به، مدرستك وأصدقاؤك، وأنه الصواب لك، تحملت نظرات الشك بل أدمنتها.. وحين تعتاد أمرا تقبله، ويسكت عنه الآخرون باعتيادهم عليه.. بقيت معك لعلك تسعد، ولم أعرف أن روحك كانت قد هجرت المدينة في غفلة مني.

القدس أضاعتنا لأنها تشبهنا، مدينة مثلنا بوجهين.. دروبها العتيقة تصل أبواب الخلاص.. تنشد الغفران في كنائس، وأديرة ومعابد وزوايا، ومساجد وكنيس وتكايا.. وتفتح ابواب سورها على ملذات تقود إلى ضلال.

هل شفيت روحي بجانب من أحببت؟ إلى حين.. ثم تاهت معك في دروب حيرتك.

من أوراق الخوري متري الحداد
لا تاريخ عليها أو ترقيم، كأنما كتبها قبل مذكراته وأضافها.

حائر يا بني.. بأية وسيلة يمكن أن أصل إلى قلبك وعقلك؟

ولا أدري أي الأسئلة يشغل بالك، وأي أحداث خفيت عليك، لأكشف لك منها ما تجهل؟ ولو علمت لكانت كتابتي إليك أكثر ترتيبا.

أفكاري مشوشة، لذا سأكتب ما يجول بخاطري.. ليست شهادة للناس، ليشغلني تسلسل الأحداث والزمان.. هي رسالة إليك دون سواك.. وسأتناول ما أعتقد أنه يحيرك، ويؤلم نفسك، وأشرح بعض قضايا كبيرة شغلتني عنك.. حديث والد مجروح إلى ابن معذّب.

وأول ما يجول بالخاطر سؤال لا يفارقني: لو لم أنغمس في قضايا البلاد، وصراع الطائفة، هل كنت أبا أفضل؟. ولماذا قدّمت مسؤوليتي العامة على واجبـي

كأب لطفل يتيم؟

لا جواب أقنع به نفسي قبلك.. لأنك.. حين تكون في مركب يغرق، والبحر يتلاطم من حولك، ثم بسحبك الموج العاتي لتغرق مع الآخرين، فكل ما تفكر فيه، هو النجاة بنفسك، والوصول إلى الشاطىء.. لن تتوقف لتختار من تنقذ، لئلا تضيع وإياهم، لكنك تجاهد ليسلم من تعلق بك، ومن يتشبث بالنجاة مثلك.. وفي صراعك على الحياة لن تستدير لترى وجوههم.. بل تتقدم وتلاطم لتنجو وتنقذهم معك.. فقط.. حين تصل الأمان، تتفقد من تخلف أو سقط منهم.

ويا لحسرة روحي، كنت أنت من أفلت مني وضاع.

كل ما أعرفه في لحظتي هذه، أنني أريد أن أكتب إليك حديثا من قلبــي، لأنك قطعة منه.. لعلك تغفر زلة انشغالي عن تفاصيل يومك، وادراكي متأخرا أن التفاصيل الصغيرة، تصنع الحياة، وتشكل النفس، لكن.. لعلك تقدّر يا بني، أن تاريخا جديدا كان يكتب للبلاد، ونضالا مصيريا تخوضه الطائفة، ولم تسمح لي نفسي أن أكون خارج الأحداث.. واعتقدت أن رعاية جدتك لك هو الصواب، دون تقدير لجرح الوحدة، واثره على نفسك.

وما يدمي الروح ويحزن القلب اعتقادك بأن العشق

شغلني عنك.. وشهواتي دحرت واجبــي نحوك.. ولا تدري أن القضايا ذاتها سلبتني منك ومنها.. لكنها قبلت بنقائصي.. رضيت بفتات وقتي.. وتأكد أنني لم أكن خالصا لها يوما.. لكنها تغض الطرف عن غيابــي، بلا عتاب أو لوم تحتضن عودتي.. تلــمّ اغتراب روحي وتهدهد قلقي.. لم تطالب بوقت لا أعطيه! تمسح لهفتها الحرج من غيابــي.. وهي الجميلة بين النساء، المتفرِّدة باللهفة إلي.. تحملت شك العيون، وحرقتها ألسنة السوء دون تذمر أو اعتراض.

هل تعرف ما يعنيه لرجل مجبول بالقلق، أن تسكن امرأة إلى حضنه؟ تحتمي به، وتعتقد أنه عالِم وصالح وبلا أخطاء؟!

كثيرا تحلّق بــي الأسئلة.. قطيع خراف مذعور يفرّ أمام ذئب جائع تضيع روحي مني.. ومنها.. وبصبر أيوب، وبلهفة الشوق تستقبل عودتي.. في كل مرة.

هل كانت تجربة حب غير عادي ستنقذك من ضياع نفسك؟ هل جربت الحب يا بني؟

سؤال تأخر كثيرا.

كتمته وأنت تقول إنك اخترت زوجتك.. قلت لعلها طريقته في الحب كما في أمور حياته.. يقبل ما تجود به

الحياة بلا لهفة أو اندفاع.. لم أعلن اعتراضي.. ابنة رجل صالح هي، وإن كانت أمها قادرة متسلطة.. قلت لعلك تسعد معها فتصالح دنياك.

طريقة تعاملك مع الأمور خدعتني.. وكثيرا أتساءل؟ كيف فقدت رغبة الرفض والتمرد؟ واستسلمت لرياح الحياة؟

أذهلني ذاك البرود وعدم المبالاة في أول يوم لعملك في مكتب البريد.. صديق لي دبر وظيفتك.. قبلتها، حتى لم تسأل لماذا اختاروك دون أن تتقدم بطلب؟! هل خامرك الشك في أنهم فعلوا اكراما لي فصمت؟ وأنني قدمت الطلب عنك؟ هل تخشى الأسئلة لأنك تكتفي بإجابتك عنها.. لنفسك؟

خرجت مبكرا على غير عادتك.. تجاهلت أن تخبرني.. موقف جرّح نفسي أكثر.. أدركت أنك غير سعيد بما رتبته لك.. ولم أكن أستطيع غيره.. وأعرف أن توقعاتك ببعثة دراسية مثل بعض أبناء الطائفة خذلتك، لكن علاقتي المضطربة بإكليريوس اليونان، وتحصيلك العلمي المتدني، لم يسمحا بخوض معركة لابتعاثك على نفقتهم.

لماذا اخترت زوجتك دون كثيرات من بنات الطائفة؟ سؤال لا أعرف جوابه.. هل أحببتها؟ وفي محاولة إرضائك

خشيت أن أسأل.. أفرحني زواجك لعل روحك تستقر معها.. وقدمت ما في وسعي لتسعد.. فسحبك زواجك إلى مزيد من ضياع.

كثيرا صليت لينعم الله عليك بالخلف.. ألا تشقى بوزر أبيك وجدّك.. أن ينير دربك ويرزقك ذرية صالحة. فهل كان سبب تسلط زوجتك، وإلسيجارة التي لا تفارق شفتيها، وعصبيتها، حرمانها من الأمومة؟ لكنها إرادة الله! لا تفسير لها، ولا اعتراض عليها.

وأعتقد، والرب وحده يعلم، أنه لو ربط بينكما حب حقيقي لما تبعثرت حياتك!... لا يا بني.. غير صحيح. فحين تسلط الحب على عائلتنا بعثرها.. ولا أكتب هذا معتذرا، لأن قصتي معها تدبير أقوى من إرادتي.. وإلا فكيف لامرأة أن تزلزل وجدان كاهن؟ ومن النظرة الأولى؟!. ولم أكن يوما ضعيفا أمام شهوة أو غريزة.. ولم يعرف عني سرا أو جهرا ولعا بالنساء.. وصدق ما سأروي.. ما حدث اشبه بمعجزة.. غرائبية ولا تفسير.. شيء لا أدريه امتد من وجه الصبية وصعقني كبرق؟ دخلني وكبّل إرادتي، فكتمت ما هو خطيئة.. الاشتهاء الذي نهانا الرب عنه.. حزن وجهها زادها جاذبية واحتلني، وسحر من أسى عينيها سكنني.. أي وصف لمشاعر داهمتني صاعقة، غرست امرأة في عظامي، فسرت مع

دمي، والتحمت بجسدي حتى لم أعد أميز ما بقي منه لي، وما صار لها.

ليست شهوة جسدية ما يدفعني إليها.. هي رغبة جارفة في أن أكون معها، وأن يظل رأسي فوق وسادتها.

أما جدّك الضائع في بلاد البلشفية، فكل ما أعرفه، أنه غادر البلاد إلى ديار المسكوب، قبيل دخول الجنرال أللنبــي إلى القدس.. تلك حادثة هزت البلاد، ولولا رحمة الله، وحكمة رجال الملّتين، المسيحية والمحمدية، لاشتعلت فتنة طائفية عارمة، لم تبق ولم تذر.. سأشرح لك الواقعة لاحقا.

قبل اندلاع ثورة البلاشفة الحمراء [53]، وصلتنا أخبار ثورات وقلاقل في بلاد المسكوب، فسافر جدّك إلى ديارهم يبحث عن صبية تعلق بها.. روسية شقراء فتنته.. سائحة وصلت القدس، تاجرة شابة.. جمعهما هوس غريب بالأساطير، وإيمان بأقدار وغيب ونجوم.. حب بدأ بالتعامل.. والحديث واللقاء يفتح أبواب القلوب فتتآلف.. والتجارة بينهما ازدهرت إلى حين.. تمده بالأيقونات والكورال والأحجار الكريمة والماس والمطرزات، ويرسل إليها الصدف المحفور وخشب الزيتون وزيت الزعتر المقطّر.

أكان ينوي الارتباط بها؟ هل وافقت على هذا؟ أم خطفه وهم الحب؟ الله أعلم.. اندلعت الثورة البلشفية الثانية فانقطعت أخباره.. ضاع جدّك شهيد هواه.

وأنت.. حملتك غربة نفسك إلى دروب تهت فيها وحدك، وحين انتبهت وعدت لأبحث عنك، كنت قد نأيت كثيرا، وأضحت المسافة بيننا أكبر من اللهفة، ومن عودة متأخرة.

منذ مولدي في السابع عشر من الشهر السابع عام وعالمنا يهتز بأحداث كبرى غيرت البلاد والعباد.. هو عام الأحداث الكبرى، لا في فلسطين وحدها، بل في بلاد الشام ومصر والعالم.

وقدر أبناء جيلي أن نعيش ألف عام في ستين أو سبعين كتبت علينا.

والدي.. جدّك عيسى بن برهوم الحدّاد، فيلسوف بالفطرة. حفظ الشعر والأمثال وقصص التراث.. صادق شيوخ المراكشية في حارة المغاربة، يكاد لا يفارق مجالسهم فتغيرت أفكاره، وجلّهم من جماعة الشيخ ابن عربـــي إمام المتصوفين، فشغلته الغيبيات، التواصل والوجد الروحي، وآمن بها مثلهم.

ورغم عمل جدّك في المحكمة الكنسية تمسك بتجارته

الأولى.. الغلال.. آمن أنها بركة وسعد.. نقلها من سهول حوران وشرق الأردن إلى القدس، على الدواب ثم في سكة الحديد، وصدّرها إلى تركيا ومصر.

ورغم أنه في تعاليمنا "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان"، لكن حروب العالم ومنذ الأزل، نشبت من أجل الخبز! ولعبت الغلة دورا بارزا في تاريخ بلاد الشام ومصيرها.. وما إصرار الفرنساوية على انتداب سوريا إلا كونها خوابـي الحبوب، وسهول حوران مخازن لها لا تنضب.. ولبنان منفذ السفن تنقلها إلى بلادهم.

تجارة الحبوب جعلت جدّك قديسا في يوم، وصعلوكا في آخر.. وليسامحني الرب، فهذا الوصف لا ينقص من احترامي لأبـي، ولا أخالف به وصية إكرام الوالدين.. لكن لم أجد كلمة أخرى تنطبق على بعضٍ من أفعاله.

إتقان جدّك للعربية، واليونانية والروسية والتركية، قراءة وكتابة، جعلته همزة الوصل، وكاتم الأسرار بين ذيميانوس ومدير مال القدس، أحد أكابر العائلات المسلمة، والمسؤول عن رعاية أموال كنيستنا.. وبين الثلاثة أسرار مريبة، وسهرات وصفقات وعقود شهدت عليها دار ذيميانوس في حارة السعدية، بعيدا عن مقر البطركية.

مثل لا يبارح خاطري يتداوله المقادسة "مال الوقف

بهدّ السقف"، والأمثال حكمة الشعوب، وخلاصة تجاربها.. فهل ندفع- أنت وأنا- ثمن ما اقترفه جدّك مع ذميانوس ومدير مال القدس؟

كثيرا طالت الأقاويل شراكة سرية.. من رصيد الكنيسة في بيت المال اشتروا، بأبخس الأثمان، أراضي الفقراء والفلاحين، من معسر أو محتاج، وباعوها لمن يدفع، بعد أن سجلوا أفضلها باسمائهم.. وليسامحني الرب، علاقة جدّك بهما نقلت حالنا، عرفنا الثراء ورغد العيش بينما الجوع والفقر يجلل ما حولنا.

جدّك، المولع بقراءة الغيب والتنجيم، آمن بأن للأرقام سطوة على البشر، وبأثر حركة الأفلاك على مصائرهم، لهذا فرح فرحا عظيما يوم ولدت في السابع عشر من الشهر السابع 1892.

شرح أسبابه بحسبة غريبة عجيبة، قال: تكرّر الرقم سبعة أربع مرات في تاريخ ولادتك.. ظاهرا في اليوم والشهر، ومضمرا مرتين في السنة.. خذ الرقمين الأولين من عام مولدك.. إطرح اثنين من التسعة فيكون الجواب سبعة.. وإذا طرحنا الواحد من الثمانية في الرقمين الأخيرين كانت سبعة.. والسبعة هو رقم الحظ وسعد الطالع في معظم معتقدات البشر.

أما دلائل الحظوة والتميز لحياتي فأمران لم يتزعزع إيمان والدي بهما، وحتى خذلته مجرياتها.

أولهما، منام ساطع كرؤيا جاءه قبل ولادتي بأسبوع.. وكثيرا رواه حتى صدقته مثله. قال: رأيت نفسي أمام جامع عمر في بيت لحم أقضي تجارة، ثم فجّ نور ساطع من باب كنيسة المهد الصغير، فاضاء بيت لحم وما حولها.

في تفسير صديقه الشيخ المراكشي: إنما هي بشرى وعلامة، فمولودك ذكر، وسيشع نورا ومعرفة على الناس أجمعين، في القدس وجوارها، وسيكون له شأن عظيم.

ولم تكن علاقة جدّك بذيميانوس قد توطدت بعد، ليعرف أن من سيخرج من الباب الصغير بطريركا بعد سنوات قليلة، سيحمل له الثراء والمكانة.

الدلالة الثانية حدث جلل أعاد تفاصيله حتى حفظته مثل سابقه. قال: بينما أنا في سوق حيفا لتجارة، انقلبت أحوال المدينة.. وأغلق تجار كثر حواصلهم ودكاكينهم فأقفر السوق.. وعرفت أن زعيم طائفة البهائيين في البلاد مات.. وحيفا مقر لهم، وطائفتهم فيها كبيرة. وجلهم تجار أثرياء.. وحين عدت إلى القدس وعلمت بمولدك، تأكدت من الوقت، فتطابقت ساعة الوفاة مع ساعة ولادتك.. ومعروف أنه في الساعة التي يموت فيها زعيم كبير، وتلد

فيها امرأة من بلاده طفلا، يأخذ دوره ومكانته، ويصبح زعيما مثله.

من قال هذا؟ وأي فكر آمن به؟ ومن أي بلاد وصل إلى جدّك، وكيف ترسخت قناعته بمثله؟! لا أدري! أقرأه في واحد من كتب غيب كثيرة يقتنيها؟ أو من كتب حضارات شرقية تؤمن بتناسخ الأرواح؟ أو سمع به في تجواله بين سهول حوران وجبال لبنان وقرى الدروز؟

مهما يكن، ولأنني بشر، مجبول بوهم الاصطفاء والتميز، صدقت أوهامه.

جدّك لم يتوقف عن استقراء الدلالات ليثبت تميزي.. دأب على البحث عمّا يؤكد الدور العظيم لوجودي، ويؤمن انه قادم لا محالة.

قال: في عام مولدك تغيّرت حياة الناس.. بدأ القطار أولى رحلاته بين يافا والقدس. مسافة يقطعها في ثلاث ساعات، وتوقف السفر بعربات ألمانية تجرها الخيول، ورحلة مضنية تستغرق أياما، وطريق ضيق متعرج رصفه الأتراك بالحجارة ليمر فوقها موكب قيصر النمسا في حجه إلى الديار المقدسة.. ودخل التلغراف إلى بلادنا، وتدفقت مساعدات المسكوب للطائفة في عموم بلاد الشام.

منعش للروح الاعتقاد بأنك اصطفيت لدور عظيم.. أن

وجودك نعمة للبشر، لا بد وأن يمتنوا لها.

أردت أن أصدق اختلافي.. بدأت البحث عن أحداث في عام مولدي.. الآن يبدو الأمر مضحكا، بل، ويثير الأسى، لكنه أدخل السرور إلى قلبـــي في حينه.

توقف صديقي رفيق سلّوم عن عزف طقاطيق سيد درويش الاسكندراني، وهمس: هذا الفنان الموهوب مثلك، ولد العام 1892.. قلت ضاحكا لعله عام العظماء.

عزف رفيق على عوده ختم في احيان كثيرة، جلسات السياسة والأدب والتاريخ، في مجلس معلمه وصديقه الشيخ عبد الحميد الزهراوي.. ربما لهذا، تعلمت العزف سرا بعد عودتي، وعلى يد اشهر عازفي العود في البلاد.. لكن ثوب الكهنوت حرمني من هواية أحبّتها نفسي، كما اشياء أخرى كثيرة.

هل تضحك من أحلامي وقد انتهت بــي كاهنا صغيرا، في بيت وقف؟

هي حكاية عذابــي يا رفيق.

أتساءل كثيرا، هل كنت سأحقق أحلام جدّك لو استبدلت ثوب الكهنوت برداء المحاماة؟ أكان استقر معنا، ولم تشرد روحه إلى امرأة صغيرة ضاع معها في بلاد المسكوب؟

العنفوان سمة لاغتراب الروح.. والجموح عنوان الرفض لما هي فيه.. والتمرد يشبه جدّك.. ولا دواء للهوى إن تشابهت فيه أرواح العاشقين.. لا تفترق نفوس تشابهت.

وميلادة تشبهني، فرس شاردة مما يطاردها، جامحة أمام ما تخشى.. تنفلت مما يقيدها إلى أكوان بعيدة.. رأيت هذا في عينيها فسحبني إلى غربتها.. عيناها حمامتان تبحثان عن لا شيء، طرت وراءهما.. فتهت في عالم لم أعرف طريق عودتي منه.

و"العين سراج الجسد".

أما أمك يا رفيق، رحمها الله. فأشبه بملاك.. هادئة.. قانعة.. لا تغضب، ولا تثور، سكونها المستسلم يزيد قلقي ويشعرني بالذنب.. ومؤلم أن تعيش رازحا بوطء ذنب لا تدريه.. ثباتها ظل يزيد ترنحي.. وبعيدة هي عن حيرتي وهواجس رأسي.. ابنة عائلة على خلق ورخاء حياة.. فاضلة تربت على العطاء والمحبة.. ومتعب أن تعيش مع قديس، بينما الشيطان يلوح بالغواية.

وميلادة نقيضها.. هاربة من نفسها وما حولها.. مثلي لا تستقر.. عاصف غضبها.. طفلة تسعد بكلمة وتكتفي بالحب.. ربما كانت ضلعي المأخوذ مني في غفوتي؟

حيرة عينيها، والرغبة القاصرة عن الهرب إلى فضاء متوحّد ساكن تهدأ فيه روحها، تشبهني.. تتمنى لو تصل إلى خلاص.. وروحي مثلها مقصوصة الجناحين.

كثيرا حاولت طرد حزنها من عقلي، فامتد وسكن روحي، صليت وصمت، هربت من التجربة إلى التعبد والتبتل، فتغلغلت روحها في جوانحي أكثر.

تسكن الشياطين مع الملائكة في صوامع النسّاك، تنتهك مغارات تعبدهم.. تشن حرب إغواء لا تتوقف.. ترانيم تسكب الخير، وأخرى تزين الشر، واسلحتها شك يقود إلى معصية.. فأي إغواء زلزل روحي؟ وزعزع إيماني لحظة أمسكت يد زوجها لأدور بهما حول المحراب، وأعلنهما زوجا وزوجة.

في عام مولدي ولد أكثر من صديق، فتقاطعت حياتنا ورسمت الآتي من عمري.. حملتني إليهم خيول السفر، وسكك الحديد، وسفن نهبت الماء بأحلام تطاول السماء.

وأحلامي تلاشت، وأمالي تكسرت وضاقت حتى منـــزل وقْف في البلدة القديمة.

تشقى الروح بغربتها إذا اقتنعت بتميّزها.. وهم يتراكم، ثم يحلّق بصاحبه إلى عالم ليس فيه غيره، وكلما ارتفع، نبتت الحواجز مع الآخرين، وانفصل عن عالمهم.

– لماذا وافقت على دخولي الكهنوت وأنا وحيدك؟ فتعذبت وأشقيتني؟

لن أنسى انكسار لحظته وهو يلملم شظايا حلمه:

– راهنت على طموحك.. أن مثلك لن يرضى برتبة أدنى من اليونان.. وهم لن يسمحوا لعربـــي أن يترقى، فيدفعك إباؤك إلى التمرد.. تصورتك تلقي الثوب في وجوههم، وتتحلل من الرهبنة.. بل كنت على يقين بأنك ستفعل، لأنك لم تولد لمثله.. أردت أن تخرج بعذر كبير يقبله الرب!. هكذا تفي أمك بنذرها! وتتحلل أنت من قسمك لسبب كبير لن يغضب الله، فهو يعرف أن العرب أصل كنيسته، ولا يجوز حرمانهم فيها من مراتب الكهنوت العليا.. وهو اختار بلادنا موطنا للمسيح، ولم يرسله في اليونان.. وحتى لو تأخر خروجك، لن أحرم من الذريّة، فاليونان سيجبرونك على الزواج لمنعك من ترقية تشترط العزوبية.

لو رفض جدّك دخولي الكهنوت لتغير قدري! لكنه ضعف أمام إصراري وبكاء جدتك.. أو ربما رضخ خوفا من عدم الوفاء بنذر أمي.. واجهته بهذا فرفض وأنكر، وأقسم أنه لم يعلم بنذر قطعته أمي على نفسها حتى ولدتني، أنه لو صمد جنينها وعاش، وكان ذكرا، فيرتسم

كاهنا خادما للرب، ولو كانت بنتا فتسمّيها مريم.

وزفر جدّك حرقة طعنت قلبــي، والحسرة في كلماته أوجعت روحي:

- لكن.. منذ عدت من أنطالية أدركت أنك رضحت لما وضعت فيه، ولن تغيره.. أن فتيل التمرد لم يشتعل فيك يوما.. كانت فرصة خروجك، والعودة بشهادة في علم أخر أمام عينيك، فأشحت عنها.. وقبلت بما رسمناه لك. وبما تضعه الأيام أمامك، لا تبحث حولك ولا تحاول.

طويلا تمزق قلبــي برأي سمعته منه أول مرة.. كأنما تمرن على ما قال، أكمل بلا أسى:

- حتى ذيميانوس اعتقد أنك ستترك الكهنوت.. سأل عنك وقال مبتسما: لا حرج لو فكر ابنك في دراسة أخرى، أو وجد وظيفة أو مهنة في تركيا ولم يعد.. كثيرون فعلوا.. ويعرف الجميع أنه يتعذّر على الكنيسة السفر لملاحقة من تخلى عن رهبنته.

لو علمت بنصيحة ذيميانوس في حينها، أكنت تركت الكهنوت إلى عِلْم آخر؟. كانت هدية منه وصلت في غير وقتها.

- لم أعتقد بضرورة أن أخبرك.. كنت واثقا أنك

ستترك الكهنوت، دون طلب أو نصيحة أحد.. كان هذا هو الصواب، وكان عليك أن تفعله.. ومثلك يجب أن يختار الصواب.. أنت مخلوق لما هو أكبر بكثير من كاهن عادي.. لكني خسرت الرهان على طموح ليس فيك.

خطأ جدّك أنه تركني لنفسي.. حتى في ما أراده وتمناه لي.. أسكته إيمان عجيب بأنني سأختار ما يريده هو.. وكثيرا خذلته، وكثيرا ظلمني.. فكيف أعدت معك ما آلمني وأشقاني منه؟

لم يطل مقام جدّك في القدس بعد ليلة المكاشفة.. لحق بالصبية إلى ديار المسكوب وانقطع أثره.. ماذا وجدت فيه تلك الروسية الشابة؟ كان سعيدا بمحل السنتواري، احتكر بيع زيت الزعتر البري المقطّر، تخصصت فيه شابة يهودية، عشيقة زعيم مقدسي نافذ، وهب لها مزرعته الواسعة.. قوارير صغيرة لم يعد حاج مسكوبي إلى بلاده دون زجاجة منها.. أوهام طبية حول قدرة الزعتر على شفاء الأوجاع، فكيف بزعتر البلاد المقدسة، ومن جبال القدس؟!

والمسكوب مثلنا، خرافات كثيرة تملأ عقولهم، العلاج بالأعشاب الطبية، والأشباح والسحر والجن. فلا غرو أن سيطر عليهم راهب مهووس مثل راسبوتين.

ولكن ما يحيرني وأتفكره دائما ولا تفسير له، هو نجاح الثورة البلشفية بينهم؟ كيف تفشت الشيوعية بين فلاحين بسطاء من المسكوب ودول البلقان؟! كان إيمانهم عميقا وأقرب إلى الدروشة! وطقوسهم أشبه بخزعبلات! فكيف انقلب إلحادا وإنكارا لوجود الله.. الكنائس في بلدانهم أينما استدرت ومشيت، كدسوا فيها ثروات طائلة. زينوها بالذهب والأحجار الكريمة، والأيقونات والرسوم، وزخرفوا بناياتها من الخارج تحفا معمارية وفنية.. وفاق عدد حجاجهم قبل الثورة بأربع سنوات فقط، عشرين ألف حاج، ساروا حفاة فوق تراب الأرض المقدسة إلى الكنائس والمزارات، وكل يتكىء على عصاه.. ثم.. بعد هذا كله ينكرون وجود الله؟ هل تزعزع إيمانهم؟ أم هو الخوف والبطش؟

الخوف هو العدو اللدود للإنسان.. وقهره يحتاج عزما وجرأة وثقة بالنفس.

هل أحبت الشابة المسكوبية جدّك؟ أتراه وجدها؟ أما زال حيا يرزق وراء ستار حديدي لا يمكننا تجاوزه؟

من أوراق الخوري متري الحداد

في سنة مولدي تغيرت معالم القدس، عند طرف طريق ترابـــي إلى الشيخ جرّاح، صار لاحقا شارع صلاح الدين.. بنى الإنجيليون البريطانيون كاتدرائية سانت جورج [54]، ومعها بيت للحجاج الإنجليز، ومرابط للخيل عند سورها.. وشيدوا مقابلها أشهر مدارس القدس، مدرسة المطران، ومنها قررت أن تتخرج يوم رزقني الله بك.

تعاظم نفوذ الإرساليات في البلاد بما قدّم الأتراك من تسهيلات وامتيازات واسعة، أمر أضر بطائفتنا إذ تحوّل عدد كبير من رعيتنا إليهم.

والأرثوذكس كلمة يونانية، من معانيها "الرأي الحق، أو الصواب أو المستقيم"، وكنيستنا هي أول الكنائس في العالم، وأم الطوائف جميعها، حتى وإن ضعفت مواردها.

ويجبرنا الحق، ويفرض علينا الواجب، الاعتراف بفضل الإرساليات، وبأنها جلبت بعض الخير للبلاد.. اسهمت مدارسها بتعليم متميز، للصبيان والبنات، ومن مختلف الملل والطوائف، وسدت نقصا كبيرا في تعليم ابناء

طائفتنا بعد ثورة البلاشفة، وإقفال كبرى مدارس الروم، دير المصلّبة، وقفطين، والسيمنار الروسي، والجمعيات والنوادي، وتوقف ابتعاث ابناء البلاد المتفوقين إلى أكاديمية قازان وبلاد المسكوب.

تعددت الإرساليات، وتنافست على استقطاب الأرثوذكس، فأشتعلت حرب طوائف.. وكل يسعى للرسوخ والمكانة، وكسب ود الناس بتقديم الأفضل. ولأنها مدعومة من دولها الغنية، قامت بدور تنويري كبير.. ورغم ما يقال عن أطماع هذه الدول وأهدافها، نشرت خدماتها الوعي، وعلمت الشباب لغات العالم، والموسيقى والعلوم الرياضية، ورياضة البدن، وأنشأوا المعاهد المهنية، ومدارس المكفوفين، وملاجىء الايتام، ومستوصفات ومستشفيات. وأرسلوا البعثات إلى أوروبا وأمريكا. ومن مدارسهم تخرج كثير من رجالات فلسطين، المسلمين قبل المسيحيين.

وتعرف يا رفيق أن مسلمي بلادنا طوائف تتنافس فيما بينها مثلنا.. سني وشيعي، وحنفي وشافعي وصوفي وبهائي ودرزي.. ومن مجموع الطوائف والملل والأقوام ولدت القدس الجديدة.. بدأت بمجمع المسكوبية، ثم أحياء للعرب واليهود واليونان.

لا تشبه مدن ولدت في الاتساع والحداثة، مدنا عريقة

تلفّعت بأسوار تاريخها، وغلفتها القداسة.

المدن أجيال مثل البشر، ينفض الحديث عنه رداء قديمه.. شكلا وفكرا ورؤية.. ومثل عشب ربيعي مزدان بالألوان، ولدت قدس جديدة خارج السور.

لكن.. ما قلب حياة الناس في المدينة، القديمة والجديدة، وغيّرهم فكرا ومظهرا، هو دخول الكهرباء.

شعت أنوارها في الطرق، فهزمت ظلام الأزقة ووحشة الدروب والأسواق، سرقت من الرجال ليلا ستر عبثهم، فضحت تسللهم إلى الخمارات، وبيوت أنس تحتمي بأبواب تعرف دقات زبائنها.. فارقت الأشباح عقول الناس قبل طرق وأزقة سكنتها.. قتل النور رهبة الظلام، وإن سرق بهجة قصص الجدات، وأقعد الجنوح في مخيلات الصغار.

كانت القدس قبل الكهرباء، إذ يفرد المساء عباءته على سورها، تغازل نسائم الليل قناديل الزيت، ومصابيح الكاز فوق أبواب الدور وفي أحواشها، تهز فتائل الشموع واللامبات، تراقص مشاعل المناسبات والاحتفالات، فيرسم اهتزاز الضوء ظلال بشر وحجر، ويجمح خيال الرعب يستقرىء أساطير الأولين، عن أرواح هائمة في توالي الحقب، واشباح عسكر وبشر سالت دماؤهم غيلة أو ظلما، احتلت الدروب وسكنت الدور، فإذا جنّ الليل هامت تدق

الأبواب، أو تجر سلاسل قيّدت الخطو إلى حتفها، تبحث عن خلاص بثأر منذ ضاعت في الزمان صرخة "الهامة اسقوني".

وموحش ليل السكون في الدروب العتيقة، حتى يقطعه صرير عربات تهرب بالقادرين من ضيق المقدّس إلى براح المتعة.

وليل القدس قبل الكهرباء قيود ورهبة.. يجلل الصمت صفوف الحوانيت المغلقة، فيذرع التوجس أسواقا لفظت صخب نهاراتها وتسربلت بالوحشة.. والأضواء الخجولة تتراقص بالخيالات فتوقظ قصص الجن والإنس، وصراع الخير والشر في حكايا الجدات والأمهات.. كبرت الأجيال على خوفها من عامورة تجوب الشوارع، عجوز مريض يتربص بعابر وحيد، فيتكوم أمامه ويبدأ الأنين، يطلب النجدة والعون، ويستنهض نخوته ليحمله إلى داره القريبة، حتى إذا انحنى، قفزت العامورة على كتفيه "ودندلت" ساقيها وقهقهت لخديعته، ثم تأمره أن يلف بها المدينة.. لا تصغي لتوسلات رعبه، وترفض النـزول، تضربه إن تعب أو توقف، وحتى بزوغ النهار، فيصل داره فجرا معقود اللسان بالخوف منهكا.

وليل البلدة القديمة مقاه شعبية تعمر بالمصابيح،

وسهرات بريئة وأجساد مكدودة.. تنفض بأوراق الشدة تعبها، تتسلّى بالضامة والطرنيب والزهر والنرد.. وبحكواتي على الربابة فوق دكّة مرتفعة.. تلوّن قصائده حكايا الأسلاف.. تهدهد أمجادهم أحلام المتعبين، وتنفث قهرها بصيحات إعجاب بأبطال ثاروا على الضيم، تهلل، وتستعيد ما يروق نفوسا تجرّحت ببؤسها وظلم المحتل.

حارات قليلة في البلدة القديمة خطفت النوم من جفون مدينتها.. سترت بعباءة الليل متع اللهو والمجون.. وحدها كلوبات اللوكس أنارت الدروب إليها.

لأكثر من عشر سنوات انتظر ليل القدس الكهرباء فلم تصل.. أوقفها انتصار الحلفاء على المحور في حرب كونية أولى.. صراع بين منتصر ومهزوم دحر بهاء أنوار الكهرباء عن أرجائها.. حرب مصالح بين اليونان والإنجليز، في زمان تبدل فيه الحكام، وتغيرت الحسابات.

لم يعترف الانتداب البريطاني بامتياز منحه متصرف سنجق التركي لمستثمر يوناني مع بداية الحرب، لإنشاء شركة الكهرباء وإنارة القدس 1914.

الخلافة المهزومة رحلت، وحكومة الانتداب المنتصرة تنصلت من حق أقرّه عدوها، فمنحت امتياز جديدا لمستثمر انجليزي.

رائحة المال في كل الحروب.. صراع اقتصادي عطّل إضاءة مدينة الله، وفجر مشكلة دولية.

معركة حق وقضاء، ودعوى أمام محكمة العدل الدولية.. وطويلة حبال المحاكم.

وصلت الكهرباء إلى حياة القدس العام 1928.. بعد إقرار المحكمة الدولية بحق المستثمر اليوناني، فأسس شركة كهرباء القدس.

كنا قبل أن تضيء الكهرباء بيوتنا، إذ ينعس الليل مع مسائه، نهرب إلى مؤانسة القمر.. تعمر الأسطح والأحواش بسهرات عائلية، مع لوكس أو لامبة، نلعب الطرنيب أو الشدة، أو تعليلة تستذكر الأحوال.

الكهرباء أعظم اكتشاف بشري، بدأ معها عصر العلم، وإعمال العقل، تحرر من الأوهام، قلبت حياة الإنسانية فنبذت كثيرا من مفاهيم سادت، غيرت افكارا ومعتقدات، وحررت الإنسان من رواسب الأساطير والغيبيات.

طفلا في مدرسة مار متري، تبادلنا قصص العامورة، وجني يصادق بشرا أو يعاديه، وأشباح تجر أصفادها.. تدق أبواب الأزمنة.. تحتل ظلمة الشوارع، ترهب أزقة سكنتها منذ غابر الأيام، تجول في الأديرة والدور تطالب بالقصاص ممن غدر بها، وترعب من يقتحم عزلتها.

ابتسم جدّك.. تفكّر وضحك: لست صغيرا لتصدق. سأخبرك بالسر.. حكاية العامورة اخترعها الرجال لتقعد نساءهم وابناءهم عن ملاحقتهم، والتجسس عليهم.. والخوف من ظهورها في الأزقة والدروب ستر ما يدور في لياليهم، ومجالس شرابهم.. أما عن ركوب العامورة على كتفي الرجل، ليدور بها إلى أن ينهد حيله، فتفسير مقبول لخيانته، وعودته فجرا مهدودا، عازفا عن واجبه نحو امرأة انتظره ليلها.. عذر يثير شفقتها، ويبعد السخط والخصام وخراب البيوت.

هزمت الكهرباء خوف القدس فتغير أهلها.. نساء ورجالا.

والعمة تستنكر صحوي المتأخر، وتناديني من أسفل الدرج، لملمت أوراق الخوري بعثرها نومي، وأعدت الملف إلى خزانة المكتب، لأعود إليها كلما سنحت فرصة.

بنت اليهودية

بعد جولة في البلدة القديمة توقفنا أمام باب الحوش.. تأملت العمّة الطريق الخالي حولنا وتنهدت:

- هاجرت عائلات الحارة.. كل من عنده شباب طفش.. ذبحتنا السياسة، مع أن القدس زمان وسعت مللا وأجناسا، كل من يعيش فيها يعتقد أن الله يحميه فيبقى. أرمن وأقباط وسريان ويهود ومغاربة وعرب وعجم.. وعشنا مع اليهود جيرانا ثم انقلبوا علينا.. وظلوا أصحابنا وتمسكنوا حتى تمكنوا.

تفرّست وجهي في صمت.. تبدلت ملامحها، غضبت، خامرني الوجل:

- وأمك الهبلة صدّقت أنهم حبايب وسترت على اليهودية، وأخذتك منها وقالت بنتي.. وظلت تقول بنتي بنتي حتى ماتت.

- عمتي أنا راوية بنت عيسى.

- كأن هذا الوجه غائب عني؟ ندى بنت حبيب،

وافتحي الباب!.

مسامير الخوف شلّت حركتي واللسان.

صفقت باب الحوش فدوّى الحديد، ونهرتني: روحي انخمدي.. الله لا يقيمك.

وصادم اختلاط الذاكرة في لحظة ذهولها الأولى.. الأفكار بعثرت ليلي، والسكون مريب.. والأرق احتل حوشا ليس فيه سوانا.

أرتدّ عن بابها.

يثقل العمر بنمط لا يتغير، نوم ليل وصحو نهار.. تسأم الشيخوخة رتابة حياة طالت فتتمرد، تكسر قوالب النوم والصحو في ضوء وعتمة، فتوزّع سباتها غفوات قصيرة.

لا أحد يعرف عمر العمّة يقينا.. اختلفت فيه الروايات.. الثابت الوحيد هو يوم ولدت فيه، وحوش في البلدة القديمة سمع صرخة حياتها الأولى.

دلالة اسمها أكّدت يوم مولدها، فهي من زمان ظلت أحداثه السياسة، وتقلبات طبيعته، ومناسبات أعياده، السجل الوحيد للمواليد، ذكورا وإناثا، وتحدّدت أعمار بعضهم بدلالات أسمائهم، وفي الحاجة إلى شهادة ميلاد كان الفيصل الوحيد، تقدير الطبيب لعمر الأسنان.

وميلادة، يعني أن العمّة رأت النور في ليلة الميلاد، وبالتأكيد على حساب التقويم الشرقي، أي في السابع من كانون الثاني يناير.. وآية ذلك أن عائلتها من طائفة الروم الأرثوذكس، ممن يدلّون على الطوائف بأنهم أصل المسيحية.. ومثل عائلة أبو نجمة "الأرثوذكسية صحيحة الإيمان" لن تستبشر بليلة ميلاد الطوائف الغربية، وعلى حساب التقويم الميلادي.. ولن تسمي وليدتها تيمنا بليلة لا تعترف بها أصلا، لذا من المستحيل أن تكون قد ولدت في ليلة الرابع والعشرين من كانون الأول ديسمبر.

أما تحديد العام فظل معضلة، وموضع شك وتأويل: هل نسي المختار تسجيًل طفلة جديدة في قيد النفوس العثماني؟ أم تجاهل قدوم بنت في حارة مقدسية والعالم يخوض حربا كونية، ويعاني توابعها؟ أو ربما ضاعت أوراق القيد في اضطراب الأحوال وسقوط خلافة ودخول انتداب؟ حتى سجلات البطركية الأوروشليمية خلت من ذكر طفلة من طائفتها، ولدت في زمان ساح الخاص كله في هول أحداثه العامة.

والعمّة، في غياب اليقين، كان يحلو لها ربط سنة مولدها بأحداث البلاد الكبرى، وإن لم تثبت على واحدة. فتناقضت في رواياتها الأعوام، واختلطت الوقائع، ما خبرته بنفسها أو سمعته من آخرين.. لكنها، في ذلك كله،

ظلت تذهل سامعيها بمعرفة سياسية، وإلمام بالتاريخ وأنساب العائلات، وأسرار خاصة وقصص مثيرة عن "اكبر شنبات في القدس".

الدراية، وطلاوة الحديث، وخوض موضوعات تشغل عقول الرجال دون النساء، أشعلت الحسد، واستعرت الغيرة، وأثارت لغطا نسائيا لم يتوقف، بأن العمّة إنما تعيد ما يرويه الخوري متري الحداد فوق وسادتها، وتسمعه منه في ليالي عشقها.

كثيرا أصرت العمّة على أنها ولدت قبل الزلزال الكبير بقليل، فيبتسم الرجال قبل نسائهم.

وهي تحمل صينية صغيرة عند أسفل الدرج نادتني باسمي.

ونسائم الصباح محملة برائحة كعك السمسم والزعتر والبيض الحمّيم [55]، خالطها فوح زهر الليمون من الحوش.. وقادرة الرائحة على استعادة صور من قدس الطفولة غابت.. طبلية خشب يوازن بها بائع الكعك خطوه.. مستطيلة كبيرة ترتفع فيها حلقات الكعك بالسمسم.. يسابقه تحذيره.. راسك.. إوعى راسك.. ونظرات الدهشة تتابع قدرة صموده في دروب ضيقة، وعلى أدراج تنتهي عند أبواب المدارس، أو مجمّع باصات

باب العامود، وهرولة الركاب إلى مدنهم والقرى.

لأوراق العطرة في الشاي المغلي بالسكر مذاق لا ينسى.

– لم أجد صورا للزلزال الكبير.. ألم يصور أحدهم دمار الحارات أو فزع البشر؟. والناس تهيم بخوفها ولا اتجاه.. والأمهات يسابقن بالأطفال انهيار الدور.. هل ينسى الإنسان خوفه؟

– الخوف القوي مثل الحب القوي لا ينسى.. وإذا غضبت الدنيا غضبها فاجر.. وبعدين.. من كان عنده كاميرا؟!. ومن فاضي يصوّر؟! مصور زمان كان مات مئة موتة قبل أن يحضّر الكاميرا! اليوم.. الناس ماشية تصوّر وتحكي في سماعات التلفونات مثل المجانين.. طلعت الشمس فبدأت القدس تصرخ! لا تستغربـي؟! القدس مدينة ألله! يعني تصرخ مثل الأوادم. وكأني في حلم.. ركضت من الفراش. وقعت. والأرض تحتي كأنها خشخيشة في يد ولد يهزها بعنف.. لحظات وتوقف.. وبدأ كل شيء ينهار كأنه كرتون.. سمعت صراخ أمي، وقع إبريق الشاي من يدها وحرق رجلها.. أطفأت البريموس، سحبتنا وركضنا والدرج لا ينتهي، والدور والدكاكين تتصدع والناس تصرخ.. لا شيء يشبه ذاك الصراخ.. وأنا من

خوفي وقعت، رجعت أمي وجرّتني.. وضجة وأنين ووجع وخوف.. من ينسى صوت الحيطان وهي تتشقق وتتناثر؟ والنساء في قمصان النوم بشعور منكوشة يهمن بالأولاد أو يبحثن عنهم؟ سيّاح ورهبان وشيوخ وعسكر إنجليز، ولا أحد يعرف أين يهرب؟ الكل يزاحم ويدوس من يقع.. حتى أهل البلدة القديمة تاهوا عن ابواب السور! بيوت مهدمة، وسقوف كشفت السماء، وبشر ينادون الله من تحت الركام، كل بلغته.. وصلنا القيامة. وكأن ربنا انشغل عن الكنائس بالناس! يا ويلي على المنظر؟! الخوارنة بسراويل النوم، وجوههم يغطيها الدم، وينبشون عن مطمورين، والمدخل تصدع، وأعمدة الرخام تحطّمت وسدت المدخل.. قبل الزلزال كان فرجة!

وفي خلفيته قبة الصخرة قال المؤرخ أمام الكاميرا: أقوى هزة ضربت البلاد العام 1927، تمركزت بين نابلس والخليل فأضرّت بالقدس كثيرا. ردمت وقتلت مئات البيوت والأشخاص في أنحاء البلاد، وجرح وشرد مثلهم.. ولم تسلم بيوت الله.. تصدعت واجهة القيامة ومسجد عمر، وتشققت قبة الصخرة.

تطابق وصف العمّة ورواية المؤرخ يؤكد ما تصر عليه عجائز العائلة، بأن ميلادة كانت على صدر أمها يوم مات خالها، أعدمه الأتراك بالرصاص لهروبه من

الجندية.. أي أنها ولدت مع الحرب الكونية الأولى.. وفي واحد من العامين: ألف وتسعمائة وخمسة عشر أو ستة عشر، وأنها تجاوزت العاشرة يوم الزلزال الكبير، وتخطت عتبة الثمانين بينما اسابق الزمن إليها.

ندى بنت حبيب

لم يدر بخلدي أن تصوير وثائق تاريخية وبعض صور للقدس قديما، سيفتح صندوق أسرار العمّة.

والمصوّر يسابق رحيل الضوء عن الحوش، تابعت، بصمت واهتمام، نقاشنا عن دور الوثائق وارتباطها بأحداث الفيلم.

بعلبتين معدنيتين مستطيلتين عليهما شعار شركة إنجليزية للبسكويت عادت إذ غادر الفريق.

فردت العمّة حياتها في صور.

- استفيدي منها مثلما فعلت جريدة اليهود.

صفحة اصفرت بالزمن، طبعة قديمة لجريدة "هآرتس" الإسرائيلية بالانجليزية.. مطوية.. ومقال احتلها عنوانه بالبنط العريض "هذا تاريخنا"، وعززته الصور.. إبراهيم أبو نجمة في مكتبة داره.. العروسان حبيب وجميلة.. حبيب مع ندى، طفلة في شورت قصير تحمل مضرب تنس.. وردة على البيانو.. ابن إبراهيم في قميص

وشورت.. حبيب أمام بستان داره، وأخرى نصفية بدا فيها كلورد إنجليزي شديد الأناقة.

– تاريخ من!؟ هذه عائلتكم.

– واليهود صلّحوا خطأهم!. نشرت الجريدة مقالا عن عائلتنا في نفس المكان وبالصور وبأسمائنا، وعندي النسخة الثانية.. قالوا لمحام أمريكي، وكّله ابن أخي برفع قضية على الجريدة: خطأ غير مقصود وسنصلحه. عرفنا لأن صاحب أخي في ديوان المندوب السامي أرسل الجريدة من أمريكا.. يهودي هاجر بعد قيام إسرائيل، زعل وصور عائلتنا في جريدتهم.. قال لا يجوز أن نكذب ونقول إنكم يهود!. والقصة وما فيها أن صحفي يهودي مر بدار حبيب بينما يتجول في المصرارة، وبين أكوام الزبالة لمح صورا، فجمع الصالح منها.. أكيد من أخذوا دار أخي رموا صورنا.. قال عائلة راقية! يعني أكيد يهود، وليس على الصور كتابة أو أسماء.. وأراد أن يبين للعالم أن يهود السفارديم [56] متحضرين ومتعلمين، وهذا تاريخنا يشهد علينا.. أي ما فشر... تعالي.

بين غبار ورطوبة احتارت رائحة غرفة النوم المهجورة، وظلت مغلقة منذ وصلت.

– عاش فيها حبيب أواخر أيامه.

في قعر الخزانة، تحت مجموعة من اللوحات والصور المؤطرة، وفي ثلاث علب كرتون صور سجلت حياة عائلة سالم أبو نجمة.

- كان العم حبيب مدمن تصوير.

- ما بقي منها لا يذكر.. ابن أخي أخذ بعضها يوم رجع.. وحبيب نسي الكثير فضاع مع داره.

وزعها حبيب في مظاريف بأسماء أصحابها.. صوره، ولجميلة، وندى، عائلة إبراهيم، رفاق له، لمناسبات عائلية، وأخرى بلا أسماء.

- كان العم حبيب شديد التنظيم.

وافقت.

حملنا الصناديق إلى غرفة إبراهيم. ومسحنا غبارها.

وأنا أقلّب تاريخ العائلة من صورهم، تمددت العمة على الشيزلونج تتابع في صمت.

دعوات وحفلات في بيت حبيب الضائع.. صالون واسع وأطقم ستيل فاخرة.. حول شجرة الميلاد.. حبيب على باب متجر أي بــي سي.. يتوسط كشافة النادي.. في رحلات على الشاطىء.. تحت الاشجار.. ندى مع ألعابها.. تضحك على باب مدرسة شميدت للبنات.. وفي مايوه تستعد للقفز

في بركة.

في ظرف كبير صورة زواج حبيب.. ممشوق بهي الطلعة، عروسه أميل إلى السمنة والقصر. عجزت أناقة المفتشة جميلة، وروعة فستانها الأبيض عن إخفاء فارق السن بينهما.

– حبيب خاف على الصور.. حملها مع اشياء بسيطة وترك الغالي.

في قعر العلبة الثانية ظرف صغير، على طرفه ثلاثة أحرف بالإنجليزية. أم. أي. أن. M. A. N.

بهت السواد بالزمن، واصفرّ بياض صورة لعروسين دون العشرين.. على ظهرها بالحبر، وبخط يد أنهكه التقادم: "إلى أخي حبيب أدامه الله".

أم. أي. أن.. ميلادة أبو نجمة.

مراهقة تعلقت بذراع عريسها على باب الكنيسة.. تنظر إلى المصور ولا تبتسم.. فستانها من ساتان أبيض بسيط، وطرحة تول طويلة تكوّمت عند قدميها، ثبّتها طوق من زهور بيضاء، وعوض في بدلة سوداء. نحيل، مستكين وسعيد.

في عمق الكنيسة الخالي خيال كاهن يتابع.

ربما هو.

- هل نستعمل هذه الصورة في الفيلم؟

كأنما الماضي جزء من حاضرها لم تفاجأ.. لكنها دققت طويلا بالتفاصيل.

- وقفت أمه وراءنا تخيّط طرحتي ببدلته بابرة وخيط غير معقود حتى نرتبط مدى الحياة!.. لكن عوض مات.. ابتسمت في سخرية.

- كنا صغارا.. لا أدري هل كنت طفلة أم صبية يوم زوجونا؟ كل ما أذكره أنني بلغت قبل العرس بقليل. كنت أحبه؟ لا أعرف!. تربينا في بيت واحد.. ربما أحبني هو.. مسكين عوض.. منذ وعينا وهو يسمع أنني له.. أكيد أحبني.. وأنا يتيمة.. وأهلي لم يصدّقوا أن رموا همّي على غيرهم! وما بيدي إلا أن أقبل. بصراحة نسيت شكله.. تربيت في دارهم صحيح، لكن أمه عاملتني خدامة، قبل الزواج وبعده.

- كأنه كاهن!.. يراقب التصوير من داخل الكنيسة؟

- معقول؟! لم أنتبه.. عوض أخذ الصور من مصور القدس وأرسل ثلاثة إلى أمريكا والتشيلي قبل أن أراها.. صورة حبيب رجعت معه، وهذا خط عوض عليها، والثانية

لإبراهيم قال ضاعت، وثالثة لأبـــي الله أعلم أين صارت.. ولأن عوض أرسلها دون علمي زعلت وخاصمته أياما.

ترددت وما زالت تحدق في الصورة.. ثم قررت:

– ما جرى يوم العرس! مثل الكذب!. فكرت أنه جرى لي وحدي فكتمته.. وبعد سنين طويلة، يوم أخبرني بما حصل له، وشرح وصارحني ارتجفت.. لكني لم اصارحه.. خجلت.. ومات دون أن يعرف، أثناء الإكليل.. حين أمسك بيد عوض لندور حول الهيكل وينشد "بالمجد والكرامة كللهما"، لمعت في عينيه نظرة لم أفهمها.. ولم ينــزل عينيه عني.. ارتبكت.. نظراته غريبة هزتني، سحبتني من يد عوض، ومن الصلاة، ومن الناس ومن حالي، وطرت.. وتخيلته يطير معي.. قلت حرام عليك يا بنت.. هذا الشيطان يوسوس لك بأوهام ليوقعك في الخطيئة. خوري وأكبر منك، حرام أن تتصوري، أو تفسري نظرته بأي شيء غير أنه يقوم بواجبه.. سمّرت عيني بالأرض، وكل ما فيّ يرتجف.. لكن بعد العرس رأيته مرة أو اثنتين، ونظرته لم تتغير، فأرتجف كأنما تلبّسني جني.. أنتفض وأهرب من طريقه.. بعدها اختفى، وشغلتني مشاكل عدم الحبل حتى ترملت، ثم رجعت إلى الحوش. وسنين راحت، لكن، كلما عنّت نظراته ببالي لعنت الشيطان.

في يوم، وأنا والمساء وحدي.. ودائما كنت وحدي.. دق باب الحوش.. وناداني.. كأني اسمع اسمي أول مرة، ولم يلفظه أحد قبله ولم ينادني به غيره.. قال كلمتين واختفى.. وأنا جامدة لا اصدق ولا أتحرك.. لكن صار العالم أحلى.. وطلع الفجر وأنا أعيد كلامه.. ومثل عصفور فتحوا قفصه طرت إلى الموعد.. أحلى ما في الحب أن المرأة تندفع فيه بلا حساب أو تفكير.. موجة تحملها وهي مستسلمة ولا تعرف السباحة.. همها أن تصل إلى الشط.. ويمكن أن تغرق!. ولو كانت محظوظة فستدخل جنة الحب.. الحب يلغي الناس إلا المحبوب.. كيف وصلت شارع يافا؟ لا أعرف؟.. مشيت أو ركضت؟ لا أذكر.. صادفت من أعرف؟ رآني أحد؟ أي طريق سلكت.. وجهه على كل الناس.. وكان ينتظر.. مشينا في شارع يافا في عز الظهر.. دخلنا مطعما يونانيا.. وقبل أن يصل الأكل أمسك يدي فارتجف ما فيّ.. ومثل امرأة خاطئة اعترف أنني عشت في خياله منذ أول مرة رآني.. وكان سيترك الكهنوت بعد موت زوجته لولا ظروف الطائفة ومصلحة الكنيسة. وسألني إن كنت أقبل أن أتزوجه.. صحت.. كيف وأنت أبونا وأرمل؟.. قال ببركة البطرك ولن نغضب الله... صاحب المطعم اليوناني توقف عن دق اللحمة.. شخر ورطن بما لم أفهم.. لكن هو فهم وترك يدي.. وركبت

القطار معه أول مرة.. وصارت حكاية متري وميلادة.

وانسياب الذكرى لا يحتمل الأسئلة، عادت من شرود طال، ثم ضحكت لذكرى داهمة:

- كان عليه نهفات.. يوم زرنا حيفا أول مرة.. وآخر مرة.. وقفنا على جبل الكرمل في ساحة دير الكرمليين.. قال تحت الدير آثار أول كنيسة في العالم، بنيت في حياة العذراء، وأحببت أن تزوريها.. ونحن نطل من بين غابات الصنوبر، وزرقة البحر تحت الجبل فكر وقال: شمال بلادنا أخضر وأزرق وألوان.. الرب تبارك اسمه، لما شق المياه بعصاه وخلق اليابسة لوّن الشمال بالأخضر، وهو يمد عصاه إلى الجنوب قلّت الألوان.. فدهن الجنوب باللون الباقي منها. وكان الأصفر، رمل وقحط وحر وجراد وسخام.. وحتى في بلادنا، فوق خصب ومطر، وتحت صخور وعطش، وكلما نــزلنا قل الأخضر.. قلت الله يخليك بلاش تزعّل الله، ما صدقنا رضي علينا.. ضحكنا وأخذني في صدره.. قال لا تخافي.. الله معنا، ويعرف أننا نفكر، وهو يسامحنا لأنه خلق العقول لنستعملها لا لنحملها فقط.. لذلك إذا شطحت أفكارنا "هيك أو هيك" يسامحنا ويغفر لأنه يريدنا أن نشغل أدمغتنا.. وكلامه صحيح.. الشمال قي العالم كله أحسن من الجنوب.. وفوق أحسن من تحت.. حتى في مدن وقرى بلادنا، حارة فوقا وحارة

تحتا، وفي القدس بقعة فوقا وبقعة تحتا. الفوقا حلوة وللأغنياء، والتحتا للأقل ومشرشحة.

انحيت صور ندى جانبا.. مبكر نبش مأساة أجمع العارفون على دورها فيها.. بدايتها أواخر العام 1935، يوم علمت بأن زوجة أخيها حبيب أنجبت بنتا.

قامت.

وهي تروي عطش الريحان حول الليوان.. ترش النبات بالماء ثم تنفض أوراقه.. وشذاه عابق في المكان قالت:

– الريحان يطرد الناموس.

– كثير من رجالات القدس زمان.. عشقوا أو تزوجوا يهوديات.

– مسلمون ومسيحيون.. ردّت بحرص.

– سيحكي الفيلم قصة طفلة أمها يهودية وأبوها عربــي، أو يهودية تتبناها عائلة عربية.. أمر ممكن الحدوث، لأن العرب واليهود عاشوا وتعاملوا كجيران.

– كل ساعة برأي! ومش عارفة شو تعملي ومش راح يخلص لا فيلم ولا زفت.. وغضبت.

– بالعكس قصة كهذه ستدعم الفكرة العامة للفيلم، ان النساء يدفعن ثمن حروب الرجال.. فأي من المرأتين، من حملت ومن ربّت، لم تفطن إلى ما تخطط له السياسة، وكل منهما مشغولة بمشكلتها.. من حملت خارج إطار الزواج، ومن تتعطش للأمومة من أي مصدر.. فلم تفكر أي منهما بطفلة ستكبر في المنازعات بين الشعبين. أو ربما كان الناس بسطاء.. نحن وهم.

توقفت عن فرك الريحان وزجرتني.

– العرب لم يعرفوا وانضحك عليهم آه!. أما اليهود؟!. كانوا يعرفون ويخططون من زمان.. ونحن صغارا نلعب في شوارع القدس، مسلمين ومسيحيين ويهودا، كان الولد اليهودي إذا مر بحي المسلمين ليصل حارة اليهود [57] بينما أولادهم يلعبون في الطريق، يخاف ويحتال عليهم.. يقرّب سبابته اليمنى من السبّابة اليسرى ويلصقهما ببعض مرات، ويقول "بني دو ديم" أي أنا ابن عمك، ثم يضع السبابة اليمنى فوق اليسرى مثل الصليب ويبصق عليه، يعني ومعا ضد المسيحي، وبعد أن يسمحوا له بالمرور ويدخل حارته، يمسك ذقنه بيده، ويصيح "لادفار هاي هوديم" "معلهش يا زمن اليهود" يعني استنوا زماننا وما سيعمل بكم.. كانوا يعلّمون أولادهم ويدربونهم.

- لكن قصة البنت مشوقة.. طفلة يهودية تربت مع العرب حتى ضاعت البلاد فبدأت مأساتها.. تكبر بين أعداء جنسها، تحمل اسما عربيا في فترة كان الاتصال بين العرب والإسرائيليين خيانة عقابها الموت.

- "عدو جدّك عمره ما بودّك" ولماذا أخذها العرب من الأساس؟

- هذا هو السؤال.. كيف أعطت الأم ابنتها لعائلة من غير جنسها، وبينهم مشاكل؟

- هذه قصة ندى؟!.

- بنت العم حبيب؟

- اسم الله؟! كأنك مش عارفة؟! الحكاية معروفة من طقطق لسلام عليكم.

- المهم كيف عاشت الطفلة بعد الحرب بين العرب واليهود؟

- ما عادت طفلة، وما كان معلّق بعينها حدا.. سوّدت سمعة حبيب وعائلة أبو نجمة كلها.. شوفي.. أي امرأة تقع في ورطة تمس شرفها، تفكر بنفسها وستر فضيحتها، لهذا امتلأت الملاجىء بأطفال ذنبهم غلطات وأنانية أمهاتهم!.. وأخي حبيب تزوج مفتشة أكبر منه، بنت ناس

صحيح، وأخوها متعلم، وله جريدة بالعربـي والإنجليزي، ومركزه في البلاد وبين الطائفة كبير، لكن جميلة أكبر من حبيب بعشر سنوات.. قلت له ومتى ستخلف إن شاء الله؟ يعني الطمع يطلعك بلا أولاد؟ سكت.. وتزوجها... إبراهيم وحبيب لم يحتملا الغربة في أمريكا.. المدن الكبيرة تبتلع الناس وتغيرهم.. والغربة غيرت أخوي.. رأس كل واحد وألف سيف لن يتزوج إلا ببنت متعلّمة، وموظفة وترطن لغات.. وردة متعلمة، ولفّت الدنيا.. ودبرت زواج حبيب، ودلته على المفتشة جميلة، وقالت معها خير ياما، ونشيطة في الجمعيات ولها قيمة بين الناس.. يخزي العين! كان لها يوم استقبال كل أسبوع؟ للرجال مش ستات! يحضره أخوها المحامي، ويتناقشون في أمور الدنيا، وهي في صدر الصالون كأنها المندوب السامي.. والصحيح كانت غنية وبنت ناس، وأخي طماع.. يعني شاب طول وعرض يتزوج مفتشة قصيرة وسمينة وعمشاء بنظارة؟! وأخي مقطّع السمكة وذيلها ودمه خفيف.. عجبها.. لكن.. لا شيء يهدّ المرأة أكثر من خيانة رجلها.. مهما كان مركزها، إما أن يرفعها الزواج أو يخسفها بالأرض. والزواج كسر جميلة، وأكمل عليها عدم الخلفة، وضياع البيت وتحويشة العمر.

– كثيرون أكدوا أنها خلّفت ندى!.

- إذا أمّي في قبرها خلفت، جميلة شحادة خلفت.. ندى يهودية بنت يهود.

والغضب مفتاح ما خفي في المسألة.

- وكنت أول من كشف الحقيقة.

لم تأبه أو تعترض.. بوجه جامد قامت إلى غرفة إبراهيم.. تمددت على الشيزلونج.. وهي تفرك ألما في ركبتها. جلست فوق السجادة عند قدميها.

- كثير من النساء حملن بعد الأربعين.. ربما كانت جميلة منهن؟.

- أحيانا كثيرة يعذبني تفكيري، هل ما فعلته هو الصحيح؟ أم دمرت حياتهم كما قالوا؟ المشكلة أن أخي لم يقدّر خوفي عليه، ولم يفهم أنني أدافع عنه، وأن جميلة محتالة.

طال صمتها.. وسادرة في البعيد حدثت نفسها:

- مع العصر دق بابــي، وحبيب لا يزورني إلا في العيدين، وعلى الواقف.. لا يأكل ولا يشرب.. فأغضب وأرمي له نقوده أو هديته.. ساءت علاقتنا منذ تزوج.. حبيب حقود.. زعل لأني لم أحضر عرسه.. قال أنت محل أمي.. قلت لأني محل أمك لن أحضر، لو كانت حيّة

لرفضت زواجك منها.. وصارت علاقتنا مثل الزفت.

يومها جاء فرحانا على غير عادة.. قال: باركي لي صرت أبا، جميلة ولدت اليوم بنتا مثل القمر.

صرخت: ومتى حبلت جميلة؟ ومتى ولدت إن شاء الله؟، ولماذا لم تخبرنا أنها حبلى؟. وكيف حبلت؟ مستحيل أن تحبل وتلد دون أن يعرف أحد؟! يعني حبلت بحبة زيتون فظل بطنها على حاله؟ ويا أخي المثل قال: الحب والحبل والوقوف على راس الجبل ما بيتخبّى، وحبل جميلة تخبّأ تسعة أشهر؟! وفي حياتي لم أتصور أن يهينني.. الله يسامحه، انفجر غاضبا كأني كفرت:

- أولا أنت لم تزورينا من زمان، ثانيا حبلت مثل النسوان ما بتحبل! لكن.. من وراء ظهرك؟ أشرح لك كيف تحبل امرأة من زوجها؟ يعني بنت بنوت ما شاء الله؟

- علا صراخنا... ودور البلدة القديمة بلا أسرار.. متلاصقة ومفتوحة على السماء والجيران، ويمكن سمعونا؟ فقدت أعصابـــي ولم أقصد فضيحته.. قلت جميلة لم تحمل منذ الزواج، ولم ينفع معها لا طب ولا دواء، ولم يبق حكيم في البلاد إلا زارته.. فكيف حملت؟ تلعثم وتغير لونه.. قال فكّرت أنك ستطيرين من الفرح.. وتركت الخبر حتى الولادة مفاجأة، لأن حمل جميلة صعب،

والدكتور خاف من الاجهاض.

قلت اقطع يدي إن لم يكن ملعوبا من جميلة.. متعلمة وقادرة.. يعني هي امرأة زكريا؟ عجوز بشّرها الملاك بيوحنا المعمدان؟ مستحيل.. المسألة فيها إنّ.. وأنا مثل توما لن أصدق حتى أرى بعيني.

صفق باب الحوش خلفه فارتجت الحيطان.

أكلني الشك.. لحقت به إلى داره.. بنت مثل فلقة القمر، بيضاء وعيون ملونة، وأنف مثل النبقة، وشعرها ذهب.. وجميلة في فراشها بقميص نوم ساتان زهري، ولا تعب ولا صفار ولادة، وتحت السرير طشت فيه الخلاص [58]، والذباب هاجم عليها، وبقع دم على طرف الفراش.. تأكّد الشكّ.. كل شيء مرتب حتى البقع على الشراشف.. لم تغيرها لنصدق؟ أزحت عنها الغطاء وصحت: يعني لا عائلة أبو نجمة ولا شحادة فيها شقار أو بياض؟ من أين إن شاء الله؟ والنفساء مهدودة وأنت شبعانة نوم ومثل الحصان؟ وصدرك صغير مثل الطابات والنفساء صدرها مثل الضروع، طيب فرجيني الحليب؟. أخي دفشني وابعدني، ولأول مرة شتمني.. وسحبني من غرفتها، قال الغيرة أكلتني واستكثرت عليهم عطيّة الله.. وجميلة ترتجف وتبكي كأنها عصفور تحت المطر، فتح حبيب باب داره

ورماني، وصرخ مثل المجنون بأني أدمر حياته ولا يريدني فيها.. وقعدت على الدرج فلم يردّني.. نحت وجحت ولم يخرج.. يومها.. افتقدت أمي.. بقيت عند بوابة أخي حتى المساء فلم يفتح أو يصالحني.. الله يسامحه.. عطشانة وجوعانة قلت أرجع لداري أكرم.. أطلب ماء من جارتهم وأمشي.. صبية يهودية لمحتها على بلكون دارها مرة أو اثنتين زرته فيهما.. قالوا استأجرت في حي عربـي لتبعد عن أهل زوجها، بعد أن تطوع مع الإنجليز وتركها.. من بلكون حبيب لمحت ضابطا انجليزيا يدخل ويخرج مثل حرامي.. وبنات اليهود حلوات.. لم أقصد أن أبصبص، لكن أحيانا تضرب العين شرقا وغربا.. رأيته يدخل دارها متسحبا ثم يخرج في العتمة كأنه حرامي.. قلت، لا هي من جنسنا ولا ملتنا، والله يستر على ولايانا.

تجرجر خطوها فتحت.. شعرها الأشقر تجعد بعرقها، وقميص نومها مبقع بالدم، ضعيفة تكاد تقع.. أمسكت بصدر فستانها وصحت: يعني أنت أم البنت؟ وأعطيتها لحبيب وجميلة؟ خافت وصرخت واحد مجنون، وبكت وطلبت أن أخرج وإلا ستنادي البوليس.. وظلت تصرخ مجنون مجنون، فتركتها وأغلقت الباب.

بدون وعي أو شعور خبطت على باب حبيب.. فتح.. رجاني أن أتركهم وبلا فضائح.. قلت ليس قبل أن تحلف

أنها ابنتك.. تأمل وجهي واحتار.. حزنت عليه.. حلف على الإنجيل.. قلت طيب خلّي جميلة تحلف.. صرخ جميلة نفساء غير طاهرة.. انقلعي.. يكفي فضائح.

الخوري خبأني في صدره.. هدهد حزني وقال: من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر.. ربنا أمرنا بالستر.. والطفلة بلا ذنب.. ابنة من كانت.. ولدتها جميلة أم أخذوها من ملجأ أو من جارة.. ستكون ابنة حبيب، وستحمل اسمه، وتعوض عليه عدم الخلفة.. وما دام حلف على الإنجيل، ربما كانت له علاقة مع الأم!.. وأنت تعرفين حبيب.. الله أعلم، وربنا يسامحنا على إثم الظن والشك بدون دليل.. وإذا كانت جميلة صفحت وسترت وهي زوجته.. هل تفضحينه أنت ابنة أمه وأبيه؟

هدأت... ولا أدري إلى يومي هذا كيف عرف الناس بقصة ندى!؟ وكيف وصل السر إلى عين كارم؟ وبعدها جميلة قاطعت العائلة كلها.

– وعاشت ندى معهما حتى ضاعت البلاد؟

– عاشت ملكة حتى ضاعت البلاد.. حلفت جميلة أن تكون ندى أحسن من بنات العائلة كلها.. تعلمت في مدرسة شميث.. ولبست اغلى الثياب.. كان أخي يطلب فساتينها من بلاد الإنجليز ومن أمريكا بالكتالوغ.. ولـمّا

زادت المناوشات بين العرب واليهود، استأجر بيتا صغيرا في عين كارم.. وندى كل يوم تلبس الشورت وتلعب تنس في الدير.. فضحنا الناس.. قالوا بنت أبو نجمة ستعلم بناتنا كشف السيقان والمسخرة.. وندى بنت ثلاثة عشر أو أربعة عشر.. مثل البدر وسيقان بيضاء مسحوبة على قالب.. قلت لحبيب: ضب بنت اليهود بلاش تفضحنا.

– أكانت جميلة إلى هذا الحد؟

وجدت صورتها في إحدى العلبتين... تأملتها، ومدّتها لي.

– أعطتها لي خفية عن حبيب وجميلة.. قالت هذه لك يا عمتي.. قلت: عمى الدببة.. من وين عمتك.. وإلآ.. ما حدا عارف.. الله يسامحك يا حبيب.

ومع أن ندى خفيفة ودلوعة لكن أحسن شباب عين كارم دقوا باب أخي.. رفضهم حتى تكمل تعليمها.. حبيب لم يسكن الحوش لأني فيه.. استأجر في وادي الجوز.. كيف وصلت قصة ندى لمدرسة شميت؟ وللجيران؟!. القدس صغيرة! والناس تتسلى بقصص بعضها.. أما كيف سمعت ندى وعرفت؟ لا علم لي.. بكت وناحت.. أخي أنكر، وجميلة تحلف وتبكي والبنت لا تصدق.. هجّت.. أخذت جواز سفرها واختفت.. حبيب وجميلة لفوا البلاد..

ضاع أثرها... قالوا يمكن تسللت عند اليهود لتدوّر على أمها؟ أو العرب أو اليهود لو كانت قد اقتربت من المنطقة الحرام أو من بوابة مندلبوم بدون تصريح.. لو صارت القصة هذه الأيام يمكن دوّرت على أمها والناس ساعدوها.. لكن.. بعد النكبة؟! كان إذا تكلم يهودي مع عربـــي أو العكس قالوا جاسوس وشنقوه.. اليوم الناس مع بعضها، لكن كل من عاش قصة ندى مات، ومات السر معه.. ندى تركت البلاد فقاطعني حبيب وجميلة.. وأوصى إن مات قبلي أن لا أراه، ولا أحضر جنازته لا هو ولا زوجته.. لكن.. دائما أصلي لهما، وأضيىء الشموع عن روحيهما.

– وندى؟

– وجدوها في بيروت.. تزوجت شابا غنيا من أكبر عائلات حيفا.. مسلم، ولها ولد.. زوجها ابن ناس وتحمّلها.. ندى لا تهدأ ولا ترضى.. تهب مثل ملدوغة لتمشي في الشوارع أو تدور في الأسواق.. لا تبقى في مكان واحد.. زوجها رجل محترم وقادر، لكن مصاريفها خربت بيته.. وأخي بعد النكبة عاش على معاشه ومعاش جميلة من حكومة الانجليز.. جميلة عميت من البكاء.. وحبيب مرض حتى تفقده الله برحمته.. ندى مجنونة وجننت من حولها، مع أن كثيرا من شباب القدس،

مسلمين ومسيحيين تزوجوا يهوديات وعشن محترمات.. أليجرا اليهودية عاشت معززة مع عائلتها.. وبيتها اليوم في عين كارم مزار لليهود.. كانت مغنية في بار وفنانة معروفة قبل أن تتزوج عربيا.. قبل مدة عرض تلفزيون إسرائيل فيلما عنها، قالوا عشنا مع العرب أصحابا.. حتى ابنة الراباي وفنانة زمانها أليجرا تزوجت عربيا برضى عائلتها.. كذب.. أليجرا حين أحبت الشاب العربـي وتزوجته، قامت قيامة اليهود لأنها تنصّرت.. قاطعها أهلها فهربت معه إلى بيروت.. ومطران اللاتين زوّجها وهرّبها مع العريس، ولم ترجع إلا بعد ضياع البلاد. وعاشت لاجئة.. وكثير من اليهوديات في القدس ويافا وحيفا عشقن مسلمين ونصارى، وعشن معهم عشيقات أو زوجات، وبعضهن أنجب ثوارا اعتقلتهم إسرائيل وعذبتهم.

قيس ويمن

خيوط الشمس غزلت دفء النهار، أضاءت ذهب الصخرة، وتلة مغروسة بشواهد الراحلين، تحتمي بسور شاخ التاريخ فوق حجارته.

جنود إسرائيليون سدوا المنافذ إلى الأقصى.

– مشهد أيام الجمعة.. تعودنا.. قالت العمة ونحن نمر بدورياتهم.

حاجز حديدي يسد باب القطانين، أكبر أبواب الأقصى.. تعلوه قبة ساحرة من حجارة سوداء وحمراء وبيضاء.. على يسار الداخل سوق باقواس يستدعي آثار الأمويبن في مدن حكموها.. شهد صفقات القطن، ومداولات تجاره في غابر الأيام.

باحة وأدراج حجرية واسعة تحيط بقبة الصخرة خلف الباب.

أمام الحاجز الحديدي جنود.. تأمل الضابط سفوري وبنطلوني الجينـز، وثوب العمة الطويل، وغطاء رأسها

من الدانتيل الأسود وهي تتعلق بذراعي.. واحتار.

- صلاة أم زيارة؟

- زيارة.

- ممنوع.. تعالوا بعدين.

لم نتحرك.

توقف الداخلون للصلاة.. عاد شيخ من باحة المسجد: لا يجوز رد إنسان عن صلاته، ولا يحق لك منع النساء.

لم يلتفت له.

أحاطنا احتجاج المارة، والباعة، والمنتظرون يطالبون بدخولنا، وغمرتنا النصائح.. "تعالي بعد الصلاة.. في يوم آخر.. القيود أخف في غير الجمعة.. ربما خرج المصلون في مظاهرة.. غطي شعرك.. الحجاب فرض وسترة.. اشتري اللباس من أول دكان.. من عشرة لعشرين شيكل."

دكاكين صغيرة على جانبــي السوق الأثري.. ملابس محجبات وبرانس صلاة على أبوابها، وتذكارات صدف ومصاحف ومسابح على الرفوف.

- كان يجب أن تقولي جئنا للصلاة.. نهرتني العمّة.

عدت إلى الحاجز.

- سأغادر القدس بعد قليل.. فرصتي الوحيدة للدخول.

- ممنوع.. تعالي بعدين.

طال وقوفي والعمّة.. عاد الشيخ من داخل الباحة، ونهر الضابط.

- مسموح دخول النساء في أي وقت.

في إصرارنا على الانتظار أمام الحاجز، وتفاديا للحرج من التساؤل الصامت على وجوه القادمين للصلاة، أمر الضابط بإدخالنا.

أعطاني حارس الباب غطاء رأس، وتنورة طويلة واسعة من لونين متنافرين، تمزق طرفها بطول الاستعمال.

- أعيديها عند أي باب تخرجين منه.

- أرأيت كيف يحفظون هيبة مسجدهم؟! لا تدخل امرأة إلا محتشمة! سائحة أو بنت بلد.. والنصارى بهدلوا حالهم، في كنيسة القيامة السياح واليهود والمسيحيين داخلين كأنها منتزه.. فساتين قصيرة وشورت وقناني ماء.. زمان لم تكن تدخل امرأة بدون إيشارب وفستان يغطي ساقيها.

تنهدت.

– اية صدفة أن أدخل المسجد في المرتين من الباب نفسه؟! أنا وزهرة التقينا هنا.. قلت إذا بنت شيخ وزوجة شيخ كبير، زارت كنيسة العذراء؟ لماذا لا أزور الحرم وأصلي فيه.. والله واحد، والسماء واحدة، وإن لم تسمع السماء حزن امراة من باب، تجرب بابا آخر.. ومن وين ما إجت تيجي.. أنا وزهرة من مقاس واحد، أحضرت لي تنورة طويلة وحجابا من ملابسها، قالت، لو ترك الأتراك باب الرحمة مفتوحا لدخلنا منه، لينعم الله علينا برحمته وجنّته.

قلت خلّيه ينعم علينا بجنة الأرض، وبعد عمر طويل نلحق على جنة السماء!

ضحكنا معا.

– زهرة يومها لم تضحك.. كل الأمور عندها جد بجد.. استغفرت ربها وقالت ربنا كبير، وبيوت الله لا تغلق أبوابها في وجه من يطلب رحمته... مع أن دور العبادة في القدس أكثر من بيوت الناس، لكنها قاسية على ناسها، وعائلاتها قاسية على بعضها.. السياسة والتناحر على المراكز قسّمت حتى العائلة الواحدة، وهي أصلا مقسمة.. فخذ مالح وفخذ حلو، الأغنياء والمتعلمون من الفخذ الحلو، والأقل فخذ مالح.. وحارات أكابر وحارات نور.

وخليلي وقدسي، وفلاح ومدني.

بينما يستعد الفريق لتصوير المؤرخ على درجات قبة الصخرة، وينتظرون ما قد يحمل يوم جمعة للمصلين في الأقصى من أحداث. جلست والعمة قرب خلوة أحد العلماء، مغلقة بجانبها ماء سبيل.. وأمامنا طريق ضيق بين أشجار الزيتون للنساء، يصل بين قبة الصخرة والمسجد الأقصى.. قبّلت خد العمّة.. سحبت يدها من كفّي. قامت تتابع المؤرخ، وتكتم رغبة التدخل.

- الخلاف بين العائلات المقدسية شتت النضال وأضر بالبلاد، فقد تحالف بعضها مع الغزاة والمحتلين في حقب التاريخ، صحيح أن رجالا منهم قادوا المقاومة، واسسوا أحزابا وطنية، لكن صراعهم على المكانة والسلطة انتقل إلى مؤيديهم في عموم البلاد، فأضر بقضاياها ومصيرها.. والخلاف امتداد لحروب عبرت الزمان والمكان.. عداوة غابرة أساسها عصبية قبلية بين قيس ويمن.. و"اليمنية" قبائل بني قحطان، رايتهم بيضاء، ويعتقد بأنهم أهل حضارة ومدنية.. و"القيسية" نسل عدنان ورايتهم حمراء، ويشاع أن فيهم غلظة نفس. والخلاف بين قيس ويمن سابق على الفتح الإسلامي، حملته صهوات الجياد من الجزيرة العربية، فطوى القفار وسكن حاضرة الشام.. ثم ركب الموج إلى الأندلس.. جدده الخليفة أبو الفضل في

القيروان، حين اشاع أن خلاف قيس ويمن قدر مسطّر على العرب، وعداوة قائمة إلى يوم الدين، فزحفت البغضاء إلى المغرب وحتى شواطىء تونس.. أما صراع قيس ويمن الفلسطيني فجذوره أموية وهاشمية.. أحقاد وتناحر زرعها بنو أميّة، حين قرّبوا اليمنية، ومنحوهم امتيازات بلا حدود، وأقطعوهم أجمل وأكبر المساحات حول القدس، في حين أبعدوا القيسية، لأن ولاءهم ثابت لآل هاشم، فأسكنوهم تلال القدس البعيدة، والخليل وما حولها، وقتّروا في عطاياهم.. وإمعانا في زرع الفرقة، حرّموا وضع اللون الأحمر أعلى من الأبيض تحت طائلة العقاب.. وإدراكا لعمق هذه البغضاء، أجّج المحتل التركي نار الفتنة بين قيس ويمن، فشرذمت البلاد وفرّقت العباد، وانتهكت براءة السهر حول دكّة الحكواتي في المقاهي الشعبية.. فإذا اقترب الراوي من انتصار بطل الغرماء، انفجر غضب أحدهم "أي اخرس وله ما فشرت.. الزناتي هامل مثلك. فيرد آخر، سد بوزك أنت وعنترة همل. العبد الأسود".. فتتطاير مقاعد القش، وتفج الرؤوس وتهرق أباريق القهوة والشاي، وتتحطم أكواب الزنجبيل والقينر، وينفضّ السمّار بجروح أو كسور.. وحدها المواسم الدينية جمعت رايات قيس ويمن، وإن لم توحّد بينها.. والمواسم صنيعة القائد صلاح الدين الأيوبـــي، لكن اسمه ارتبط بموسم

النبــي موسى، فقد مرّ محرر القدس بخيام أعراب قرب أريحا يتبركون بجدث، ويرفعون إليه نذورهم.. فقالوا هو لكليم الله موسى.. فبنى مقاما تحوّل مزارا ثم مسجدا، واحتفالا دينيا سنويا.. والمعروف أن لا قبر للنبــي موسى.. وإدّعاء الأعراب بوجوده يناقض ما في سفر التثنية من توراة اليهود. "وصعد النبــي موسى من عربات مؤآب إلى جبل نبو قبالة أريحا، فأراه الله أرض الميعاد. قال: هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم واسحق ويعقوب قائلا: لنسلك أعطيها.. قد أريتك إياها بعينيك، ولكنك إلى هناك لا تعبر.. ثم نــزل النبــي موسى من الجبل، ومات في مؤاب قبالة أريحا، ولم يعرف له قبر"... ولا علم لأحد بسبب تزامن الموسم مع احتفالات اليهود والنصارى!.. كل ما يعرفه الناس أنه امتد في الزمان حتى منعه الانتداب البريطاني بعد هبّة العشرين.

كبرت خيوط النهار.. غصت ساحات الأقصى بالمصلين.. تأهبت المدينة لما قد يحمله يوم جمعة لأورشليم القدس.

من أوراق الخوري متري الحداد
الشهر الخامس من العام 1940

هل أكتب سيرتي؟ أم قصة مدينة؟ بتعدّد أجناسها وتنوع مللها؟ والصراع المعلن والخفي بين طوائفها؟

تمتلك المدن إن عرفت مفاتيحها.. طرقها وناسها وما خفي من أسرارها.. المدن كالنساء.. تمنحك المرأة مكانة في قلبها لو فهمتها.

والبلدة القديمة وهبتني نفسها.. وإن إلى حين.

تدبير من الله يا رفيق، ارتباط عائلة الحداد بالبطريرك ذيميانوس، مع سوء علاقتي به في سنواته الأخيرة، غفر الله لنا وله.

بهي الطلعة حنون رغم عصبيته.. مقسم القلب ومعذّب الروح مثلي.. حفظ جميل جدّك، وأخلص لصداقته.

وحين ترسم الأقدار علاقة لتتميّز، تسخو في التوافق بين أطرافها، فتقفز صداقة يحرسها القدر على أشواك الدروب وصخورها.. تتسامح مع العيوب، وتتغاضى عن

الأخطاء.

عمل جدّك، في المحكمة الكنسية ثم البطركية، فرض عليه ترحالا دائما، طاف البلاد وشرق الأردن وسهول حوران.. وأسفاره علمته الكثير، عن الأرض وطبائع وأحوال من عليها.. والسفر على الدواب يتيح تجارب أضاعها التنقل السريع، واختصار المسافات.. ولم تكن البلاد قد عرفت أن في العالم قطارات، أو سمعت عن سيارات.. فقط، مراكب حملت الأحباء غربا، وقلما عاد منهم أحد.

لا تهتم وأنت في قطار أو أوتوموبيل بمن حولك، أو من يجلس بجانبك، ولا يعنيك أن تعرف، فزمن الرحلة أقصر من تعارف حقيقي، وأكثر ضيقا من الاتساع صداقة.. أما السفر على الدواب فهو الوقت والتوقف، والمبيت في خانات تعج بقصص وبشر وأجناس، وكثيرا أقام جدّك في قرى لم تسمع بالخانات، كريمة مع فقرها، سخية في قصصها.. حل ضيفا شبه دائم على مضارب البدو، أتقن لهجاتهم وعرف عاداتهم وأنسابهم.

تتنوع الأمكنة فتجود بأفكار ومعتقدات، وعادات وقصص، وحكايا أضاعتها حياة المدن.

ومن عمل جدّك في المحكمة الكنسية، وقفت على كثير

من أسرار الرعيّة.. وجدّك طلي الحديث، كأنما خلق ليكون حكواتيا، أو ولد ليجلس فوق دكّة يعزف على ربابة الكلمات، فضلّ طريقه إلى التجارة.. كان، وهو يعيد سيرة أو قصة، يلونها بالخيال، وغموض معتقدات وغرابة أفكار، فيتجدد قديمها ويتوهج.. افكار جريئة عن الحياة والآخرة، ونوادر تضحك وتبكي.. تثريها غزارة علم واتساع معرفة.. ومعظمها يغضب الرب.

مؤسف يا بني أنك لم تعرف جدّك، ولم يقيّض لك سماعه.

والصداقات العميقة بذرة في أرض صالحة، غذاؤها الوقت والرعاية لتمد جذورها، ثم تنمو وتشتد.. وكلما كبرت وأينعت غارت في نفوس أصحابها.. أما لو اجتمعت على هدف أو قضية، فستعلو وتتسامى كجبل راسخ.

بداية العلاقة بينهما انشغال جدّك بوصول ذيميانوس إلى كرسي البطريرك.. عمل كثير ودسائس أكثر، وليسامحني الرب.. كان جدّك عينه السريّة وأذنه بين رهبان أخوية القبر المقدس، و"السنودس" [59] المكلفين بانتخاب البطريرك، وبأصواتهم وحدها.

إن عرفت ما يظنه الآخرون بك، تصير قائدا عسكريا أطل على أرض العدو، وكشف تحصيناتها، وحدّد طريقه

إلى ضعفهم.. أما إن رأيت صورتك كما هي في عيون الناس، فسيسهل عليك تجميلها، وتختصر الطريق إلى كسبهم.

وجدّك كشف لذيميانوس خطط وأقوال الآخرين، ودون أن يشك به أحد، فلم يكن قد حُسِبَ على ذيميانوس بعد.. وبفضل جدّك احتوى معارضيهِ.. وتقرّب إلى رافضيه، طمأن شكوكهم، وتزلّف بالوعود.. فظفر بالكرسي بإجماع الرهبان. وتعزّزت مكانته بين الطائفة.

والتكليف بترتيب مراسم التنصيب مكافأة ذيميانوس لجدّك.. احتفال باذخ كلّف كثيرا، كبرنا بعده مالا وجاها.

صفوف البشر على الطريق من بيت لحم إلى القدس القريبة هلّلت لموكب البطريرك الجديد.. ناءت أسطح المنازل بالمتفرجين.. وغصت الكنيسة والساحة أمامها بوفود رسمية وشعبية.

تعلقت بثوب أبــي.. ملمس الدمقس الحرير ما زال في أصابعي، مقلم بالأبيض والأسود.. استبدل الجاكيت بعباءة مقصبة وطربوش جديد، وسيم وهو يتابع كل شاردة وواردة، ويرشد الضيوف إلى أماكنهم.

ومن عجب أنني، بعد هذا العمر، ما زلت أذكر إحساسا غريبا داهمني. الخوف من ضياعي في الزحام.. ونشوة

الفخر بوالد يقبل عليه رجالات البلاد وأكابرها، ينادونه باسمه، ويسألونه عن الحال.. وكثير منهم لاطفني، وامتلأت جيوبـــي بالبشالك [60].

وبعيد عن إدراكي الطفل آنذاك، أن عمل أبـــي في المحكمة الكنسية يكشف اسرار الطائفة.. وصايا إرث أو حرمان، سريّة، إعلانها سيقطّع أوصال عائلات، ويفجر صراع أشقاء.. وقضايا تفضح علاقات زوجية وخيانة، وتهين ذكورة خذلت أصحابها.. واسرار أخرى تفرض محاباة من يطلع عليها.

ومن باب كنيسة المهد الصغير المنخفض، منحنيا حتى كاد رأسه يلامس البلاط، تمسك ذيميانوس بتاجه، وخرج بطريركا على الكنيسة المقدسية الأرورشلمية في فلسطين وشرق الأردن.. وإذ لوح للناس بيمناه، ودقّ الأرض بصولجان الذهب المطعّم بالحجارة الكريمة في يسراه، وبارك الجموع، دقت أجراس الكنائس في عموم البلاد، وقرعت طبول الكشافة، وضربت الأبواق والصنوج، وزغردت النساء، ورسمت مسرّة البشر.

تحيطها ثلة فرسان صعد إلى العربة المذهبة تجرها الخيول الأصيلة، تبعتها عربات كبار الكهنوت، وممثلو العائلات ببيارقهم، وإلى القدس تهادى الموكب.

ولم تكن عائلتنا قد تشرفت بالبيرق.. ذاك من نعم ذيميانوس علينا.. بعد عودتي بشهادة اللاهوت تبرع جدّك للكنيسة بمئة ليرة عثمانّية.. قال: المال يشتري الجاه والسلطة، ولا بد من المكانة بين عائلات القدس، ما دمنا نعيش معهم.

عميقا انغرس جلال التنصيب في ذاكرة طفولتي.

هل عمّقت المهابة والمكانة الدينية الرفيعة ولعي بالكهنوت؟! أم هو فرح الناس؟ والتدافع للوصول إلى ذيميانوس والتبرك بلمس ثوبه؟! أم تراه إصرار جدتك على أنني منذور لله؟! وعمري متعلق بقسم قطعته في لحظة يأس وضعف؟ اعتقاد أرضعته لي، وفطمتني عليه، كل لحظة ذكرتني به، حتى اقتنعت مثلها بأن حياتي مرتبطة بالوفاء بنذرها!

كنت قد جاوزت السادسة يوم التنصيب، أصغر بكثير من فهم التعقيد في كل ما يحيطني.

وأحلام الصغار لم تسمع بالمستحيل.. لا شباك فيها أو مصائد.. نقي بذار حياتهم، بلا زوان كراهية أو حسد، رأيت نفسي بطريركا بتاج مرصع وصولجان.. كنت اصغر من إدراك أن الطريق إلى مرتبة كهذه، مغروس بالتناحر والدسائس، وأنها مكانة محرّمة حتى على أحلام عربــي

مثلي.

يشدّك الواقع من أحلامك الطائرة فتصدمك الحقيقة، ويضحي رجوعك اشد ألما.

هل دمّرني قربــي من ذيميانوس؟ أم عشت في حماه؟

سؤال حيرني وما زال.

وقائع كثيرة كنت سأدفع حياتي في أبسطها، ونجوت منها برعاية السماء.

ومثل جدّك آمنت بأن حظي ملاك حارس لي، وآية ذلك ظواهر قد لا يتوقف عندها كثير من الناس. ومدهش الإحساس بأنك في رعاية حظ قوي قادر.. يحميك ويقود خطاك، حتى إذا توقف بك أمام حواجز الحياة عاجزا مثلك، انكسرت روحك بخيبة الأمل.

قال جدّك: مع مولدك، وعلى غير توقع، انتهت مداولات مضنية مع المسكوب.. فبعد تعسّر، وعشرة أعوام من الأخذ والرد، تحسنت أوضاع الطائفة في بلاد الشام.

كثيرا تفاخر جدّك بأن صرخة حياتي الأولى، وإطلالة وجهي على الدنيا، حلت عقدة المفاوضات! نشطت الجمعية الامبراطورية الأرثوذكسية الفلسطينية بعد توقف.. وفتح

المسكوب المدارس والسيمنار ودار المعلمات والجمعيات، رتبوا قوافل الحجاج الروس، واستقبل بيت سيرجيوس المسكوبــي، أكبر فندق عرفته القدس، آلاف السياح على مدار العام، عمل فيه مئات من أبناء الطائفة، وتدفقت ملايين الروبلات إلى عموم البلاد.

حزن طاغ يهاجم نفسي كلما وصفني أحدهم بأبــي الرعية.. ويضحكني حتى رغبة البكاء أن ينحني أحدهم ليقبّل يدي، فأسحبها، وأكره أن يفعلوا.. بشر أنا مثلهم، ومثقل بهمومي والخطايا!.

وأقسى ما يغمّ روحي، ويطعن قلبــي، نظرتك الساخرة حين تسمعهم.. وفوق احتمالي ابتسامة الاحتقار كلما ناداني أحدهم "أبونا"، وأراك تقاوم رغبة أن تصرخ به: الفاشل في أبوة فلذة كبده، ليس أبا لأحد!.

أما عزوفك عن الصلاة فاثقل كاهلي بالذنب وبندم لا ينفع.

هل أخاف الله؟.. وأكثر مما تعتقد أو تتصور.

لكني، وأنا اقترب منه، أحس أنه يعرفني.. يحب ضعفي فيزيده لأخطىء، فيسامحني من جديد.. يبتسم كلما ناء ظهري بأحمالي.. يقدّر نوازعي ويضحك لهواجسي ويتفهم معاناتي.. يغفر مبتسما كلما كبوت كفارس جريح،

وجواد أعياه الضياع، ويقيل عثراتي.

"توكلت على الرب، فأعطاني سرورا في قلبي".

حين اقتربت من الله وجدته على غير ما علّموه في مدارس الكهنوت.. وبعيد الرب عن جفاف التعبد في كهوف أثوس.. العادل الرحيم لن يسلب إرادتي، ويزلزل عقلي، ويهز قلبـــي ليوقعني في التجربة، فقط ليختبر إيماني، أو يحاسبني على قلب مال أو أخطأ؟ لا يا بني.. الرب يعرف ضعفنا ويسامحنا لأننا بشر ومن خلقه.. وهو أرحم علينا من نفوسنا.. أنقذني من نفسي ومن أعدائي بوضع ذميانوس في طريقي.. كلانا عانى الحب، وتناوشنا الخوف من الله، ومثلي تمزق بين الحب والواجب.

وأنت يا بني لم تحاول أن تفهم أو تغفر أو حتى تهتم.. أغرقت نفسك في الشراب. فهل وجدت راحة وسلوى؟

ضاع الكلام في مسافة الرفض بيننا.. كل يكره ما فيه الآخر، وعاجز عن أن يمد له يده.

لو أنك وهبتني لحظة لأشرح، أكان تغير الحال؟

ليس لوما فخطيئتي أعظم حين تركتك لنفسك، بينما أمْر المخلّص لنا واضح "اطلبوا تجدوا إقرعوا يفتح لكم". وكان عليّ أن أتقدم فأطلب، وأقرع باب عقلك فتفتح لي

قلبك، لأشرح ما أكابد.

مرارا جرجرت خطوي نحو بابك فصدّني صمتك والعزوف.. ردتني نظرة الحقد أنّى لمحتني.. شلت خطوي.. أهرب من حالنا إلى المحراب صائما وأصلي.. وكثيرا غسلته بدمعي، اسال الله أن يلهمنا الصواب.. أنا وأنت، لأعرف كيف أعيدك إلى حضني، وأن تأنس لي وتعود لأب اكل الطريق عيني انتظاره.

"يا رب.. ضاقت عليّ نفسي.. منحنية فيّ.. وتئنّين يا نفسي."

ولا تدري كيف أدمت خناجر الألم قلبـــي، وتمزّقت روحي والناس يشيرون إليك ب "رفيق السكران".. أنت؟! الصخرة التي أردت أن أقيم عليها بيتي؟! من حلمت به محاميا؟ وخطيبا مفوّها؟! تحتار الكلمات على ثقل لسانك، وتهرب الحروف من ثباتك المترنح؟

لم تسمع السماء دعائي، فقررت أن أكتب إليك لتفهم، وقد تغفر.

أن تعرف الحقيقة متأخرا خير من أن لا تعلم بها أبدا.

اسميتك "رفيق" لتكون رفيقي.. وتيمنا بصديقي البطل رفيق رزق سلّوم من حمص الشام.. أحد شهداء السادس

عشر من أيار 1916.. شنقه جمال باشا السفاح مع معلمه الشيخ عبد الحميد الزهراوي، وشهداء سوريا الأحرار في ساحة المرجة في دمشق، ولولا تدخل ذيميانوس فربما لقيت مصيرا مشابها.

في الحادثة تلك، خرج ذيميانوس عن كل متوقع منه.. متعمدا اقترف خطيئة الكذب.. ويعلم الله أنها كذبة أنقذت حياة إنسان.. ودم الإنسان مقدّم عند ربه على المحظورات كافة.. يغفر الله خطايا البشر في لحظات خوفهم العظيم، كما غفر لصخرة كنيسته الرسول بطرس إنكاره للمسيح ثلاث مرات قبل أن يصيح الديك، خوفا من التعرف عليه وقتله.

صديقي رفيق سلّوم يكبرني بعام وإن عاملني كأخ أصغر.. وكثيرا مازحني "أكبر منك بيوم أعلم منك بسنة".. ومثلي، تعلّم في المدرسة الروسية في حمص، وأنا في القدس، وحين التقينا في الأستانة كان صحافيا وطالب حقوق، متأثرا بصداقة الشيخ الزهراوي ترك الكهنوت.. قال: لن أبقى بعيدا عن قضايا الوطن في فترة عصيبة كهذه.

رفيق التقى شيخه في حمص فتغيرت حياته.. ومن يرد الأقدار إذا رسمت وقررت؟ شيخ عالم، وشاب لمّاح

ديدنه المعرفة.. مريدا وصديقا للشيخ لم بفترقا حتى لحظة الموت. ومن مجلسه تعلم رفيق الكثير، والمجالس مدارس.. فكيف إن تزينت بأهل الفكر والأدب والسياسة والعلم؟

ورفيق شاب مفوّه جسور، وكاتب مبدع، وعازف عود يذوب فوق أوتاره.. تهذيب ولطف يأسران من يتعامل معه، تمنيت أن تكون مثله لصفات كثيرة فيه لا تكتمل في شخص عادي.. وحياة غير العاديين قصيرة، يزينها انجاز كبير يخلّد صاحبها.. وردة شديدة العبق تذبل سريعا، كثير نبوغها على حياة عادية فتنتهي.. لهذا يصف الناس أمثاله بأنهم "ليسوا ابناء عيشة".

سأعود إلى قصة لقائي الأول برفيق سلّوم في مكان آخر.

درب عودتي من تركيا إلى القدس حددها الشيخ الزهراوي، لتمر عبر الشام.. أحمل رسائله، ووثائق ومعلومات حول بعض سجناء الفكر والسياسة في سوريا ولبنان، إلى الصحفية ماري عجمي. محامية شابة جريئة.. كاتبة وشاعرة من حماة، وتعيش في دمشق.

وصفها الشيخ عبد الحميد الزهراوي قال:، بزّت الرجال في الدفاع عن أحرار العرب، قابلت السجناء،

ورفعت مطالبهم إلى الأستانة، وناهضت اعتقالهم، وردت اتهامهم.. وأفردت صفحات مجلتها الأدبية لنشر معاناتهم، ووصف تعذيبهم والتنكيل بهم.. سبقت إلى الثورة، تحمل منبر العلم في يدها اليمنى، ومشعل الإصلاح والتربية وجمال الأدب في يسراها.. أما زيارتك لحمص فأمر عادي، فيها طائفة أرثوذكسية كبيرة، وبطريرك أنطاكية وسائر المشرق، وكنائس وأديرة.. ولن يلفت النظر لوعرّجت على مكتب صحافية معروفة، لها مجلة ذات شأن أدبـي رفيع، يكتب فيها كبار كتّاب مصر وبلاد الشام، فأنت كاتب! ولك بعض مقالات منشورة.

في عام عودتي ذاك، فاقت قسوة الشتاء كل ما خبرنا وعرفنا.. حبال المطر بين سماء وأرض لم تنبَّت.. والبياض لم يترك فرصة لدفء.. ثلجات توالت فشلّت الحياة.. تذوب واحدة لتبدأ أخرى.. والسيول قطعت الطرق، وسدّت المعابر، متخمة بالمياه انهارت حواف الجبال، جرفت التربة والصخور والسناسل الحجرية.. وتجمد مئات من كهول وأطفال في ندرة الفحم والدفء.

والموت رخيص حينذاك. وفير.

تحت ثوبـي خوف بثقل الجبال.. رسائل لو قرأها الأتراك لسحلوني بين حصانين، أو أجلسوني على خازوق،

أو رموني من قمة جبل لتنهش جثتي طيور كاسرة، أو قضيت في حبس الدم لا يدري بـــي أحد.

"إليك يا رب أرفع نفسي، عليك توكلت، طرقك عرِّفني، وسبلك ّعلّمني".

رحلتي من تركيا عبر الشام إلى القدس عطلها طقس لا يأبه لهمّي.

قال الشيخ: ننسق مع ماري عجمي لتواجه الأتراك في المحاكم والمعتقلات، وتفنّد اتهاماتهم ببعض ما نملك من وثائق ومعلومات.. تذكر، حياة بعضهم تتعلق بما تحمل من أوراق ومستندات.

رضيت عن نفسي، وكلام الشيخ هدهد حيرتي: للجهاد أبواب كثيرة، أكبرها تحرير النفس من خوفها، وفي الجهاد تتوزع المواقع وتختلف الأدوار.. وأرى أن وجودك في الكهنوت وبيت المقدس يفيدنا أكثر من خلع ثوبك.. عد إلى مدينتك، وبشّر بالحرية والانعتاق من الضيم والعبودية.

وكلامه دواء لحزن نفسي في عجزي عن تغيير مساري.

وأعتقد يا رفيق، أن تقصيري عن ترك الكهنوت في بداية حياتي، كبّلني عن أمور كثيرة بعده... فشل المرة

الأولى في قرار مصيري يضيّع الثقة بالنفس، ويقيم حاجزا في ذهن الإنسان يصعب تجاوزه، اهتزت ثقتي بأني استطيع.. ولو أراد الله ووهبني القوة، وخلعت ثوب الكهنوت لتغيرت حياتي، وربما حياتك.. لكنني، كلما فكرت أن أرفس الدنيا مدت لي لسانها، وسخرت من ترددي.. صحيح أنني وقفت في وجه ذيميانوس، لكن كلاما دون فعل.. ثم تركت له أن يقرر مصيري.. هل حابيته على حساب نفسي؟ أم قيدني الخوف من الحنث بنذر أمي؟

مهما يكن، أضعت عمري في إرضاء الآخرين.

الأمواج الهادرة طاردت سفينة تحمل خوفنا.. رهيب هيجان المتوسط.. وسماؤنا خلعت زرقتها بعد إقلاعنا صوب اللاذقية السورية، تلفّعت بسواد مكفهرّ، والغيوم مثقلة بحملها تنذر بشر.. سكبت غيثها مدرارا، وثلجا التهمه عطش البحر، والسفينة تتطوّح بركابها في دوار عصيب، ودون الشواطىء ضباب ودعاء وخوف.

المهام السرية سامية الهدف تنعش الروح.. تمنح الإحساس بالاختلاف.. تكبر النفوس بالاصطفاء لأمر جلل.. وما صبرني وشد من عزيمتي، ثقة الشيخ ورفيق بــي.. أتحسس أوراقا لا تفارق ثيابــي، والأحلام الخبيثة تراودني، أن يعرف من على المركب نبل ما أفعل... وكلّ

منشغل بصلاته يطلب الفرج.

حين تفيض النعمة عن حاجة البشر واحتمالهم، تنقلب غضبا من رب العالمين، تلاحقت ثلجات شلت الحياة ثم ذابت طوفانا، ولا فلك ينجي الناس، جرفت السيول حواف الجبال والأشجار، وقطعت الطرق، وانهارت بيوت وتكسّرت غابات.

وبين صلاة ورعب رسا المركب في الميناء.. أمواج سريعة أعلنت حضورها بعنف ومنعتنا من مغادرة السفينة.

ذكرت لك يوما أنني وصلت القدس في سنة الثلجات فلم تسأل ولم تهتم.. أسكتتني الخيبة من لا مبالاتك.. صمتك يخيفني.. وعزوفك عن الأسئلة يجرّح روحي.

ألا تدري أن الحديث يطوي المسافات، ويقرب البشر؟ والأسئلة جسور إلى الآخرين، تفتح نوافذ على أرواحهم! وأنت جافيت الأسئلة.. أو ربما تركت لخيالك أن يجيب عليها، فبنى لك عالما من إجاباتك وتصورك.. ألا تدري أن الأسئلة تقود إلى الشك، والريبة والوحدة؟. أوصدت عليك باب وحدتك.. فصرت وحيدا وأنت وسط الناس.

طويل وخطر طريق وصولي إلى حمص ثم دمشق.

التقيت ماري عجمي في مبنى مجلتها "العروس"، شابة

معتدة بذاتها، متحدثة لبقة، لا عجب أن قابلت جمال باشا السفاح، وناقشته في سياساته، في حين خشي الرجال بطشه وجبروته وتحاشوا لقاءه.

وإلى القدس سبقتني أمر بالضبط والتحقيق، عن أسباب الزيارة، وعلاقتي بالشيخ عبد الحميد الزهراوي.

أنني كاهن مهووس بالكتابة، لم يقتنع الحاكم العثماني، والزنــزانة الصغيرة احتضنت خوفي، وتحقيقات تواصلت أيّاما ثم تدخّل ذيميانوس.

مبتسما في سخرية تسامح حاكم المدينة التركي مع ثغرات قصة ملفقة، أراد أن يقبل بدفاع ذيميانوس فتغاضى عن هفوات كثيرة في روايته.. وربما لحسن طالعي، كانت فترة تقارب تركي مع الطوائف لضمان حيادهم، ونذر الحرب العظمى تلوح في السماء، والبلاد تتململ بالجور، وتطالب بحكم ذاتي للعرب.

- جهل هذا الكاهن الصغير، وتشدده في الحرص، دفعاه إلى التستر على سبب الزيارة، ظننا بأنه سر كنسي كبير.. وحتى لو كان كذلك، لا بد من كشفه حين يُتّهم طالب لاهوت برىء بما ليس فيه.. لقد كلفته بالمرور على حمص، ليعود بجواب بطريرك انطاكية وسائر المشرق حول مستقبل علاقتنا مع الجمعية الإمبراطورية الروسية،

والتنسيق بين مطالبنا.. أما بشأن اتصاله بالصحفية السورية فربما ليعرض عليها الكتابة في مجلتها.. والكتابة داء نأمل أن يشفيه الله منه، لينقطع لواجباته الدينية.. أما عن مقالاته في جريدة "الحضارة" حول الهبّة العربية، فمجرد اختلاف في وجهات النظر بين الإكليريوس اليوناني والعربــي، حوار سنصل فيه إلى نتيجة، ولا علاقة لنا بالسياسة، وخلافنا لا يمس هيبة الدولة السنية.

أنقذتني عناية الرب وشهادة ذيميانوس، وبضمان التوقف عن الكتابة أطلقوا سراحي. وتعقّبوا خطوي.

منعني ذيميانوس من أي نشاط، خارج واجبــي الديني.

لم يطل الحال.. هزمت تركيا مع دول المحور.. وبدأنا نضالا جديدا مع الانتداب ووعد بلفور.

باب الـهوى

أعنت العمة حتى سطح الدار في انشغال فريق التصوير باختيار زاوية لبانوراما القدس.

إلى الغرب أحد أبواب السور.. "الباب الجديد"، أو باب عبد الحميد [61].

قال المؤرخ المعني بالدفاع عن عروبة القدس، ومقاومة تهويد البلدة القديمة. وهو يشير إلى دور لليهود نبتت وسط الأحياء المختلفة، والأضواء الكاشفة مع وسائل انذار حديثة تزين أسطحها:

– هو باب طفل في عمر مدينة طوت حقب الزمان ولم تزل، وآخر العنقود في سور مدينة الأديان. أسماه أهل القدس"الباب الجديد" تمييزا له عن أبوابها الغابرة.. أما الحوذيون في عربات السادة، والعاملون في فرق الجنكيات، والعازفون والمغنون فاختاروا له اسما حركيا. "باب الهوى".. قالوا فتحه السلطان التركي ليصل بأهل البلدة القديمة إلى متع الأحياء الجديدة.. باب يصل بعابره

إلى هواه، ويقصّر المسافة إلى مراده والمبتغى.. يفتح على دهشة شارع يافا والمسكوبية، والأحياء الجديدة وحديقة المنشية. تخرج منه عربات الجياد بنسوة سافرات، أو تغطي المناديل شعورهن، إلى محلات الأزياء الفاخرة، وتنطلق دراجات الشباب إلى متنــزه البلدية والملاعب والنوادي، ومقاهي الأرصفة، وحانات ومحلات حي مونتيفوري اليهودي، وضجيج الحياة في الحي اليوناني، ورقصات شبابهم على أنغام البوزوكي تدق الأرض بصخب وحرارة كمذاق أطعمتهم.. واتساع الأحياء الجديدة وتنوع متعها وخدماتها، قضى على حارات الليل في البلدة القديمة، وعلى دور خلع بعض أكبر رجالات المدينة عنجهية الطبقة على عتباتها، وعلى أبواب خمارات اليهود أو اليونان، ودور الجنكيات في باب حطّة.. دور تصحو مع الليل وتغفو مع فجره، رقص وغناء وفرفشة، فتتساوى الرؤوس في لحظة المتعة، ومع نشوة سكر أو في لحظة ضعف، وقّع بعض أبناء عائلات معروفة عقود بيع دورهم ليهود، احتيالا أو تراضيا.. وصادمة الحقيقة إذ تصفع الوثائق وجه الشك.. قاسية. أنكر بعض الأحفاد بيع الأجداد منازلهم لليهود، فردّت صحف إسرائيل بنشر وثائق البيع.. فدحضت أختام السلف ادعاء الخلف في عائلة مقدسية بارزة، اتهمت اليهود باغتصاب دارها، وتحويلها إلى كنيس

أوهير اسحق. ومثلها في حادثة الاستيلاء على مدير أوقاف القدس.. وإمعانا في التشهير والتنكيل روت قصص البيع أو التنازل، ومعها الوثائق.. وجيه مقدسي لم يقاوم الرغبة مع صبية يهودية، فاتهموه بالاعتداء عليها، والله أعلم!؟ فأجبره والدها على التنازل عن داره ثمنا لسكوته، أما ابن العائلة البارزة فأكد أنه باع دار أجداده في لحظة سكر.. وبعد أن راحت السكرة وجاءت الفكرة كتب في وثيقة البيع المسجلة "بعت داري الواقعة في حارة... وملاحقها، من خلف بطريركية الأرمن إلى باب الحبس، عند بداية الزقاق المؤدي إلى المسجد الحرام، مع حوش وحاكورة بشجرتي مشمش وسفرجل إلى المرأة الخنــزيزة الهالكة سيفورا بنت..".

على يمين الباب الجديد أحياء عربية شرّدوا أصحابها، أطالت العمة تأمل حي المصرارة القريب، ودور أحبّة فيه كانت.

– بيت زهرة أمام مستشفى الولادة، الباب مقابل الباب.. واسع مع بستان كبير.. أما بيت حبيب ففي الشارع خلفه.. اليوم الحي كله مع اليهود.. وزهرة سكنت حي الشيخ جراح، أول الشارع.

شعرات الرسول

الطريق إلى بيت زهرة الأنصاري سهل واضح.

أنيقة في منديل رأسها.. متحفظة، تحسب حركتها والكلمة.. هادئة، تبتسم في كبرياء.. وبترفّع استسلمت لباقي أيّامها.

تجتمع الأضطاد في صداقة فتكتمل.. تفتقر زهرة إلى حيوية العمّة واندفاعها رغم تقارب العمر.

– لك ما تريدين، لكن بدون تصوير.

– الصداقة مع ميلادة أبو نجمة.

– زوجة الخوري!؟ أما زالت حيّة؟ أتعرفينها؟

– في البحث عن قصة صداقة نسائية، قال أحدهم ميلادة أبو نجمة وزهرة الأنصاري.

– وهل في القدس من يعرف أو يذكر؟! معقول؟! أو.. يمكن!..

ترشف القهوة وتمسح وجهي بشكها.

– صداقتنا غريبة.. مثل الأفلام.. أنا وهي من عائلات متدينة جدا، ومن ملل مختلفة، رغم هذا التقينا.. عائلتي متعصبة، لم تكن تسمح للبنات والنساء بالخروج، أو الاختلاط حتى مع الأقارب. رغم هذا التقينا وتصادقنا.. لقاؤنا عجيبة.. وتآلف نفوسنا أكثر عجبا.. ومع أن الناس قبل النكبة عاشوا مع بعض.. مسيحيات ومسلمات ويهوديات في مدرسة واحدة، لكن أنا وميلادة لم تجمعنا مدرسة، وما كان لنا أن نلتقي.. أنا تعلمت في الكتّاب حتى ختمت.. وأبـــي طار من الفرح، وزّع الملبس بالشوالات، لكنه قال يكفي.. البنت كبرت وليس لها إلا الدار، وأصرّ، فلم اخرج حتى تزوجت.. رغم هذا التقينا ثم فرقتنا الأحداث.. الصداقة مثل الحب لا تحتاج إلى ترتيب.. التقينا على درج ستنا مريم.. لا تتسحّب امرأة إلى الأنبياء في غفلة عمّن حولها، إلا إذا عجزوا عن فهم أحزانها.. زوجي الشيخ وأهله يخافون الله، تأخر حملي فلم اسمع كلمة تضايقني.. لكن.. جرّح روحي ما في عيونهم.. ثلاث سنوات وأخوات زوجي يحسبن الشهر قبلي.. والوجوه كظيمة كلما دنّس الأحمر طهري.. وفجأة.. أضاء حياتي نور انطفأ سريعا، وجللها بالسواد.. وحده الإيمان ردني عن التخلص من الدنيا ومن فيها.. كرهت نفسي وحياتي.. تخيلت حكايتي حديث القريب والغريب، تسلية وسخرية

وشماتة في استقبالات النساء.. والطبيب يصرّ على أن رغبتي زرعت وهما في أحشائي.. تلقّحْت بضغط نفسي ليرضى من حولي.. كسرتني الحقيقة.. هربت نفسي مني والطبيب ينكر أحلامي، فلحقت بها، أصرخ وهي تركض، ولا تتوقف.. بعثر فرحتي وشهور الأمل.. والشيخ يحملني حرصا على نطفة وبهجة أولى.. وطفل يضنّ بالحركة، وطبيب ينكر وجوده.. طنين عال انطلق من الدور، والحارات، وهاجم أذنيّ، أزيز كاد يفجّر رأسي، وهمهمة هدير لاحقتني. ممسوسة بالجن أغلقت أذني وركضت، والازيز لاحقتي.. هربت لا أدري أين؟ غائبة ارتميت في حضن أمي.. وبإيمان وصبر تقبّل الشيخ الأمر.. لكن.. كل دار ولها مزبلة.. والفخذ المالح في العائلة لم يتركنا.. ثارات وتشف وسخرية جللت عالمي بسواد الإشاعة، أن الشيخ، وحيد والديه لم يصبر، تزوج سرا لينجب.. لا.. غير صحيح الشيخ لم يتزوج!... أكدت لنفسها قبلي.

– وصلت دار أبــي.. مررت بخيام النصارى بين اشجار الزيتون وهي تغطي الجبل.. فانتظرت أول خيوط الفجر ونــزلت الجبل، ودار أهلي والخيام في هدوء النوم.. قلت ستنا مريم أطهر نساء الأرض. خصّها الله بسورة في القرآن دون نساء العالمين، وكرّمها بنفحة من روحه.. ونصف العالم يؤمن ببركتها، ويتحدثون عن

عجائبها. ويأتون ليصوموا في رحاب قبرها.. والنصارى أهل كتاب رغم الطبل والزمر يسلّون به صيامهم، وهي امرأة مثلنا، وجربت قسوة الناس وظلمهم.. والنفوس ترمي أثقالها في بيوت الله.. وعند أنبيائه تلتقي أحلام البشر وأحزانهم.. هبطت بخوفي درج الكنيسة الطويل إلى وادي قدرون.. ونصارى زمان يحتفلون بصيام العذراء أسبوعين في جبل الزيتون، تراتيل وصلاة ومرح يهدأ مع الفجر.. والجبل هدية الخليفة عمر بن الخطاب لأجدادنا، بعد خروجهم معه ليتسلم مفاتيح القدس.. وحين قال النصارى لنا في سفح الجبل صخرة [62] صلى عليها سيدنا عيسى، باع لهم جدي السفح، وبنوا كنيستهم [63].. الحزن على نفسي غلب خوفي نـزلت الدرج، ولا نهاية.. صعقني الرعب وتجمّدت، وخطوات مترددة تتسحّب خلفي وتقترب.. جاهدت واستدرت.. صبية تغطّي رأسها بمنديل تنـزل الدرج مثلي.. قويت كل بالأخرى، ومع صمتنا أكملنا النـزول، وعلى ضوء بقايا شموع ركعنا متباعدتين.. كأنما خططنا لحزن واحد اختلط نحيبنا.. كم بقي رأسي فوق برودة الرخام؟ لا أدري.. جفلت بخوفي ويدها تلامس كتفي.. رفعتني.. أعادني فزعي من غياب روحي.. ووجهها غارق بالدمع، مثلي... قالت أنا ميلادة أبو نجمة.. تعارفنا... تتلقف أحضان الأنبياء ما يعذب

البشر.. فوق برودة الدرج بكينا، وتبادلنا القصص.. تضنّ الأحشاء بالخصوبة فتتوحد عذابات النساء.. وفي دهشتي طلبت أن تزور الحرم.. ومن يرد سائلا عن بيت ﷲ؟ قلت للسماء سبعة أبواب، وإذا لم تسمع استغاثة المحروم من باب دق بابا آخر.. وميلادة دمها خفيف وذكية.. أحضرت لها تنورة طويلة وحجابا. وأمام الصخرة تمتمت بصلاتها.. ومثل مسلمة بكت وخشعت.. ثم طفنا الحرم.. وعند خلوة سلفنا الأكبر جلسنا، حدثتها عن أجداد ناصروا رسولنا في هجرته، ثم خرجوا لنشر الدين، ومكافأة ورعهم وجهادهم منحوهم سدانة الحرم.. شرّفنا بها سيدنا عمر.

بقبول واستسلام غريبين قالت:

– لكنها توقفت عند زوجي.. عاش الشيخ طفلا يتيما، فهبشها الحسينية.. وعندما كبر الشيخ تعب وجاهد كثيرا ليستردها.

– الحاج أمين؟

– لم تكن له فلماذا أخذها؟! من قديم وهي حسبة معروفة.. نقيب الأشراف لهم، وسادن الحرم لنا.. لكن لأن الشيخ صغير ويتيم أخذوها.. المفتي كوّش على كل شيء.. وأخوه قبله.. وحين كبر زوجي طالب بحقه، رفضوا.. وانقسمت عائلتنا.. أبـي مع المفتي

والحسينية. وعائلة زوجي مع النشاشيبية.

تصبح الصور حياة لامرأة وحيدة، تكدّست أو تناثرت في أركان دارها.

صور للشيخ بالأسود والأبيض بأحجام مختلفة.. طويل وسيم ممتلىء في بدلة أنيقة، وربطة عنق وطربوش.. وفي جلباب مع ملوك وأمراء عرب في صالون داره.. مع الأمير عبد الله بن الشريف حسين، ثم مع أخيه الأمير فيصل، وكلاهما ينظر بخشوع إلى علبة مستطيلة متوسطة الحجم يحملها الشيخ.

سألت عمّا يخشع له ملكان.

– لم يبق غير صورها، وجد الشيخ بعض الصور عند مصور الأمير في عمان فأخذها.

أردفت بعد صمت قصير.

– الكثير راح وبقيت صوره.. في العلبة مطربان صغير، فيه ثلاث شعرات من رأس سيدنا النبـي، التقطها جدنا الأكبر أبو أيوب الأنصاري عن وسادته في هجرته إلى المدينة.. والنبـي عاش في داره حتى بنى مسجده وانتقل إليه.. حملها أجدادنا تبرّكا في خروجهم لنشر الدين.. وتوارثناها.. العلبة كبيرة من خشب محفور،

ملفوفة بقطعة مخمل أحمر، ومعقودة بشريط ذهبـــي.. لا تفتح إلا لضيف كبير.. وكلما زار أحدهم القدس جاء دارنا للتبرك بها.. الشعرات الثلاث ضاعت، لكن خصلا غيرها أخذها الأتراك من مصر، ما زالت في اسطنبول [64].

وبفخار أشرق وجهها:

- لنا أقارب أتراك!.. مسؤولون عن مسجد جدنا في اسطنبول.. هم أتراك ونحن عرب، زارونا وزرناهم، وما زلنا على اتصال.. عندما اشتد القصف والضرب على القدس الجديدة، حملنا شنطة صغيرة للعائلة كلها، وهربنا مع الناس والشيخ في الحرم.

- والعلبة؟

- أمام الموت لا تفكر بغير حياتك.. أغلقنا الدار بالمفاتيح، وهربنا بأرواحنا.. تركنا كل شيء حتى نعود، هكذا وعدنا جيش الإنقاذ العربـــي.. القيشاني والكريستال والأثاث والسجاد وأطقم الفضة.

- وشعرات الرسول؟

- الله أعلم.. دارنا مثل باقي الدور ظلت مغلقة، ثم سلّموها ليهود؟ من أخذ العلبة؟ هل عرف قيمة الشعرات أم رماها؟! يهودي أو متسلل؟! الرصاص نـــزل مثل المطر..

حملت ابني وهربت.. شفته بعد طلوع الروح، وربيته كل شبر بنذر.. أخت زوجي حملت الشنطة الصغيرة، والثانية هربت بابنتي، وعمرها ثلاث سنوات.. اليوم عندما أفكر، لا أصدق أني مشيت المسافة، الخوف الرهيب يطرد الخوف العادي. الخوف بلا أرجل. بأجنحة. يطير الخائف فلا يدري بما تحت قدميه.. لا يعرف كيف ركض وأين وصل.. وأصوات الحرب تطاردني؟! ركضت من المصرارة للحرم، لباب المغاربة، ونـزلت وادي سلوان، وطلعت جبل الزيتون إلى بيت أهلي؟!.. وجاء الشيخ! أيوه.. جاء!.. ضياع البلاد صالح أبـي وزوجي.. وبقينا يومين، ثم وصلنا عمّان عند ابن عم زوجي وصديقه مسؤول الأوقاف، وحتى نتبين الأمور.. وعمّان.. لا أوتيلات ولا فنادق.. عشنا أسبوعين في غرفة وحمام واحد حتى لم نعد نحتمل.. تعبنا.. والبلاد ضاعت.. وحين هدأت الأحوال رجعنا إلى البلدة القديمة.. ضاعت بيوتنا لأننا سمعنا كلام جيش الإنقاذ، وصدقنا أنه سيخلص على عصابات اليهود في أسبوعين ثلاثة، صدقنا.. لأن باقي اليهود جيراننا ونتعامل معهم؟ ولم نعرف ما يدور في كوبانياتهم!. ولم ننتبه لإشارات لو فهمنا معناها لعرفنا؟

- اية إشارات؟

- كنا نضحك على يهودي كهربجي كلما جاء إلى الحرم

ليصلح الأعطال.. لم يكن غيره في القدس أول دخول الكهرباء [65]، والمسلمون عاملينه مسخرة وتسلية للكبير والصغير، كان يتوقف عند طرف ساحة المسجد، ويرفض أن يدخل إلى الأقصى برجليه، أو أن يخطو على أرضه، مستحيل! ويقول، لو دفعتم مال قارون لن أمشي على الأرض، فيحمله الرجال على أكتافهم، من باب المسجد وحتى ينهي أعماله، ثم يخرجوا به محمولا إلى الباب.. وكانت تسلية الرجال أن يرموه عن أكتافهم فجأة فوق أرض الحرم، فيبدأ بالقفز والصراخ والاستغفار بالعبراني، ويبكي ويتوسل أن يرفعه الرجال حتى لا يمشي على العشر ورقات.

– يعني الوصايا العشر!. في التوراة أن الله أعطاها لموسى فنقشها على لوحين من حجر في طور سيناء، ثم حفظت في تابوت العهد في قدس الأقداس من هيكل سليمان. وضاعا معا، ولم يعثر عليهما أبدا، ويعتقد اليهود أنها طمرت مع الهيكل، وأنها تحت الأقصى!

– كنا نضحك!! ولم نفهم أنهم سيطالبون بالحرم.. لكنهم عرفوا أننا نضيع أي شيء حتى البلاد مقابل شرف البنات!.

– وفي الهجرة والنكبة انتهت الصداقة مع ميلادة!

– أحيانا تفتر الصداقات وتنتهي بلا سبب.. الصداقة مثل النار، إن توقفت عن تلقيمها بالحطب انطفأت.. ميلادة زارتني مرة وبعدها غابت.. وأنا لا أزور إلا لضرورة.. شغلت بالولدين وبناء هذه الدار بقرض من البنك.. وظيفة سادن الحرم متعبة للشيخ وعائلته.. ضيوف وولائم لا تتوقف.. خروف محشي للملوك، والباقي ضلع محشي، فلم يبق ضلوع خرفان في القدس كلها.. وحوله أشكال من الأطعمة.. شوفي هذه الصورة.. الشيخ خلف الملك عبد الله [66] وهو يدخل إلى الحرم قبل اغتياله بلحظة.. سبحان الله.. لا أحد يعلم ساعته. الملك يبتسم والموت على بعد خطوة.. لو عرف الإنسان ما ينتظره لتوقف عن الحركة.. وهذه الصورة لابني وابنته وابنه.. وهذه لابنتي.. تزوجت شابا متعلما رغم معارضة الشيخ.. رفض، قال ليس من ثوبنا وستتعبين. أصرت.. وما حسبه الشيخ صار.. متعلم لكن عقله فلاح.. تركته.. وابني تخرّج من مدرسة المطران، ودرس الهندسة في بريطانيا، ومن يومها لم يرجع إلا لزيارة.. تزوج بريطانية.. وحيدة والديها.. محترمة.. ما زالت تناديني ماما مع أنه طلقها.. وأكثر ما يعجبني فيها تمسكها بدينها.. ابنه سيتخرج من كلية الهندسة مثله، وابنته تدرس الحقوق.. وفي هذه الصورة أنا مع زوجته.. وهذه مع أمها وأبيها في ساحة كنيستهم..

الصورة لها قصة. سافرت لأرى الحفيدين فسكنت معهم.. بيتهم كبير.. وبالصدفة كان أهلها يحتفلون بعيد؟!.. عيد؟!. يعني سنين على الزواج.؟؟

في خذلان الذاكرة استنجدت بوجهي.

- الفضي أو الماسي؟

- اللي هوّ.. خرجت العائلة وأصحابهم للصلاة ثم الاحتفال.. اسمعهم يتهامسون بعيدا عني، لم يسألني أحد أو يعزمني.. أكيد، قالوا زوجة شيخ، لن نحرجها ونعزمها على كنيسة.. خرجوا وظل ابني معي.. لبست بسرعة وطلبت أن نلحق بهم، فلم يصدّق.. ولا هم صدقوا وأنا أدخل الكنيسة أتعلّق بذراعه.. صفقوا.. ولما انتهوا التفوا حولي يسألونني.. قلت رسولنا تزوج مسيحية، وعم زوجته، القس ورقة بن نوفل، شهد على زواجه من أم المؤمنين خديجة.. وأنتم أهل كتاب، والصديقة الوحيدة التي كشفت لها أسراري زوجة خوري.. والتقينا على درج ستنا مريم، وزارت معي المسجد.. وصلّت وبكت كأنها مسلمة! وكل من على دينه الله يعينه.

- لكن دراسة ابنك للهندسة قطعت إرث سدانة الحرم رغم ما بذله الشيخ لاستردادها؟

- ابني لم يكن لها.. والشيخ عرف هذا وتقبّله.. ولم

يعد لها مستقبل.. صارت مجرد وظيفة في الأوقاف.. يوم أدخله مدرسة المطران ضجت القدس.. قالوا ابن سادن الحرم في مدارس النصارى؟! ما لها الكلية العلمية الإسلامية أو المدرسة الإبراهيمية؟ رد الشيخ، يعني وقفت عند ابني؟ سمّوا واحدا من الأعيان والأغنياء وحتى الشيوخ لا يدرس أبناؤهم في مدارسهم! التعليم عندهم أحسن، وسيتعلم لغات.. سألوه: وسدانة الحرم؟.. قال الزمان تغير.. وابني لم يخلق لها، ولن أثقل عليه بإرث أعرف أنه ليس له.

طلبت أن أنقل سلامها إلى ميلادة.. إن التقيتها.

من أوراق الخوري متري الحداد
آذار 1931

وعدتك أن أشرح أسباب خلافي مع ذميانوس، ورفعه العطف عني ونبذي.

ظاهر اختلافنا جوهر الدين، وتباين الاجتهاد في تفسيره، وحقيقته خوف اليونان على المكاسب ونفوذهم.

وكلي يقين، أنه لو ظل جدّك في البلاد لما آلت الأمور بيننا إلى قطيعة.

بعد حادثة الخلع تكشفت حقيقة ذيميانوس، سقط القناع عن وجه يوناني متعصب، تنكر لحقوق العرب، ولوعده بإنشاء مجلس مختلط.. وما يدعو للغصة والألم، أن بعض عرب الطائفة دافعوا عنه، وجلهم ممن أغدق عليهم عطاياه، وقربهم، أو بعث أولادهم إلى جامعات ومعاهد اليونان. أو تصاهروا معهم، أو كانوا من أصولهم.

بعد مشاورات رجالات الطائفة وكبار الإكليريوس العرب في عموم البلاد، التقينا ذيميانوس ورهبان الأخوية

في اجتماع حاشد، نحمل مطلبا وحيدا، تعريب الكنيسة.

الاحتجاج العربــي والرفض اليوناني زلزلا مقر البطريركية.

كأسد محاصر زأر ذيميانوس، فكشفت سورة الغضب زيف مشاعره.

– الطائفة عربية صحيح، لكن الكنيسة يونانية.. وإذا كانت الطوائف الأخرى قد عرّبت صلاتها، فحتى يتحول ضعاف النفوس إليها بحجة التعريب، بينما هو الطمع في عطاياهم.. وتعرفون أن الإرساليات تحرضكم ضدنا ليتسلم العلمانيون الكنيسة فتنتهي، ويوم شجعكم المسكوب على اقتناص فرصة خلعي، وتنصيب كاهن عربــي، بلا خبرة ولا علاقات مع الدول، لم يكن حرصا عليكم، بل لتفتيت الطائفة.. لكنكم بوعيكم ساندتم قضيتي ورفضتم.. فلماذا انقلبتم علينا الآن؟ ليست الصلاة بالعربية من جعلت للطوائف وجودا في الأرض المقدسة، بل أموال دولهم وعطاياهم وطمع بعض ضعاف النفوس من الطائفة بالبقج [67]. بعد أن اضعف البلاشفة شوكتنا بقطع الموارد عنا، رغم هذا نبقى نحن الأرثوذكس أصل الكنيسة، وعظمنا أزرق لا ينكسر كما يسخرون منا!.. لكنها الحقيقة.. والأصل في كنيستنا الصلاة باليونانية.. لأن اليونان هم من

حافظ عليها، واكتشفوا النور في القبر المقدس، والعذراء والرسل [68] حملوا الرسالة وتعبدوا في جبل أثوس. والله يفهم القلوب مهما كانت اللغة، ويعرف اليونانية أيضا.

وابتسامته الساخرة زادت حنقي.. طلبت الكلام.

– والله أيها المبجل يعرف العربية، ويرضيه أن يحتل العرب مراتب الكهنوت العليا لأنه أرسل المسيح في بلادنا وليس في اليونان.. وظهر بعده نبـي عربـي تحولت نصف القبائل العربية المسيحية إلى ديانته، بكر وتغلب وتميم وغيرهم، وإذا لم ننتبه إلى ضرورة تعريب الكنيسة، فسيتحول باقي العرب الأرثوذوكس إلى الطوائف الأخرى.. وكثير تحولوا لأنهم لا يفهمون ما يقال في صلاتهم، بينما في كنائس الألمان والإنجليز، لا صلاة إلا بالعربية.

كأني كافر في قلنسوة كاهن. ضجت القاعة بهمهمات الاستغفار والاستنكار.

لم يعد ذيميانوس المهذب رفيق ليالي الأنس والحوارات الهادئة.. والطلعة البهية تودّ افتراسي:

– لكن هؤلاء المسلمين العرب، من تنادون بلغتهم وقوميتهم، قبلوا أن تنتقل الخلافة إلى القومية التركية! وخضعوا أربعمائة عام لخليفة لا يعرف العربية، ولا يتحدث أو يصلي بها، بل وخدموا في جيوشه مع أن نبيهم

عربــي! وولد في الجزيرة العربية ولم يولد في تركيا،.. ثم.. ألا يستقبل الله صلاتكم إلا بأورغ وأناشيد بالعربية؟

- لكنكم والأتراك حولتم القيامة إلى سياحة، وضعتم جابيا على الباب، لا يدخل سائح إلا برسوم، فأضعتم هيبة أقدس الكنائس.. رسوم على زيارة بيت الله؟! طيب الأتراك يعتبروننا كفرة يفعلون بنا ما شاؤوا.. لكن؟ ما عذركم في التحالف معهم؟

- نحن نطبق تعاليم الإنجيل في علاقتنا بحاكم البلاد، أن نجلّه ونطيعه لأنه يحكم بسلطان منحه له الله، وفي الإنجيل: أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله.. صرخ منتفضا واحمر وجهه.

- بل أرى، أيها المبجّل، في قول المخلص هذا، أمرا صريحا بأن نخدم الله بإخلاص، ثم نخدم الوطن بإخلاص، ودون أن نخلط واجباتنا نحو الله، بواجبنا نحو حاكم الوطن.. كما يطالبنا بالفصل بين الدين والدولة، لأن الطاعة العمياء للقيصر ستقود إلى تعسّفه.. وفي قوله أمر واضح بأن نخلص للدين، ودون أن نترك الأمر لهوى الحاكم وتفرّده.. ونحن أبناء البلاد قادرون على أن نخدم بلادنا ونؤدي واجباتنا نحو الله والطائفة، وبالإخلاص نفسه.

– وهل تفهم جوهر الدين أكثر من آباء الكنيسة تقدست أرواحهم؟ وكيف تعطي لنفسك حق التطاول على تفسيرهم، وتفتي نيابة عنهم؟ إذن ما رأيك في قوله، لا يستطيع الإنسان أن يخدم سيدين؟ لأنه سيبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر؟

تجاهلت سخرية السؤال:

– قال هذا عن الله والمال، وليس عن الله والوطن.. واهتمامنا بقضايا الوطن، والدفاع عن كرامة الطائفة وأرضها واجب، وهو لن يلهينا عن واجباتنا الدينية ولا يتعارض معها.. لذا جئنا نطالب بحق العرب في إدارة كنيستهم.

– المسلمون عرب.. أنتم مسيحيون، والمسلمون لا يعترفون بعروبتكم.. ولأنكم أقلّيّة تخشونهم وتتمسحون بهم، وتحاولون إرضاءهم بدعوات ابتدعها العلمانيون من الطوائف المسيحية مثل القومية العربية!.. وهذا حال الأقليات دائما.. المزايدة والرياء لتقبل الأكثرية بهم.

– ليست رياء بل إيمانا، ولم نكن أقلية، وعددنا اليوم في القدس يتجاوز سبعة وعشرين ألفا، لكن ممارسات الأتراك دفعت الشباب إلى الهجرة والعدد يتناقص.. وأنتم لم تدافعوا عنا، بل تحالفتم مع الأتراك ضدنا.. وتعرف أيها

المبجل، أن العرب الأرثوذكس هم نسل الجبابرة.. كنعانيون وغساسنة وفلسطينيون، مذكورون في التوراة.. وإلى القدس تأتي الأقوام وتذهب من كل فج وصوب.. تزول ممالك وتنهض أخرى، ونحن فيها لم نتزحزح مع احتلال أو غريب.. قلت وأنا أعرف أنه يتقن العربية، ودرس التاريخ وأنساب القبائل والعشائر ويعرف عادتها.

دق ذيميانوس الأرض بصولجانه مرات، وفض الاجتماع.

ومن على كرسيه المذهب تقدّم نحوي، أمسك بثوبـــي من الصدر وشدني، حاولت الثبات:

- حتى أنت! أتنكر ما فعلته من أجلك وتتطاول علي؟

- بل أدافع عن حق العرب أيها المبجل.

- ما زال الشيخ الحمصي ورفيقه يعششان في صدرك، وينطقان لسانك.. دع القومية العربية تنفعك كما نفعت غيرك.. عادونا فلم يعترف بهم المسلمون، وظلوا في نظرهم نصارى.. ولولا أنني أحفظ لوالدك الود وواجب الصداقة، وأقدّر ما فعلتماه من أجلي يوم العزل، لحرمتك من كنيستي وطردتك.

لم أقل إنها كنيسة الله، وليست دار أبيه ليحرمني

منها، وليس لليونان في القدس ما لأجدادي، وأن الندم يأكلني لما فعلناه من أجله.

طلب أن أغادر. رفع عطفه عني، وأقصاني عن مقّره.

ولعلك تعرف يا رفيق، أن سيطرة اليونان على الكنيسة الأرثوذكسية الأوروشليمية تمت بالحيلة؟ قبل قرون طويلة. يوم رحل آخر بطريرك عربـي للطائفة، عطا الله حنا مثلث الرحمات العام 1534.. أضعفوا شوكة الكهنوت العربـي، وأحكموا قبضتهم على أملاك الكنيسة وإدارتها.. ويوم أشرقت شمس اليونان عليها غربت عنها شمس العرب.

ولأننا العرب طيبون ويسهل خداعنا، نثق بالغريب ونكرم وفادته، "أكلنا خوازيق" كثيرة، وانتهت الأمور دائما لغير صالحنا، فالسياسة لا تعرف حسن النوايا، ولا المجاملة في قضايا مصيرية.. ربما لهذا وصفنا الجاسوس البريطاني لورنس، بأننا "أصحاب البدايات الجميلة والنهايات السيئة"، فنحن لا نحسب العواقب، وكثيرا نندفع بعواطفنا في أمر فتفاجؤنا نتائجه، حينها نكتشف سذاجتنا واستغلالنا، فنهب بعنف لهدم ما شاركنا في صنعه.

في الزمن القديم يا رفيق، قبل خمسة قرون، أحبت الطائفة العربية المطران اليوناني الشاب جيرمانوس

واعتبروه منهم.. راهب يوناني تعلم العربية وأتقنها مثل أهلها.. درس التاريخ، وساح في البلاد، وعرف تقاليدها وعاداتها.. لهذا لم يقاوموا تدخل الأتراك المباشر، وغير القانوني، في سابقة خطيرة في تاريخ الكنيسة، بصدور فرمان من السلطان سليمان القانوني، يعيّن به جرمانوس بطريركا للطائفة بعد موت المبجل عطاالله حنا.. تدخُّل الأتراك غيّر مسار الكنيسة الأرثوذكسية، ففي ثلاثين عاما من بقائه على الكرسي، وبخطة محكمة، جرّد الكهنوت العربـــي من أي دور في إدارة أملاكها، أو الرقابة عليها، وأنشا رهبان أخوية القبر المقدس، كأعلى مراتب الكهنوت بعده، ومن اليونان وحدهم.

هل ارتبطت سنوات جيرمانوس بثلاثين من الفضة باع بها يهوذا [69] سيده؟.. ثلاثون ضيّعت سطوة العرب بالمكر والحيلة، بإصدار قانون يجبر الخوارنة العرب على الزواج، ليحدّ من ارتقائهم... ثم توّج الأتراك واليونان تحالفهم ضدنا بصدور نظام" السينودس"، أو المجمع من اليونان، وبموجبه ينتخب البطريرك من بين رهبان الأخوية، وبأصواتهم وحدهم.

وما يدمي القلب أن مقاومة الطائفة في هبتين عظيمتين، لم تفلح في تحصيل أي حق.. أطاح بهما تحالف المصالح.. وتعزّزت مكانة اليونان من علاقات البطريرك

بأعيان البلاد، والحكام الأتراك، وكبار العاملين في دواوينهم، جاملهم في كل مناسبة، وقدّم لهم صرر الذهب والهدايا، بينما طائفته بلا رعاية، إلا من تزلّف إليه أو حاباه.

وتحالف الأتراك واليونان أساسه إحساسهما بخطر دعوة القومية العربية.. لهذا هبوا لقمعها، بطش الأتراك بالهبة الأرثوذكسية ضد اليونان لتعريب الكنيسة، ووصفوها بـ "دعوات هدّامة من علمانيين كفرة.. وهجمة على الإسلام بهدف تفكيك الخلافة الإسلامية".

هبتان للطائفة اهتزت بهما القدس.

الأولى قبل مولد جدّك بعامين، 1860. قصة كفاح تناقلتها الأجيال.. وصلت أنباء عن ثورة كنائس روسيا ودول البلقان ضد اليونان وانفصالهم عنهم.. قدوة وشرارة صارت ثورة المسكوب.. والثورات تعدي.. كالأمراض تنتقل بالتواصل، تصاب بها دولة فتمتد إلى أخرى.. تؤلم مثل داء، لكن الشفاء منها يجدّد الروح وينعش البدن.

كثيرا أتفكر وقوفك في وجهي رافضا متحديا:

– لن أذهب إلى قدّاس لا أفهم ما يقال فيه، لا في يوم أحد ولا غيره، ولا إلى كنيسة تتعمّد فيها وتتزوج، ثم يصلى عليك ميتا بلغة ليست لغتك، ولا يقين عندك في ما

إذا كان اليوناني يلعن سنسفيل جدودك، أم يصلي عليك.

زجرت كفرك وتطاولك على الكهنوت، لكن قلبـــي امتلأ زهوا، ويتألم مثلك.

الهبّة الثانية تفجرت في عموم البلاد، وجميع النفوس من تابعي الخلافة تنتظر خلاصا لا تدري كيف يأتي؟ والناس "عايفة التنك" من فقرها، والتجنيد السخرة، والضرائب، وأوبئة وجراد وقحط.. وحين يغضب الرب على عبيده يتركهم للطبيعة فتجور.. تقسو وتتجبّر.

كنفير حرب في صباح رائق دوّت الأجراس.. وفي غفلة من الجميع اعتلى شباب الطائفة أسطح المنازل.

احتلوا الكنائس والأديرة ومقر البطريرك، وطردوا العرق اليوناني كله، وأعلنوها كنيسة عربية، وطالبوا بانتخاب بطريرك عربـــي.. ثم تعالت الصلوات بالعربية من الكنائس والساحات والشوارع.. مع أهازيج وأشعار وطنية، وهتافات قومية تؤكد عروبة الطائفة.. واتّقدت شرارة الثورة في كنائس فلسطين.

مفاجأة بلبلت اليونان، لكن تحالفهم مع الأتراك أجهض الثورتين.

هي السياسة يا رفيق تلبس مسوح الدين.. منع

العثمانيون نسائم التحرر، سدّوا منفذا لاستقلالنا، وشوّهوا نضالنا.. قالوا: "عصيان نصارى كفرة، ودعوات شاذة عن هوية وقومية عربية، وحقيقتها حرب مستترة على الإسلام والخلافة". أخرجوا الشباب من الكنائس بالقوة.. قتلوا أربعة، وحبسوا العشرات، وأعادوا ذيميانوس إلى مقره.. طوّقوا الحواري بالجنود. سدّوا الأزقة والدروب، ومنعوا خروج النصارى لصلاتهم.

لكنها القدس.. المتجدّدة أبدا نعمة ودهشة.

لم ينذر صباح الجمعة بما هو غير عادي، حتى اعتلى الشيخ كامل الحسيني مفتي الديار منبر المسجد.. والأقصى يعج بالمصلين من أنحاء البلاد.. اشتعلت النفوس بكلمات الشيخ حين صاح: "ما حدث في القدس ليس قضية نصارى، بل قضية وطن".. شرح حقيقة ما جرى، وبيّن أسباب الهبّة، وفضح موقف الأتراك واليونان.

كزلزال اهتزت القدس.. والمظاهرات العارمة قادها الشيخ إلى المتصرفية العثمانية.. هتف المسلمون بعروبة كنيستنا، وطالبوا برفع الحصار عن العرب المسيحيين.

هبّة المسلمين من أجلنا أخافت حاكم المدينة التركي، أطلق المعتقلين، لكنه نفى ثلاثة بتهم نشر التعصب، ومحاولة تقويض الخلافة، وبث دعوات هدّامة... وفكوا

حصار النصارى.

ولم يكن قمع الأتراك للهبّة الثانية حرصا على اليونان، أو تجاوزا لكراهية تاريخية دموية بين الشعبين، بل خوفا من فكر جديد بدأ يشع في بلاد الشام.. وبهذا اعترفت الحكومة في صحفها الرسمية، وهي تبرر عنف العسكر.. فكتبت صحيفة "تركيا الفتاة":

"ونصارى بلاد الشام يأتون ببدع هي فتنة عارمة ستقوّض خلافتنا.. فالقومية العربية تعني توحيد العرب ضدنا، والمطالبة بتعريب الكنيسة شرارة حريق لن نستطيع إخماده.. وإذا انتشرت هذه الدعوة بين الشعوب العربية المسلمة، فستنتهي خلافتنا لا محالة".

زاهدا بين رهبان جبل أثوس في اليونان، وصلتنا أخبار الهبة الأرثوذكسية الثانية في القدس.. قبل شهور من تعرّفي إلى صديقي الحمصي، رفيق رزق سلّوم، وانتمائي لمجلس صديقه الشيخ عبد الحميد الزهراوي.

كثيرا حزنت نفسي واليونان القادمون من البلاد يتوددون إلي، بل وهنأني بعضهم! قالوا موقف أبيك مشرّف، وإخلاصه للكنيسة لا يرقى إليه شك.. حافظ على وحدتها، وساند البطريرك ضد الدعوات العنصرية من بعض شباب العرب.

وليسامحني الرب، غمرني الخزي.. عربــي مسيحي يناصر اليونان ضد طائفته؟! وشيخ مسلم يقود مظاهرة عارمة تطالب بتعريب كنيسته؟

مشاعر ثائرة رافضة تمنيت أن يعرفها الآخرون.. أصرخ بها ليسمعها من حولي.. ازيح صخرة جثمت على صدري، وليس أقرب من قرطاس وقلم.. وأفكار وأحاسيس لحظتي تلك هي أساس مقالي الأول.

قررت مناقشة جدّك حال عودتي ليرعوي عما هو فيه.. ولم أفعل.. شغلتني معركة عربية يونانية جديدة، وانقسام الطائفة حول إنشاء مجلس مختلط، ثلثا أعضائه من العلمانيين، والثلث من رهبان اليونان لإدارة أملاك الكنيسة، والخلاف أكبر من لوم أو عتاب، انقسم حوله عرب الطائفة كما اليونان أنفسهم.

قال ذيميانوس: مطلب ممكن، فالعرب هم الطائفة، وأهل البلاد.

انشق اليونان.. الأخوية ترى في المجلس ثورة ضدهم، وإنهاء لوجودهم، وذيميانوس يصر على استعانة جزئية بالعرب، ليس حبا بهم، لكن وكما نقل عنه في مجالسه: رجالات الطائفة من أصحاب صحف كبرى، كتّاب وأدباء وسياسيون، وصلاتهم واسعة مع زعامات البلاد

ومصر والشام.. وإيمان هؤلاء بأن القومية تسبق الديانة، أشد خطرا على وجود اليونان وسيطرتهم، من إنشاء مجلس يرضيهم.

وفي حدة الخلاف اليوناني، وقعت أشهر حادثة في تاريخ كنيستنا.. فطوينا صفحة الماضي، وساندنا ذيميانوس وهو يدفع ثمن رأيه.

لكل إنسان نقطة ضعف تتحكم فيه، وتصبح مفتاح شخصيته.. ولو أدركها من يتعامل معه، فسيقوده حيث يشاء.

وضعف ذيميانوس في نـزقه وعصبيته.

طلب رهبان الأخوية اجتماعا معه.. وحين دخل هبّوا في هجوم منظم، انتقاد وتجريح، واتهام بتقويض الكنيسة إذ يسلمها لعلمانيين.. تجلد واحتمل.. نفّذوا المرحلة الثانية من خطتهم، سفّهوا أفعاله، سخروا من اقواله، تغامزوا وجرّحوا، نعتوه بالجبن ومحاباة العرب، وصاحوا بصوت واحد: لست واعيا ولا حريصا على الوجود اليوناني، والأفضل لك ان تستقيل.

اهتاج، زادوا جرعة التهكم، نالوا من تصرفاته، ضخموا الغمز واللمز وما يقال عنه في المجالس.. نفذ صبره وترك الاجتماع.. وهو ما أرادوا.

زلزلت السماء لهول ما حدث! زوّر الرهبان استقالة البطريرك ووقعوها عنه!

ولخطيئة عظيمة كهذه، بلبل الله أفكارهم! انقسموا ثم تراجعوا، لكنهم أقالوه بما لهم من سلطة.

"خلع البطريرك ذيميانوس من الكرسي البطريركي لعدم اقتداره على القيام بأعباء وظيفته الروحية، وتقصيره في اكتساب الثقة والاحترام لنفسه، ولأنه داس على مبادىء الأخوية المقدسة، وقوانينها الداخلية، وشرائعها الجوهرية، وقراراتها الدينية".

وحاكم القدس العثماني صادق على قرارهم.

إلى المدن والقرى طيّر جدّك التلغرافات والمراسيل.. دقت أجراس الكنائس والأديرة في عموم البلاد دقات الجنازة، وتظاهرت الطائفة ضد رهبان الأخوية وقرار العزل.

مباركة أنت يا أوروشليم بين المدن.

مذهلة قدس الأديان، قادرة على التوحد حين يصيب الخطر أحد جناحيها.. تواصلت الاجتماعات الغاضبة في النادي العربـي الأرثوذكسي.. مسلمون ومسيحيون، أعيان، وأصحاب صحف، ورؤساء أحزاب، ومفتي الديار،

ورئيس سدنة الحرم ورئيس البلدية.

والمسيرات الغاضبة من الملّتين سارت إلى مقر الحاكم التركي، نددت بخلع البطريرك، وطالبت بإعادته، إنشاء مجلس مختلط.

عاد ذيميانوس إلى مقّره.. وعصفت رياح الرفض اليوناني بالمجلس المختلط.

لماذا أسهمنا في إعادة ذيميانوس؟!

لاعتقادنا بأن الله قادر على تغيير النفوس. وخوفا على الطائفة من مزيد من التشرذم، والتحول إلى الطوائف الأخرى.

خطأ واحد ما زالت الطائفة تدفع ثمنه، حين أضعنا نصيحة المسكوب.. قالوا: فرصتكم فلا تضيعوها، انتهزوا الخلاف اليوناني، وتخلّصوا من سطوتهم، ولا تطالبوا بعودة البطريرك بل باستقلالكم عن اليونان.

انقسام الطائفة الشديد بين موافق ورافض للنصيحة، أنذر بفتنة كنا في غنى عنها، خشينا على طائفة قدرها أن تحارب محتل الأرض ومحتل العقيدة.

أما مكافأة ذيميانوس لجدّك فابتعاثي إلى أنطالية ثم أنقرة.

تركيا حين وصلتها، خليط أعراق وأجناس ولغات.. طلاب علم.. تجار وموظفون في الجيش والحكومة، وسؤال كبير يحتل مجالسهم، يبشّر بوعي وليد عن "هوية قومية" لشعوبهم، وشكل الارتباط بين أمصارهم والخلافة.. أفكار استشرت مثل نار في هشيم.

واستهلال القرن العشرين، هو زمن البحث عن القوميات.. حركات فكرية وشعبية في أنحاء العالم سعت لترسيخ هويتها.. أفكار توشّحت بنبلها، وإيمان عميق بدوافعها والتضحية من أجلها.. لكنها جميعا افتقرت إلى توحيد جهودها لتثمر.

الأفكار العظيمة بذور تطرح سنابلها في أرض أعدت لزراعتها.. الفكرة العظيمة نجمة، شعاعها وحده قاصر عن إضاءة درب المسافر، لكنها تسطع نورا وهاجا وسط مجرّة أو ثريا.. والوعي بالقوميات في أقطار الخلافة، بل وفي دول تقدمت عليها، بدأ عشوائيا غامضا.. مثل فقاعات جريش يغلي في قدر.. يرتفع ويهبط وينفجر، وكثيره يتكسّر ويختفي قبل أن يتماسك، لهذا تصارع العالم في حربين كونيتين ولم يكتمل النصف الأول من القرن العشرين.. كانت المشاعر القومية عند معظم شعوب العالم تغلي وتفور، وكل يريد إحياءها، أو استردادها، أو فرضها، أتراك، وعرب، ودول البلقان، والأوروبيون جميعا.

وحدهم اليهود كانوا الأكثر تنظيما بينها، واشد وعيا بما يريدون.. وبصبر وحنكة عملوا على إحياء قومية تبعثرت آلاف السنين، هدفهم واحد، لم شتاتهم من اصقاع الأرض.. وإلى الأستانة زحف علماؤهم وتجارهم وخبراؤهم.. من أوروبا وأمريكا، يعرضون خدماتهم لتحديث دولة الأستانة، ونقل الخبرات إليها.. وكنبع هادر تشعّبوا في دواوينها ودوائرها ومقر حكمها.. رسموا بعض علاقاتها الدولية، وسياساتها الداخلية.

تصور يا رفيق، معظم الوفود العثمانية إلى محافل الدول ومؤتمراتها لا حديث لها غير قضية اليهود!.. وفود تركية رسمية تستذكر معاناتهم منذ السبــي العظيم إلى بابل استدرارا للعطف؟!.. وتمعن في تصوير شتات شعبهم وتمجيد لغتهم وديانتهم.. لهذا قال جاك روتشيلد، أحد زعمائهم "أسّس اليهود وطنا قوميا لهم في تركيا، قبل أن يقيموه في فلسطين"!.

هل سمعت عن الدونمة؟

جماعة تركية ظاهرها الإسلام، وباطنها اليهودية.. عرفها العالم في أول عملية تبادل رعايا سجلها التاريخ! نقلهم العثمانيون من سالونيك اليونانية، بعد قرون من العيش فيها، إلى مقاطعة أزمير التركية، مقابل إعادة العرق

اليوناني في المقاطعة، بعد عدة مذابح من الأتراك تعرضوا لها.

الدونمة تمسكت بقوميتها سرا، وفي الخفاء أقامت شعائرها، وبدأب نشرت أفكارها، ولارتباطها بالماسونية استقطبت تأييد الحكومات.. وتعاطفت الشعوب مع مطالبتها بإقامة وطن قومي لليهود، ولم يفكر أحد بمن سيدفع الثمن، وعلى حساب أي شعب؟

أمور كثيرة ما كنت أعرفها إن لم يسحبني قدري إلى مجلس الشيخ عبد الحميد الزهراوي!

يصبح العالم أوسع، وفهمك له أعمق إذا فتحت عقلك لتراه، وقلبك لتحبه.. المعارف والأفكار العظيمة طبق شهي، سهل الهضم، في مجالس أهل العلم، إذا كنت من مريديهم.

لمجالس العلماء هيبة.. أدب ودين وسياسة وفلسفة وشعر وأساطير الأولين.. وإذا ارتوت الأفكار من فنون العالم وآدابه سمت بأصحابها.

كيف وصلت مجلس الشيخ الزهراوي؟

أمر غريب!.. لكنه حكايتي.

أثناء دراستي في أنطالية، وصلت أخبار عن عصيان

شمل عموم بلاد الشام، وهجرات جماعية للشباب العرب من التجنيد الإجباري.

مشاعر جيّاشة فاضت عن ثوب طالب لاهوت.. ودفعتني إلى التعبير عنها كتابة مرة أخرى. أخرجت ما كتبته عن الهبة الأولى واضفت ونقّحت، شرحت الأسباب، وصفت وعي الشباب بالقومية العربية، ومنافحة التسلط اليوناني، ودفاع المسلمين عن تعريب كنيستنا.

لست كاتبا محترفا، رغم مقالات عدة نشرت لي.. لكني أعشق الورق والقلم.. الأفكار تحاصرني وتصطادني مثل سمكة في شبكة صيد، ويتبدّى لي قلق عظيم.. تقيدني حتى أمسك بخيوطها وابدأ بسحبها وتفكيكها، وأعيد تشكيلها فأخرج من أسرها.. وكثير من الأفكار حملني إلى تخوم الشك.. كانت اسئلة ملحة متسلطة، عن الكون والوجود والحياة.

"ارحمني يا الله حسب عظيم رحمتك، حسب كثرة رأفتك أمح معاصي، اغسلني كثيرا من إثمي".

أفكار خبيثة أزعجت تعبّدي.. تسحبني من صلاتي فأتعوذ من شيطان لا يكف عن تجربتي.. تراتيم غواية يرتلها في أذني، تعارض إيماني، تتنافر مع قلنسوة كاهن.. صليت وصمت.. قرأت تجربة المخلص على جبل قرنطل

مرات.. تصبّرني فأتماسك، فيزداد إبليس شراسة لإغوائي، ورغبة في قهر صمودي.

وأنا المتوكل على الرب، والرحمة تحيط بــي.

أرسلت المقال إلى جريدة "الحضارة".. وختمته مستشهدا بتحية القدس إلى شباب الهبّة الأرثوذكسية الثانية:

"والقدس تحيّي الشباب الغر الميامين، شباب فلسطين الناهض، من يضحّون بكل مرتخص وغال في سبيل الحصول على أمانيهم القومية، رغم أنف المكابرين ومن أذلّونا أجيالا، ونحن غافلون خاضعون أمام القلاسن [70] السوداء، ساجدون بذلّة".

فاض قلبــي بالكلام، ولساني قلم ماهر.

والانتظار قاتل.. قضم الشك نومي، هل تهتم جريدة مرموقة بكاتب مغمور؟! وأسماء كبار الكتّاب والشعراء والسياسين، من أقطار العرب، تطرّز صفحاتها؟. عباس محمود العقاد، وطه حسين، وأمين نخلة، ومي زيادة، وجبران خليل جبران، وعبد الرزّاق السنهوري وغيرهم.

و"الحضارة" جريدة عربية ذات قيمة وجرأة وسعة انتشار.. صدرت في الأستانة.. تسابق العرب على

قراءتها، ولا غرو، فصاحبها الشيخ عبد الحميد الزهراوي الحمصي، ومحررها رفيق رزق سلّوم.. نشرت لي سلسلة مقالات، لكنني، ويا للأسف.. أعدمت ما حملت من أعدادها في محنتهما، وخوفي من ملاحقة الأتراك.

والكتابة بوابة عبرت بــي إلى عالم مختلف، يشع فكرا ومعرفة.

صعقتني الإشارة إلى مقالي على الصفحة الأولى.. زهو لم تعرفه حياتي.. لا مثيل لسحر حروفك منشورة للمرة الأولى، ولا نشوة تعادل أن ترى اسمك مطبوعا أول مرة.. أن تتعمّد كاتبا على صفحة جريدة، هو اعتراف الآخرين بمقدرتك، فترتفع بوهم أن البشر يعرفونك، ويقدّرون اختلافك وتميزك.. النشر الأول تأكيد على أن ما أرسلته خائفا غير واثق، استحق تقدير العارفين.. ثم يهدأ شعور الزهو بالاعتياد، كما في كل أمر.

النشر الأول كالحب الأول، عواطف محلّقة ساذجة واهمة، لكنها تنغرس عميقا فيك.. قراءة اسمك مطبوعا تهز وجدانك، فتعشق حروفه.

نشروا المقال فخامرتني أوهام والدي، أن نجمي لا بد ساطع.. مشاعر مدهشة لم تدم طويلا، تكسرت على صخرة الواقع.

مرات قرأت المقال.. بحثت في جمله عمّا أقنعهم بنشره.. وحلّقت بالثقة مع جملة ذيّلته: "ترجو إدارة الجريدة من الكاتب الاتصال بها للأهمية."

فتحت لي الكتابة عالما رحبا ما كنت ألجه بدونها.

في الأيام تلك، احتارت المشاعر القومية حول شكل المستقبل.. أفكار كثيرة افتقرت لرؤية واضحة، تجاذبتها مسألتان لا مجال للوقوف بينهما، أو إمساك العصا فيهما من وسطها: الدين والعرق.. أخوّة دينية وخضوع لخلافة مسلمة لا تُخفي عنصريتها؟ أم عروبة يجمع الألم أمصارها، وأقصى أمانيها حكم ذاتي تحت جناح الخلافة؟

حيرة لم تدم طويلا، حسمها وصول جمعية الاتحاد والترقّي إلى الحكم، قطعت عنصريتها الطاغية آخر الخيوط مع الخلافة، وقلبت الموازين.. بعثت خيبة الأمل، ثم الرفض والعصيان لأن حكامها حنثوا بوعود قطعوها، فلا عدل ولا مساواة بين الطوائف والأعراق، ولا حكما ذاتيا لأحد.

سؤال كبير جاور فرحي في القطار إلى مقر جريدة "الحضارة" الأسبوعية في الأستانة: ما الدافع لإنسان أو أمة أو عرق ليعتقد بأنه مخلوق من غير طينة البشر؟ له ما يحرّمه على العباد؟ ألسنا من تراب وإلى التراب نعود؟

أي سعار يصيب الناس ليحتقروا من حولهم؟.. وبطش حكام الاتحاد والترقي طال بعض دعاة القومية العربية.. وتتريك وظائف الدولة والجيش ماض على قدم وساق.

أذهلني مقر الجريدة.. لا يشبه ما تخيلت.. تصورته واسعا يشع رونقا، ويليق بمنارة فكر، فدور الجريدة، وشهرة كتابها ارتبطا في مخيلة غرير مثلي بالفخامة والأناقة.

غرفة واسعة، مقاعد متراصة، وطاولتان.. وراء الأولى شاب منهمك في عمله، أوراقه مكدسة بغير ترتيب، وطربوشه فوقها، وادوات حبر. وسيم في بدلة أنيقة، وشنب رفيع.. خلفه رفوف ناءت بكتب مجلدة، بالتركية والعربية.

تلقّف حيرتي.

حرارة لقائه أذابت ثلج ترددي، طمأنت وجلي، رفيق رزق سلّوم محرر الجريدة.

– رأيت فيك بعض أفكاري وطموح نفسي، فأردت أن أراك.. اكتب المزيد.. عن العرب المسيحيين في فلسطين. مدارسهم وحياتهم ونضالهم العربـــي.

وبإعجاب سأل عن خليل السكاكيني، وروى تفاصيل ما

أجهل عن هذا المقدسي.. فكره، وعروبته، وعلمه وشغفه باللغة العربية، ورؤيته في التعليم.

– مثلك، نذرتني أمي لله، فنذرت نفسي للوطن، استنكفت عن دراسة اللاهوت وتحولت إلى الحقوق، وعملت في "الحضارة".. قلت هكذا أعطي قيصر ما يستحق من المساءلة، وأخلّص منه حقوق الناس.. أما ما لله عند الناس، فهو أقدر على تحصيله منهم.. وابتسم.

الجلبة تسلقت درج الجريدة.. وكلمات الغضب سبقت ظهوره.. دخل شيخ جليل، شاب وسيم، يحف به مريدوه.

– عار وخزي سكوتنا بعد اليوم.. تجاوز الأمر كل احتمال.. لم يتوقف التمييز والعنصرية عند أناشيد الجيش في الطوابير الصباحية، وهي تمجد العرق التركي وتلعن كل آخر، وترددها فيالق العسكر أينما ساروا، ودون احترام لمشاعر المجنّدين سخرة من الأعراق الأخرى؟ أي جور هذا؟!. واليوم اتخذت القضية منحى أشد خطورة، فما قيل على منبر مسجد أيا صوفيا في صلاة الظهر، فاق كل ما سبق من عنصرية.. هو الكفر البيّن!. لقد بلغ السيل الزبى في تعنت قادة حزب الاتحاد والترقي.. أي طغيان هذا؟! تصوّر يا رفيق!. سلمنا وأنهينا الصلاة، وجلسنا نستمع لخطبة الشيخ عبد الله الأفغاني، والرجل من كبار قادة

الاتحاد والترقي، فلم أصدّق ما أسمع.. من على منبر المسجد، طالب بتقديس الشعب التركي!. ودعا إلى تبجيل رجال الحزب وما يمثّلون! ثم غلبه تعصبه فجاهر بكفر صريح!.. خذ.. انشر كلامه على الصفحة الأولى، كتبت بعض ما قال في هذه الورقة، لا يمكن لنا كعرب ومسلمين القبول بدعوات الكفر هذه.

وبغضب أعطى الورقة لرفيق، وجلس إلى طاولته.

قرأ رفيق ما فيها واسمع الحاضرين: "ايها العثمانيون إنكم تتركون تقديس سلطان قوي الشوكة، مثل حضرة الفاتح صلى الله عليه تعالى، وعلى أصحابه وسلّم، وتوجهون احترامكم لشخص خيالي موهوم كالخضر الأخضر والخزعبلات حوله".

كان صوت رفيق عذبا مليحا.. يشبه من نسمعهم اليوم من إذاعة القدس أو الشرق الأدنى.

- وهل نقبل أن يصلي الله على غير نبيّه.. أيجوز هذا؟

وما زال الشيخ ثائرا توزع الحاضرون، جلوسا ووقوفا، وبين همهمات الاستنكار والرفض، في مكتب اكتظ حتى بابه.

للعلماء هيبة لا تضاهى.. تنير وجوههم هالة من نور العلم.

والغضب سيّد المكان تمنيت لو جئت في يوم آخر.. لا مساحة لظهوري في انشغال الشيخ بقضية كبرى. واحتشاد المكان سيحول دون التفاته إلي.

بتواضع جم، نسي الشيخ غضبه ورفيق يقدمني... وبحرارة وود رحب بــي.. سألني عن القدس وأهلها، وأحوال الناس في عموم البلاد.. ثم.. ويا للعجب! أثنى على مقالي.. وفي دهشتي وإصغاء من حولي، ناقشني في تفاصيله.

أذهلني الشيخ وأدخل السرور إلى نفسي.. عالم فقيه، وسياسي مناضل، وصحفي قدير معروف للعرب جميعا يتابع ما تنشره جريدته؟ حتى المقال الأول لكاتب مغمور؟!

هي النفوس الكبيرة يا ولدي.. رئيس مؤتمر باريس، وعضو مجلس المبعوثان [71] في تركيا، وأحد أصحاب الدعوة إلى حكم ذاتي للعرب يهتم بغرير مثلي؟!

دأبت على حضور مجلسه.. بهرني تقبله السمح لأي فكر يخالفه.. يصغي ولا يقاطع.. يناقض دون تسفيه أو تشدّد.. يناقش ثم يترك للسامع الاقتناع من عدمه.. لا عجب أن كانت نهايته فوق أعواد المشانق مثل كل حر

شريف، ومعه تلميذه ومريده رفيق رزق سلّوم.

في مجلس الشيخ الزهراوي تعلمت الكثير، وتعزّزت صداقتي برفيق، وهي على قصرها غيرتني كثيرا.

جلسات فكر وأدب وسياسة ختمها أحيانا عزف رفيق على عوده، فيطرب شيخه.

وصدق الشيخ في ما سمعته منه يوما قال: حركة الكون كله عزف لا مثيل له.. التناغم في حركة النجوم.. حفيف الأشجار، صخب الموج، صهيل الريح، موسيقى ساحرة، هادئة أو صاخبة لا يهم، كل منها يحرك المشاعر، بنشوة أو فرح أو حزن.. تجنح حالمة، أو تهزّ بالرهبة والانتباه.

كان مجلس الشيخ الزهراوي لقاء مفتوحا للمؤمنين بالقومية، ملل ومذاهب وطوائف، فالحرية عنده انعتاق من إسار التعصب والضغينة.. قول له انغرس في ذاكرتي ووجداني: لا حرية لروح لا تتخلص من أصفاد الجهل والتعصب، ترمي قيودها لتسمو بأصحابها.

صداقتي مع رفيق سلّوم أساسها الإعجاب بل الانبهار، غبطت قدرته على ترك الكهنوت، واختياره مساقا جديدا لحياته ببساطة.. صداقته كشفت لي نفسي.. كمرآة رأيت فيه ما أجهل عن ذاتي.. وعلى قصرها، تركت أثرها، لكنها

عجزت عن إعادة صياغتي وتشكيلي لأشبهه، أو حتى تغيير مساري مثله.. وأعرف أنني لو سلكت دربه لأدخلت السرور إلى قلب جدّك.

أما عن علاقة رفيق بشيخه، فصنف من الصداقة قلما جاد به الزمان، ووفاء قلما عرفه بشر.. اكتملت أبهى صورها في ساحة المرجة في دمشق.. عنفوان ووطنية وإقدام.. لا موقف يشبه ثبات الشيخ، وهو يصعد منصة إعدامه.. أسد جسور سار إلى حتفه.. منتصب القامة.. لم ينحن، ولم تتهدل كتفاه بالرهبة، رفض ان يغطي العسكر عينيه وهم يلفون الحبل حول عنقه، راضيا بقدره صابرا تشهد عاليا.

وإذ مر رفيق رزق سلّوم بجثته في طريقه إلى الحبل، أقرأ شيخه السلام، وتبعه إلى الشهادة راضيا.. أي عنفوان وحب للحياة خنقهما حبل المشنقة؟ تصوّر!! في رسائل رفيق لأهله من السجن أوصاهم "بألا يحزنوا، ولا يغيروا ثيابهم إلى السواد، فتسعد روحه في رحاب بارئها".

هي نهاية الأبطال المخلدين في الضمائر، الأحياء في العقول.

قال الشيخ الزهراوي لنا يوما: إذا رأيت الله يكثر عليك الابتلاء فاعلم أنك عزيز عليه.. ونحن نقول: إن الله يجرّب

خائفيه. وتفاقيد الرب رحمة.

هل تموت ثورات النفوس، وهل يخبو تعطّشها إلى الانطلاق بتكرار خيباتها؟

قد تنحني الرؤوس أمام الخطوب.. يستكين ظاهرها ويحترق باطنها.. فارس مهزوم فوق فرس جامحة، يتجرّح كفاه بخطامها، وقد يسقط ويتكسّر.

و"نفسي حزينة حتى الموت".

خبا حلمي في التحليق والانفصال عمّا حولي.. شيء ما، خفي، يقعدني عن الارتفاع كلما رفرفت بجناحي، مرغما عاجزا يشدني إلى أسفل.

شمشون ودليلة

توقفت العمّة عن متابعة التلفزيون، فاعتذرت عن إزعاجها.

– ولا يهمك.. رأيته مرات.. محطة إسرائيل الثانية تعيد الأفلام حتى نملّ منها، خصوصا القديمة والأجنبية.. لكن هذا الفيلم.. له ذكرى فأتابعه كلما عرضوه.. زمان كانت القناة تعرض أفلاما عربية جديدة ملونة وقديمة، وأغاني المطربين الكبار وحفلاتهم في مصر، لكنهم أوقفوها بعد الصلح مع العرب [72].. قالوا كانت قناة إسرائيل تذيعها بدون علم أصحابها.. زعلت.. قلت يعني أخذوا البلاد كلها! وقفت على الأفلام؟! وحرمونا منها.. بعت التلفزيون القديم لسيارة الروبابكيا، اشتراه لي ابن أخي يوم رجع ليدفن أمّه، واشتريت هذا.. ملون وركبت محطة للأفلام.

على الشاشة ثعالب ربطت مشاعل موقدة إلى أذيالها، تنطلق بخوفها، فتبعثر النار في جنون الألم، والنار تلتهم ذهب السنابل في حقول ممتدة، تشهد عليها ليلة مقمرة.

- كأنه فيلم شمشون ودليلة؟

- المحطة تعيد به وتزيد فلا أملّ منه.. يذكرني بأيام حلوة.. شفتيه؟

أسعدتها نعم.

وبفرح الذكرى أشرق وجهها:

- وأنا وهو نتفرج عليه، عندما هزّ شمشون الجبار أعمدة المعبد! اليهودي الذي ضحكت عليه فلسطينية! وقال "عليّ وعلى أعدائي يا رب" فوقع السقف على رأسه وقتل أعداءه؟! نطّت صورة القدس قدّامي وهي تهتز وتقع. سألته: يمكن شمشون صحا من قبره وهز القدس يوم الزلزال الكبير؟ غشي على حاله من الضحك.. وضحكت معه.. قال.. بيعملها.. يهودي؟!. كان فاهم أكثر من غيره ولهذا فقع! قال الفيلم يبهدل العرب، وما حدا فاهم.. حتى أنا وأنت نتفرج عليه.

- صحيح، اعتمد الفيلم قصة التوراة.. فظهر الفلسطينيون قساة القلوب.. قتلوا ابنتهم لأنها أحبته وهو يهودي وتزوجته، يعني جريمة شرف مبكرة! فانتقم لها بحرق زرعهم. ربط مشاعل النار بأذناب ثعالب نصب لها الأفخاخ والمصائد، وأطلقها بين زروعهم.. لكن دليلة، فلسطينية عاهرة، خدعته وعرفت سره، أن قوته في طول

شعره، فقصته حين غفا على حجرها، ضعف وقبضوا عليه.. سملوا عينيه بالنار وسجنوه.. ونسوا حكاية شعره. وحين طال انتقم منهم بردم المعبد أثناء احتفال لهم.

تتأمل وجهي وتبتسم.. ويعجبها أن أعرف؟!

– قال لي.. اليهودي في الفيلم مظلوم، والفلسطيني قتّال قتلى.. والبلاد ضائعة والفيلم يعرض في القدس ولا كرسي فاضي.. واحد وراءنا لكزه في كتفه وقال هس.. مع أن الفيلم كان خالص.

في بحثي الطويل عما تحب العمّة وتكره، لم يلـمّح أحد إلى اهتمامها بالسينما.. ربما كانت مشاهدة الأفلام سرهما معا.. لهذا قبلت أن أقتحم عزلتها.. مخرجة وأحب السينما مثله! تتحامل على نفسها وترافقني.. وتحاول المساعدة، وبسعادة طفل بلعبة حرم منها، تتابع تسجيل اللقاءات والتصوير.

انشغالها بالفيلم طوى المسافة بيننا، كما لم أتخيّل. وتصوير الفيلم احتل عقل العمّة وشغلها.. أنعش روحها، وتوهجت به ذاكرتها.. وبفرح النجاح يشرق وجهها، وتضيء السعادة ضحكتها كلما انتهينا دون إزعاج من أحد أو مساءلة.. فهل استهوتها الأفكار والأماكن؟ أم خداعنا السلطات الإسرائيلية والتصوير دون علمهم؟

تتلاشى المسافات بين غرباء في اهتمام واحد.

صار الفيلم لي ولها.

– أول فيلم عرضوه في القدس؟! نسيت اسمه.. يمكن "الوردة البيضا"؟ لا.. لأولاد لاما، كانت أول مرة أدخل فيها سينما.. وشوشني وقال: الصور تظهر في العتمة، والفيلم لشاب من بيت لحم اسمه لاما [73]، يعني من دار الأعمى، ولأنه عاش في التشيلي انقلبت الأعمى لاما.. ورجع إلى مصر وعمل أفلاما كثيرة.. قلت.. أكيد يعرف أبـــي! فطس من الضحك.. وإذا ضحك كانت السماء تضحك معه.. وكنا نضحك دائما.. قال سانتياغو أكبر بكثير من القدس! وفي المدن الكبيرة لا يعرف الناس بعضهم.. حتى الجار لا يعرف جاره.. لكن أكثر العرب المهاجرين يسكنون في حي واحد ليتغلبوا على وحدتهم.. كل جنسية لها شارع أو حي، الصيني واللاتيني والهندي والطلياني.. يعني مثل الكوبانيات والحارات في بلادنا.. حارات لليهود والأرمن والأقباط والمغاربة والنصارى.. لما نروح للسينما كان يلبس بدلة وطربوش.. ومرات يضرب على العود ونحن في الحوش وحدنا.. ولما رجع إبراهيم وعائلته هجره، خاف عليّ من كلام الناس.. كان يحسب الهواء حتى لا يجرحني.. حنون.. لكن.. لا هو حب الخوْرنة، ولا الخوْرنة حبّته.. مع أن ثوبه خلصه من الموت، وحماه من الأتراك

ومن الإنجليز. وخدم البلاد لكن لــمّا ضاعت همد.

ومرآة وجهها تعيش حكايتها من جديد.. لم ترد تحيتي أو تحس بخروجي.

خصام الكفر

القصص حين لا تشبه حياة الناس تمتلك حواسهم.. تعوض أحلامهم المفقودة.. تدخل بالبسطاء والمحرومين إلى عوالم ساحرة، خفيّة، فتكشف لهم تفاصيل ما يجهلون وتقصر مخيلاتهم عن تصوره.. في انبهار يطلون على ما نالته قلة محظوظة من ثراء ونفوذ.. واكتشاف المجهول في عوالم الثراء والسلطة رغبة ودهشة تلاقى حولها خيال الإنسانية جمعاء، فنسج موروث العالم روايات تشابهت، الانتقال بالجمال من فقر إلى ثراء.. اختلفت اللغة والأعراق والأزمان وظلت سندريلا قصة العالم، ثم أضحت مسلسلات الثروة والجنس ودسائس الحريم في قصور الحكام، ومع رجال الحكم والسلطة هي الأكثر أنتشارا، تخطت حدود اللغة إلى شعوب الكون، مدبلجة أو مترجمة لا فرق، فالفنون الصامتة ومنذ الأزل، التمثيل واللوحات والمسرح والسينما في بداياتها، قفزت فوق حواجز العرق والثقافة واللغة، وامتلكت مشاعر العالم ووجدانه.

في استغراق ولهفة تتابع العمة أحداث مسلسل

مدبلج.. طلبت نصف ساعة ثم تلحق بنا.

لا تكتمل صورة البلدة القديمة إلا لمن يطل من فوق أسطح دورها.. يتعذّر على غريب، لم يلج عتبة بيت مقدسي في حواريها، تصوّر ما تخفي الجدران العالية، والأبواب المغلقة على حواف أدراجها، تصل بين الأسواق والحارات.. طرز ومعمار، وأحواش تؤرخ لحقب وأقوام، وتتباين من درب إلى آخر.

عن أعين الفضول تنــزوي دور القدس القديمة بأبواب صغيرة ومداخل خفيضة، ضيقة كسراديب، معتمة قبل أن تفتح على فضاء.

سطح حوش أبو نجمة يطل على بركة السلطان خارج باب الخليل.

وغامر الإحساس بتعاقب الأزمان وتبدل الأحوال في مدن التاريخ، مرغما تبحث عمن وضعوا بصماتهم فوق أماكنها، وفي نيّتهم خلود وبقاء.

قال المؤرخ والكاميرا تتابع وصفه:

– بركة السلطان، الأكبر بين برك المدينة المتعددة، حزقيال والبطرك وغيرها، مدّ السلطان سليمان القانوني إليها قنوات الماء العذب من قرية ارطاس قرب بيت لحم

ليروي عطش أهلها.. وبيت المقدس شحيحة المياه منذ كانت.. والبركة واسعة بمقاييس زمانها، وبما يكفي لمدينة مقدسة وحجاجها وتجارها... وهذه النُزُل والخانات حولها وإن تهالكت بالزمن واسودت حجارتها، وتكدست في نوافذها الصغيرة حبال غسيل فقراء الأوقاف بعد أن منحت لهم، إلا انها عرفت كبار التجار، وأثرياء الحجّاج من شرق وغرب، ومن شتى الملل والطوائف.. ولطالما أصغت البركة لحمحمة الخيول العطشى، وروت لهاث خيّالة وعساكر متعبين.. لكنها اليوم تَجَمّع لمياه الأمطار الآسنة، وتوالد الناموس.

تردّدت العمّة في اللحاق بنا إلى سطح الدار.

فوق كرسي خشبــي قديم قاعدته من قش منسوج، كأنما استعير من مقهى شعبــي، أجلست العمّة عند طرف السطح.. ودلّكت ذراعي من اسنادها.

– منذ سنوات لم ار القدس من فوق.. كنت أمشي لأمرّن مفاصلي.. ثم.. بدأت أحس بالغربة.. اختلفت الوجوه والناس، فاكتفي بالمشي في الحوش، وأحيانا أصل باب الخليل.. منظر البلدة القديمة يغم البال فأعود.. تبهدلت القدس.. خصوصا من يسمونها الشرقية.. باب الساهرة تشرشح بعد الاحتلال، واسرائيل لا تهتم إلا بالغربية..

كأنها عالم ثاني.. يا حرام على شارع صلاح الدين. النوفيتيهات الراقية صارت محامص بزورات [74] وقهوة، وملابس رخيصة معلقة على الأبواب والبسطات، وجلاليب محجّبات بدلا من الفاترينات.. وعينك ما تشوف الرصيف أيام الجمعة والسبت، تحت الأقواس سوق خضار، بسطات نساء القرى وما تنتجه حواكير الدور، وجنود إسرائيل يتمخطرون بأسلحتهم.. حتى السياح تغيّروا.. كانوا أغنياء، ومحلات السنتواري لا تتوقف عن البيع.

وبلا تذمّر بعد صمت قصير قالت فجأة:

– الله يسامحك يا الحاج أمين.. اليوم لا نسمع في القدس غير لهجة الخلايلة.

– أمين الحسيني؟ وما علاقته بالخلايلة في القدس؟

– هوّ السبب.. بعد الهبّة الكبيرة [75] بعث إلى مخاتير الخليل، قال النصارى أكبر ملّة.. ابعثوا خمسين عائلة لتعيش في القدس، وستتكفّل الأوقاف برحيلهم وسكنهم ومعاشهم.. ونسوان الخلايلة مثل الأرانب، لا تقبل الواحدة بأقل من سبعة أوعشرة، ما دامت إسرائيل تدفع لهم علاوة إنجاب، ورعاية أطفال، مثل اليهوديات.. لأنهم يحملون هوية صفراء [76]، بينما يقتل عسكرها أطفال الفلسطينية خارجها.

- الحاج أمين؟ أفكّر بهذا؟! وهو من جنّب البلاد فتنة طائفية بين المسلمين والمسيحيين، لا يعلم أحد أين كانت ستصل بالعباد، ولو نفّذت الخطة لغرقت البلاد في الدم، وحملت الأجيال ثارات طائفية إلى يومنا هذا.

- هذا ما صار!. واسألي رجالات القدس كلهم!.. أما المؤامرة فكتب عنها الخوري في أوراقه وطلب أن أعطيها لرفيق إذا مات.. لكن ابنه مات قبله.. قال شهادة ليعرف أن قضايا البلاد شغلتنا، وأخذتنا من دورنا وأولادنا.. وأن جيلنا جاهد ودافع عن البلاد، لكن الخطة أكبر منا ومن العرب كلهم.. ويوم أسس المفتي حزبه [77] أدخل فيه شباب النصارى، وكان المسلم مع المسيحي. وكشف خطة الإنجليز واليهود وأوقفها.

وسادر بصرها في البعيد صمتت.

لا عجب أن أسرت امرأة مثلها قلب رجل فواجه من أجلها كنيسته والناس.. لـمّاحة، حكّاءة، رشيقة الأسلوب، خاصمت التكرار، كأنما رتبت أفكارها متوالية على رفوف خفيّة، تسقط متتابعة من دماغها إلى لسانها.. لا تتزاحم ولا تختلط.. آلة مصنع تختم علبا تنتجها، تهبط أفكارها واحدة بعد أخرى لتمر تحتها.. بانتظام ودون تزاحم أو خطأ.

– سيحتوي الفيلم على لقطات من احتفالات دينية، الأضحى وأسبوع الآلام...

– قلوب الناس مطفيّة وأعيادهم بلا بهجة، لا مسلمين ولا مسيحيين.. في عيد الفصح يسد الجيش مداخل القيامة، لا يمر بني آدم إلا بتصريح، أو من سكان المنطقة أو أصحاب المحلات، من الجمعة المساء حتى مساء سبت النور.

– وهل يخرج النور فعلا من القبر المقدس [78]؟

– طبعا، أكيد!.. فجّة النور.. وبعيني اللي راح ياكلها الدود حضرته، مرّات.. ودائما أقف في الصف الأول في كنيسة نص الدنيا، يعني مقابل القبر تماما.. لكن بعد موته، توقفت.. لا أحتمل زحمة البشر.. الناس فوق بعضها. وكل واحد يحمل شمعا بعدد أفراد عائلته وأصحابه.. وعسكر وسيّاح وحجّاج.. واليونان كأنهم ورثوا القيامة.. أكيد، أملاكها كلها باسم البطرك اليوناني.. وعجائزهم على كراسي خشب صغيرة تزاحم الناس.. بيطلع لهم.. احتلال يوناني واحتلال إسرائيلي!. ويا راوية.. الدور دور أبونا وإجوا الغُرْب يطحونا.

يفرحني أن تذكر اسمي.

– زمان كان للاحتفالات هيبة.. اليوم هاجر النصارى

من البلاد كلها، صار في مسلم ومسيحي أكثر.. احتفال سبت النور يبدأ بدخول صفوف القساوسة إلى الكنيسة، وبعدهم شباب يهتفون ويرفعون بيارق عائلاتهم.. وتراتيل وأهازيج حتى يدخل البطرك، فيفتح العسكر القبر المختوم لينــزل فيه، وهو صائم ثلاثة أيام، ويصلي حتى يفجّ النور.. يوم الجمعة يدخل العسكر إلى القبر ليتأكدوا أن لا شيء فيه يضيء أو يشتعل، ثم يغلقونه ويختمون بلاطته بالشمع الأحمر، ومعهم شباب المسلمين [79] ويحرس العسكر القبر حتى ينــزل فيه البطرك ظهر السبت، فيصلي ويطلب من المسيح أن يقوم بعجيبته السنوية، عندها يفج النور من القبر، ويضيء القبة والقيامة، ويتعالى التهليل.. ويمرّر القواس النور إلى الشموع كلها، ثم يحمله الكشافة إلى مدن وقرى المسيحيين، فيستقبله الكهنوت بالصلاة والكشافة بالترانيم والطبول.. ويظل شباب المقادسة يطوفون بشموعهم وبيارقهم في الشوارع حتى منتصف الليل.

– وكيف يعرف النور تاريخا يفجّ فيه؟ لا يتقدم ولا يتأخر؟

– هذا كلام الكفرة! أستغفري ربك! لتكوني بلشفية؟ أوغيّرت دينك؟ في أرثوذكسي لا يعترف بفج النور؟ زمان، أنكر الأرمن فجّة النور، فراهنهم بطرك الأرثوذكس أن يأكل

بطركهم ملعقة من وسخه لو فج النور. قبلوا.. صام وصلى ففج النور من العمود الأحمر الكبير عند باب القيامة، وما زالت قاعدته سوداء.. تركوها علامة، وبعد الحادثة صدّق الأرمن.. صوري العمود.. واستغفري ربك وصومي.. قطيعة تقطعكم.. جيل كافر.. ليش من قليل نـــزل غضب الله علينا واللي صار فينا؟ لا يفج النور إلا إذا نـــزل البطرك طاهرا وصائما وصلّى، وهو لا يدخل القبر إلا في هذا اليوم، ثم يغلقونه طول السنة.. وأنا بصحتي مررت بالنور على وجهي فلم يحرقني، لثلاث دقائق لا يحرق، بعدها يصير نارا.. والناس فوق بعضها، ولا واحد بشمعة، خمسة وعشرة ويلوّحون بها ويتبركون ولم يحترق أحد! هل سمعت عن حريق واحد في سبت النور؟ أما لو كنت مثل توما [80] لم يصدق أن المسيح قام إلا إذا ظهر له وحشا يده في جرحه؟! تعالي احضري وشوفي.. أنـــزليني إلى داري حتى لا يسخطنا الله أكثر من هيك سخطة.

بسطوة من آلام مفاصلها وبقرف من كفري قبلت أن أعين نـــزولها.. توقفت على الدرج مرات.. وكلمات غضبها تقصفني، ويغرقني استغفارها.

خصام الكفر أعاد مسافة الحذر بيننا.

أنا وأوراق الخوري في مكتبة أخيها.. والعمة احتجبت في دارها نهارا وليلة.

من أوراق الخوري متري الحداد
1933

قلبـــي حزين لموت البطريرك ذيميانوس.. للموت رهبة الفراق ولا عودة.. حق علينا.. لكنه قاس.. مجبول الإنسان على الخوف منه وإن أنكر.. والوجل هز قلب المسيح حين دنت ساعته، فصلى لربه "أن ارفع عني هذا الكأس، لكن.. ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت".

أحزنني موت ذيميانوس رغم المقاطعة والجفاء في أيامه الأخيرة.

ليرحمنا الله ويغفر لنا.

هل تعرف قصة ذيميانوس يا رفيق؟

ابن لعائلة يونانية ثرية.. طفلا نذرته أمه للكهنوت في مرض كاد يقتله.. جميل الطلعة له هيبة الحضور.. وحين تجتمع الوسامة والمال والنباهة في رجل يأسر القلوب.. وذيميانوس هذا كله.. خطفت قلبه شابة من طبقته ذات حسب ونسب.. فضل حبها على الترقي في الكهنوت

فتزوج.. واكتفى بكاهن صغير بجانبها.. ورزقا بولد وبنت.

لكن إرادة الله لا بد حاصلة، مهما تمرد الإنسان أو رفض.. والجلوس على كرسي البطريركية قدر ذيميانوس. أن يكون اسمه سطرا في تاريخ طائفتنا العربية.. مقدَّر عليه أن يخوض صراعنا مع اليونان، ثم ينقلب علينا.

لا يفهم البشر حكمة الرب في فاجعة تحل بهم؟ كاد ذيميانوس يفقد عقله يوم ماتت زوجته الصبية فجأة.

ورغم أن الموت هو الحقيقة الوحيدة في حياة البشر، تظل فواجعه الاشد عنفا عليهم.. ولو لم يعلّق الناس مصائبهم على إرادة السماء، لما احتملوا قسوته.

كثيرا حدثني ذيميانوس عن زوجة رحلت مبكرة.. كشاعر مولّه ترق لغته، ويغلبه حنينه إذ يستحضر صورتها.. وصفها يوما بأنها من صنف غير شائع بين النساء.. فاتنة بترفع، ذكية لماحة، متعلمة.. ومثل امرأة ثكلى بكى في جلسة بوح وانتحب.. وقادر الحب على هزيمة أقوى الرجال وأغلظهم قلبا.

قال: الفواجع رسائل سماوية.. والموت صحّح مسارا تمرّدت عليه بالزواج والإنجاب، فخطف أحبتي ليعيدني إلى طريق تحدد لي قبل ان أولد، راهبا أعزب أتمم نذر أمي.

وكثيرة هي نذور الأمهات.

حدثنا الشيخ عبد الحميد الزهراوي عن الصبر، قال "إنّما سمي الإنسان إنسانا لأنه ينسى".

يسلو المرء أحزانه بامتدادها في الزمان.. ويحتمل البشر تعاستهم بتعليقها على صفحات المقدّر والمكتوب، فتصير ذكرى لوجع.. الإيمان لا يمحو أحزان النفس، فقط يجعلها محتملة.

وفي المثل "أعزب دهر ولا أرمل شهر".. تعذب ذيميانوس بفقدان زوجة يعشق، وطفلين ابتسمت بهما الحياة. ومعاناة من جرب الحب والنساء أشد قسوة حين يحرم منها، والشهوات لمن خبرها نار، وقودها الإيمان والصبر والانتصار على الذات، ليخمد لهيبها!

الأحزان جعلت ذيميانوس إنسانا آخر.. ضيّق الخلق قليل الاحتمال.. كأنما يخاف الليل قضاه ينادم الأصدقاء، سهرات في بيته، أو مجالس رفاقه، متغاضيا عن مكانته.. لا يطيق البقاء دون جمع.. فناقوس الوحدة يدق بالحرمان ويذكر به دون توقف، والتذكر نبع العواطف والأحاسيس.. بحث عن السلوى في جلسات الشراب، وأحاديث وسهرات إلى انبلاج النهار.. تصرفات أثارت اللغط.. وضعف فيه استغله خصومه، وخنجر طعنوه به في حادثة عزله.

وكما كتبت لك سابقا، ثورة رهبان الأخوية ليست غيرة على الكنيسة، ولا حرصا على سمعة الكهنوت، فكثير من اللغط والشائعات نال منهم، وبعض تصرفاتهم اثارت الشبهات والأقاويل.

لم يبد رهبان الأخوية حرصا وهو يبدد المال بعطايا ومنح وهدايا لهم ولقريبات يعشن مع بعضهم، وما أكثرهن! ومن عجب أن أنعم الله على قريباتهم بجمال وحسن أخاذ.. لا تجتمع اثنتان عند أي منهم.. تأتي واحدة فتغيب من قبلها.. ولم ينتقدوا ما يوزعه من الذهب على الأتراك وأكابر القدس في كل مناسبة لتعزيز مكانة اليونان، فقط يوم صنع لنفسه فنجان قهوة من الذهب الخالص ليتميز به عن ضيوفه، رموه بالفساد والتكبر.

نسي ذيميانوس أن الواقف على قمة الجبل مكشوف للرياح ولمن يقف تحته، وعليه، حفاظا على هيبته، أن يتمسك بثيابه لئلا تطير وتتكشف عورته. جانبه الصواب كثيرا في مسألة افتقرت إلى الحكمة، حين تبنّى أطفالا ليكبروا في مقره، فأثار لغطا كثيرا.. حربة أخرى قدمها لخصومه فطعنوه بها.

– شهود زور يقومون، وعمّا لم أفعل يسألونني.. أولاد الأفاعي.. الفرّيسيون قساة القلوب.. وجود الصغار

يعوض ما افتقدت.. الطفلة تشبه ابنتي كأنما بعثت فيها.. أما الصبيّان فمن عمر ولدي ولهما بعض ملامحه... ردّت دموعه على لومي الصريح.

- نضع أنفسنا في موضع الشبهة ثم نلوم أعداءنا إن اصابوا مقتلا.. رحم الله الشيخ الزهراوي كان يقول: إدرأوا الشبهات.

- أيها العلماني في قلنسوة كاهن.. ألا تستشهد إلا بشيخك المسلم؟. ولماذا تنظر إلى القذى في عين أخيك، ولا ترى القشة في عينك؟! ولماذا لا تقول كما علّمنا المخلص، من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر.. وأنت مجبول بالخطيئة، وتعرف أنك من أكبر خطاياي.

لم يصغ لنصيحة.. ولا اهتمّ بما سمع.. داس على تندر الرهبان وسخريتهم، أهمل اللوم والاحتجاج، وفي جموح الخيال ورغبة التحطيم لطّخوا سمعته.. غمزوا من إغداقه على الفتيان، وصوروا أمورا لا يعلمها غير الله، عن صغيرة يونانية كبرت في كنفه حتى بلغت وصار بقاؤها في البطريركية حراما.. فزوّجها في عرس باذخ لشاب عازف، معروف بترتيب السهرات وليالي الأنس لأكابر المسلمين والمسيحيين، يتعهد حفلاتهم ويخدم عشيقاتهم.. ثم منحها بيتا واسعا من أوقاف الكنيسة، فزاد خيال الناس جموحا

وفحشا.

حزين أنا على رجل عاش مقسما بين الله وقلبه.

كثيرة شائعات القدس في صراع مللها وطوائفها.. حوّلت مجلس العلم والسياسة في بيت ذيميانوس إلى سهرات أنس وفرفشة، وأحاديث السياسة والأمور العامة للكاس والطاس، ولعب الورق، ليالي غناء وعود.. ورغم كل ما قيل ونقل إليه انغمس فيها أكثر.. نسي في طلب السلوى ما يمثله وحدود واجباته.. وأشهد يا بني أنها سهرات بريئة، حضرت بعضها قبل خصامه لي.. جمعت رجالات البلاد مسلمين ومسيحيين.. نقاش فكري انتهى دائما بعزف وطرب أصيل، وتقاسيم من أشهر عازفي العود في زمانهم ابن البطش وابن قطينة وابن جوهرية.

من أوراق الخوري متري الحداد
بلا تاريخ

وعدت أن أحدثك عن فتنة كادت تتفجر بين الملّتين في عموم البلاد، وهي إحدى توابع انتصار الحلفاء في الحرب الكونية الأولى.

تواترت من الحجاز أنباء عن ثورة عربية ضد العثمانيين، فتأجج الخلاف من جديد بين شباب النادي العربـي وذيميانوس حول دور المسيحيين فيها؟.. والصحيح أن الطوائف المسيحية جميعها كانت مستاءة، وتحس بالأسى والخذلان والخيبة، لهذا طالب البطاركة رعاياهم بالوقوف منها على الحياد، ليس قلة في وطنيتهم أو عدم انتماء لعروبتهم، وإنما لغصة كبيرة في نفوسهم

وما آلم المسيحيين هو شعار رفعته الثورة ودعت إليه. "الجهاد المقدس".

قالوا: ثورة رفعت شعار "الجهاد المقدس" للتخلص من حكم خلافة جارت وفتكت تحت الشعار نفسه "الجهاد

المقدس".. شعار يستثنينا من جهادهم. ودعوة لا تقيم وزنا لعروبة المسيحيين.

رد شباب النادي العربـــي: هي بلادنا مهما كانت شعاراتهم.. وبطش الأتراك نال المسلمين والمسيحيين، وسنكمل المشوار معهم.

عصيان مدني عمّ بلاد الشام.. اختفت الغلال في مخازن الشهبندر كما عند التاجر الصغير، لا قمح أو شعير للجيش التركي وخيوله، ولا ضرائب تسهم في تكاليف الحرب.

ناءت السفن بخوف شباب فرّوا من الموت في الحروب العثمانية.

تلك فترة عاشت فيها عائلتنا حادثة قلبت حياتنا، وكادت تودي بعقل جدّك.. ذكرى مؤلمة أثارت الأسى والقهر لسنوات طويلة، وقبل أن تتحول نادرة وسخرية مرّة.. والقلوب تتجاوز مرارة الخسارات الفادحة، وإن بقيت منها غصة تؤلم وتوجع.

دلالات تلك الحادثة أثقلت صدورنا بالتوجس والقلق، وبسببها ترك جدّك تجارة الغلال.

في خوف التجار من وشاية عسعس الأتراك ومداهمات

عسكرهم ومعاقبتهم على العصيان، ولشدة العقاب على من يمنع تزويد الجيش بالغلال، المصادرة والقتل والسحل، نقلوا مخازنهم إلى قرى وبيوت بعيدة لا صلة لبعضهم بها.

أطنان من قمح وشعير فاض بها قبو الدار في عين كارم.

محفورة في ذاكرة الناس قسوة ذاك الشتاء.. الشمس خاصمت سماءها، والغيوم رفعت رايات السواد وأعلنت احتلالها.. أمطار وثلوج وسيول لم تنقطع، والدور ضجت بانحباس السكان لا يغادرها إلا مضطر. والبرد لا يشبه ما عرفته قصص الجدات.

شهور طويلة، ثم فاحت رائحة الدفء، والشمس حملت بشائر ربيعها.. جفت الدروب، وتماسكت الطرق تحت حوافر الخيول، وعجلات العربات.

الرائحة النفاذة سابقت جدّك فترنح.. ضحكت الشمس وسخرت من عويله والصراخ، والأخضر يداهم عينيه من ظلام القبو، أوراق وجذور طرية أعجزها الهرب من شقوق النوافذ أو تحت الباب، تمددت تبحث عن نور لحياتها.. خدع تسرب الماء والعتمة أطنان الغلة، فتضخمت بالليونة، ورمت جذورها تبحث عن أرض وتربة، أعجزتها صلابة البلاط فتكومت وتعطّنت.. وأطنان عفونة وخضرة لا تصلح

حتى علفا للدواب.

- حذرتك من الحرام، فدعاء المظلوم في السماء أربعين عاما حتى يستجاب.. قالت أمي وأردفت باكية: لكن.. الحمد لله أنها خسارة في المال لا في العيال.

تفسير الحادثة عند جدّك إنذار وإشارة سماوية- توقف عن تجارة الحبوب.. وازداد يقينا مع انتقال جدتك إلى الأمجاد السماوية بعدها بشهور قليلة.

كأنما يستعجل جدّك ما تيقى له في البلاد، ورغم تحذير العارفين بأن ظروف البلاد والتحولات في العالم غير مؤاتية لأي مشروع جديد، استثمر ما يملك في محل للسنتواري. وبعناد لا تفسير له إلا اكتمال إرادة الله، افتتح محله، فالتقى تلك المسكوبية وضاع معها.. وما كان ذلك سيتم، لو بقي تاجر غلال.

آمن جدّك بأن لكل زمان رجاله وأدواته، وأن "في الحركة بركة"، فنوّع في أعماله في بلاد لم تتوقف عن التغير عمرانا وحكاما ووسائط نقل وحياة.

صبيا على بغل بدأ تجارته.. يستبدل القماش والخرز والأمشاط وعلب الحلقوم بالقمح والشعير.. ولحسن معشره، وطلاوة حديثة، أحبه بدو شرق الأردن، فتحوّل مرابعا لأراضيهم الشاسعة.

بلا سابق إنذار، تضاعفت دوابه وتوسعت تجارته، لكنه لم يعترف يوما، بأن ذيميانوس شريكه من الباطن. وليسامحني الرب، فالدلائل لا تخفى على بصير.. فكيف يتغيب عن عمله شهورا لإدارة مصالحه الخاصة، دون حساب أو سؤال من أحد؟!.. توسعت تجارته، وامتلك من الأراضي ما لا يحلم به، أو يستطيعه، كاتب في محكمة.

ويوم بدأ القطار بين القدس يافا قال: هذا زمان سكة الحديد.. باع نصف البغال والخيول.. وبعد عشر سنوات، حين ربطت السكة الحميدية البلاد بالشام والعراق ومصر. تخلص مما بقي.

وتعرف يا رفيق أن جدّك ترك مئات الدونمات حول عمّان، وفي أغوار الأردن.. استأجرها من البدو مقابل ليرات قليلة في حاجة أصحابها لزواج أو طهور، والأهم.. صار دليلهم وكاتم اسرارهم في غزوات اللهو والمتعة في القدس، أو يافا.

ولسنوات طويلة رضي البدو من "المرابع المقدسي" ببعض المحصول والنقود، والبدوي بطبعه يحتقر الفلاحة، ولا يطيق مشقتها.. لكن جدّك، في غفلة منهم، سجل لنفسه بعض أراضيهم دون اعتراض من أحد، فكثير منهم لا يدري بقانون الويركو العثماني، فأعطوه ما يثبت

استغلاله لأراضيهم "يمكن لمن يزرع أرضا عشر سنوات أو أكثر، أن يسجلها باسمه إن لم يعترض على ذلك أحد". قانون طبقه الانتداب من بعدهم، فانتقل كثير من أراضي البلاد، في جهل أصحابها، من مرابعين وسماسمرة إلى الوكالة اليهودية.

تلك الفترة بدأت الوعي بالحلال والحرام، نبّهني الخوف في همس جدتك وتوسلاتها، أن يتقي الله في ولد وحيد منذور. وحين كبرت لم يلتفت لاعتراضي.. وجوابه لنا لم يتغير: بين البائع والشاري يفتح ألله، وما دمت أنا راضي وهو راضي شو حشرك يا قاضي.

وحدها حادثة القبو أعادته عن ضلاله.

أين جدّك؟ ماذا حدث له في ديار المسكوب؟ العلم عند الله.

مع بداية القرن الجديد [81] ترنح العالم بحروب غيرت مصير بلادنا.. العالمية الأولى، والثورة العربية وسقوط الخلافة، وثورات الجياع ضد القيصر في بلاد المسكوب.

- لن أخذل صبية تحبني.. سأعود بها أو نواجه مصيرنا معا.

واختفى جدّك ذات شتاء، رغم توسلاتي واضطراب

الأحوال قصد بلادها.. فهل وصل؟ وهل نجا الغريب من ثورة سفكت الدماء، وغيرت المعتقدات وأطاحت بكثيرين؟ إن كان حيّا فليبارك الرب اختياره.. ويرحمه برحمته لو انتهى عمره.

اختفاء جدّك وانقطاع أخباره ضاعا في هول حادثة هزت البلاد والطائفة بعد شهور، أدمت قلوبنا، وأساءت إلى النصارى، مزقت الوحدة وأيقظت الطائفية، وكادت تنقلب فتنة عارمة، لولا تدخل العقلاء من الملّتين.. دخول قائد الحلفاء الإنجليزي أدموند اللنبـــي إلى القدس.

ورغم أنه دخل المدينة مرتين، إلا ان الدخول الثاني أثار العاصفة.

في النصف الأول من كانون الأول [82] 1917، توقف الجنرال الإنجليزي، قائد الحلفاء المنتصر، في محلة الشيخ بدر خارج السور.. احتفال مهيب من رجالات القدس وشيوخها.. وخطابات الترحيب مجدت انتصار الحلفاء على خلافة جائرة.. ثم.. سلمه رئيس البلدية حسين سليم حسن أفندي الحسيني مفتاح القدس، ليدخل إلى البلدة القديمة من باب العامود، فالمدينة المقدسة تزينت، وتنتظر البطل على جوانب دروبها.

بغطرسة أخذ المفتاح وبتكبر قال: سأدخل القدس عندما

أريد، وفي موعد أحدده أنا.

دخوله الثاني بعد أسبوع كامل [83].. ومثل أسلافه دخل ماشيا من باب الخليل في يوم أحد.. وعلى موسيقى القرب، وقرع الطبول، وبين أعلام الكشافة، وفي احتفال عسكري مهيب دخل غازيا.. والقدس اعتادت دخول الغزاة منذ كانت.

والصحيح أن طوائفنا بالغت في الترحيب به، وأعدت له، في ساحة القيامة، استقبال بطل، فلا علم لأي منا بنوايا الإنجليزي وما يضمر، فأذهلنا ما قال، وصدمنا قبل غيرنا.. كأنما يتشبّه بريتشارد قلب الأسد! توقف بصلف على باب كنيسة القيامة وقال: "اليوم انتهت الحروب الصليبية".

فهل تصوّر الجنرال أنه يعيد تاريخ الفرنجة؟ أنسي أنه ما كان سيصل بيت المقدس لولا ثورة العرب ضد الأتراك، ومساندتهم للحلفاء؟!

ويعلم الله يا رفيق أن كلماته جرّحت قلوبنا، فنــزفت ألما وغضبا، وأوقعتنا في حيص بيص، جفت حلوقنا خوفا من الفتنة، والإنجليزي يجيء بالبلاء للعرب المسيحيين، مثلما فعل الصليبيون بعد كل غزوة وحرب.

وما حسبناه وقع.. ضجت القدس وعموم البلاد

بالرفض والاستنكار.. ولا لوم عليهم أو عتاب، فرفض ما قال الجنرال واجب وطني، وحق علينا جميعا أن نثور ضدّه ونشجبه، لكنهم، ويا للأسف، حمّلونا ذنب قائد الحلفاء، ووزر ما قال! كأنه منا ولسنا منهم؟! أو كأننا كنا نعرف ما في ضميره! أو نستطيع ردّه!

وأين كانوا حين وقف كبار رجالاتهم وشيوخهم بين يديه مرحبين ومهللين، وسكتوا عاجزين وهو يرفض دخول البلدة القديمة؟ ولم يسأل أحد: من ساعد الحلفاء ضد الأتراك؟. أليسوا زعماء بلاد الشام من المسلمين؟ وشريف مكة وأبناؤه؟ ولولا ثورة العرب ما كان الجنرال ليدخل القدس؟! فقط يوم كشّر عن أنيابه قالوا: نصراني يعيد الحروب الصليبية؟!

والغضب عمّ البلاد، وسوء الفهم شرارة استشرت، وستشعل فتنة لن تبقي ولن تذر.

مؤلم يا رفيق أننا مجبرون دائما على تأكيد عروبتنا.. أن نقف في خط دفاع عن انتمائنا.. أن نظل موضع شك واتهام خفي مهما فعلنا، وهو ما يجرّح النفس ويؤلم الروح.

اجتمع الشباب المستنيرون، مسيحيون ومسلمون، مفكرون وكتّاب وصحافيون ورجال دين وسياسة ورؤساء

نواد وأحزاب. في النادي العربـي الأرثوذكسي. قلنا أللنبـي مسيحي صحيح، لكننا عرب وهو إنجليزي.. وفلسطين بلادنا منذ الأزل وهو دخيل، ونحن الأرثوذكس سلمنا مفتاح المدينة لعمر بن الخطاب، ولم نسلمه للجنرال الإنجليزي! وحاربنا الصليبيين إلى جانب صلاح الدين الأيوبـي وساعدناه ليدخل عكا.. ويا جماعة الخير منذ دخل الإسلام بلادنا، هل تنصّر المسلمون؟ هاتوا واحدا وحاسبونا عليه؟.

تعانقنا.. وأكدنا وحدتنا وتلاحمنا.. وسطّرنا بيانا مشتركا وقع عليه الحاضرون، شجبنا ما قال الجنرال، وأكّدنا أن لا علاقة للعرب المسيحيين به، فهو إنجليزي، ونحن من قبائل عربية أصيلة، ولا ولاء لنا إلا لبلادنا وقوميتنا، ولا ولاء للجنرال إلا لبريطانيا وتاجها.

هدأت الفتنة.. فهل نامت؟

رغم ظهور نجم سياسي في القدس، الشاب الحاج أمين الحسيني، انتابني القلق على الطائفة، بعد حادثة اللنبـي، وتزايد طلب المسيحين على الهجرة.

عاد الشاب إلى القدس بعد تخرجه من تركيا متحمسا مندفعا، ولأنه حجّ يافعا مع عائلته عرف بالحاج منذ صغره.. شاب وطني اتكأ على إرث عائلته ومكانتها، تقرّب

إلى طوائفنا وحمل لها الأمل.

التقيته مرتين، وبصدفة هي خير من ميعاد.. وحين ترتب الأقدار أمرا، يتقاطع الزمان والمكان ليتحقق ما دبّرت.. ترسم اللحظة الفارقة فيتغير الحال، وكعجائب تبدو صدفها.

في يوم هبة العشرين، توجهت إلى باب الخليل لاستطلاع ما يجري.. منع الإنجليز مواكب الخلايلة والفواغرة من دخول القدس للاحتفال بموسم النبـــي موسى، تخوّفا من القلاقل بعد اشتباك الموكب واليهود عند حائط البراق.. سد عسكر الإنجليز باب الخليل، فهاجمهم الحاج أمين والمحتفلون- وأدخلوا المواكب عنوة، فاشتبك الطرفان بالعصي ثم بعض الأسلحة، واعتقل العسكر الحاج أمين لكن الشباب خلصوه فهرب.

رأيته يركض مع آخريْن قرب البطركية، فعرفته من صورة له في صحيفة.. وصوت الجنود يقترب أدخلته إلى أقرب دار.. سيدة من الطائفة وحيدة مع أطفالها وزوجها مهاجر، ثم عرفت أنه تسلل إلى الحرم فخارج البلاد.

لو علم الإنسان ما تخبؤه الأقدار لصال وجال بحثا عمن سيلعبون دورا في حياته.. لم أعرف وأنا أدق باب تلك الدار، أن قدرا جديدا سيكتب لي فيها.. طفلة صغيرة

وحيدة مع أمها وأخويها ستسلب مني، بعد سنوات، راحتي وهدوء نفسي.

اللقاء الثاني بالحاج أمين بعد سنوات طويلة.. وبصدفة أخرى.. لسبب عطّلني وصلت متأخرا عن موعد انطلاق جاهة عريس من شباب النادي البارزين، أو ربما غادروا مبكرين إلى مدينة العروس الساحلية. والطائفة يومذاك في انقسام عاصف حول دعوة البطريرك، أن يتغيّر شعار النادي العربـــي الأرثوذكسي فيصير، "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، وأن يوقع الأعضاء على عدم التدخل في السياسة أو ممارستها.. قلة أيّدت، وكثرة رفضت، فليس من حق اليونان تحديد واجبنا الوطني، وجلّ هؤلاء من دعاة "المواطنة والدين لا يختلفان ولا يختلطان".

عند بوابة دار العريس، والشاب صديق للحاج أمين، وأحد مريديه، التقينا.. أخرج بينما يُقبل مسرعا ملهوفا.. وسيم أنيق ببدلة وطربوش.. مهموما تأمل وجهي.. لحظة.. ثم اندفع وعانقني، واستذكر موقفي في هبة العشرين، شكرني.. قال جئت في أمر لا يحتمل التأجيل، ولا بد من مساعدتك يا خوري، وعلينا جميعا التحرك بأقصى سرعة لمنع كارثة.. المسألة خطيرة وتقتضي السرعة الفائقة، والحكمة والسرية التامة، فلا يعرف "الطير الطائر" بما سأخبرك به.. للتو، أمسكنا بأول خيط

في مؤامرة بريطانية يهودية لإشعال فتنة طائفية في طول البلاد وعرضها.. ولو تحققت، لا قدّر الله، فستحرق البشر والحجر، وتمتد إلى ولد الولد.. ويعلم الله أن أحدا منا لن يحتمل نتائجها.. جاءني قبل قليل أحد المكلفين بتنفيذها، ولحسن حظ البلاد والعباد وتدبير من رب العالمين ورحمته، أنه أحد رجالي السرّيين، ممن يجاهرون بالكره لي لكشف أعدائي.. حاول اليهود والإنجليز تجنيده، فأبدى الموافقة ليكشف نواياهم.. وهو واحد من ستة شباب مسلمين، كلفوا باغتيال ستة شباب مسيحيين من قيادات النادي الأرثوذوكسي، في مدن فلسطين الكبرى، وفي ساعة واحدة، ليمتد لهيب الفتنة بين الملّتين، ونقتل بعضنا في حرب اهلية طائفية تنهي وجودنا.

وإذ يتبسم الحاج امين يزداد مهابة.. قال مازحا: تمويه دور النادي بنشاط أدبـــي ورياضي وحفلات عود وتمثيليات، لم تنطو على دهاء الإنجليز ولا خبث اليهود يا خوري.

وأخرج من جيبه هذه الورقة الصغيرة، أرفقها لك شهادة للتاريخ.. مدّها وأردف: احتفظ بها يا خوري شاهدا لو حدث لأحد شبابكم مكروه لا سمح الله، فنفضح المؤامرة، ونحتوي الموقف.. لكن إكراما لله، وحرصا على الوطن ووحدتنا، حذّروا أصحاب الأسماء فيها قبل فوات

الأوان.. ونحن من جانبنا طيّرنا المراسيل السرية لتحذيرهم، وجئت بنفسي لأنبه العريس، فاسمه على رأس القائمة.. قلت لن يشك أحد في حضوري، لأن إميل الغوري صديق لي مقرّب.. ولكن أرجو تحذير الآخرين من جانبكم، لنضمن السرعة والسلامة، أن يلزموا بيوتهم حتى نقبض على المكلفين بالجريمة، ورجالي قد بدأوا تعقبهم. وإذا زال الخطر، أرسلت لكم أو أحضر بنفسي.. لعن الله الفتنة ومن يوقظها.. تعانقنا.

المرسال وصل والعريس في الكنيسة يتزوج، فاختصروا مراسم إكليله، واختفى إميل الغوري مع عروسه.. ونبّهنا الخمسة الآخرين. وجنب الله البلاد كارثة وحربا طائفية.

وللحاج أمين حظوة كبيرة عند المسيحيين في عموم البلاد، حتى أنه ترأس جمعية مسيحية في القدس بعد عودته من تركيا، وله صداقات واسعة مع رجالات الطوائف.. تخرّج من المدارس الفرنساوية قبل تركيا.. وحين اسس حزبه الوطني كان أعضاؤه من الملّتين.. لكنه، مثل كل قائد لبلاد، يتقدم الدين فيها على القومية عند سواد شعبها، وبعد إقامته في مصر، تأكد له، أن الجهاد الوطني لا بد وأن يصطبغ بدعوة دينية ليستقطب الجماهير، ويلهب مشاعر الأغلبية، فأعلن"الحرب المقدسة

ضد الكافر" في الإضراب الكبير 1936.. دعوة انعكست سلبا على طوائفنا ووجودنا، فكثير من المسلمين لا يفرّق بين العربــي المسيحي والغربــي المسيحي، لأن أخوّة الدين عنده تسبق أخوة الوطن والدم.

والثمن باهظ.. هجرة العرب المسيحيين، وتناقص عددهم كل يوم.

ورغم إعلانه هذا ساند شبابنا الحاج أمين، وظلوا على صلة به، وتفهموا موقفه ودافعوا عن شعاره، قالوا لا تبنى السياسة على العواطف، بل تتقدم فيها المصلحة العامة وتقدير الخطر.. والحاج أمين قائد شعب وصاحب قضية، ويحتاج دعم المسلمين في النضال لأنهم الأغلبية، ورغم أن إعلانه "الجهاد المقدس ضد الكافر" أساء إلينا، لكنه ضمن له قيادة البلاد... وظل الحاج أمين على علاقة طيبة بطوائفنا، ولم ينس مساندتنا له في صراعه على منصب مفتي الديار، مع الشيخ موسى البديري 1931.

والخلاف بين الحاج أمين والشيخ البديري قديم، مبكّر جدا على منصب المفتي، نشب بعد عودة الحاج من تركيا مع طلائع الحرب الأولى.. ولا أدري كيف وضع يده على بيت وقف في باب السلسلة.. أمر عارضه الشيخ البديري، وهو مسؤول أموال الوقف آنذاك.. قال: "الوقف للفقراء لا

للأغنياء يأخذونه بغير حق". وأجبره على الخروج منه وإعادته.. حادثة أحرجت الحاج أمين، وزرعت عداوة بين الرجلين، وانفجرت خلافا علنيا في أزمة مفتي الديار.

فجأة، توفي شقيق الحاج أمين فشغر منصب مفتي الديار.. تقدم لشغله عدد من العلماء، بينهم الشيخ موسى البديري والحاج أمين الحسيني... ومن بين المرشحين نال الشيخ البديري غالبية اصوات العلماء، أما الحاج أمين فأقلّهم.. ولا ندري كيف استبعدوا البديري، وعيّنوا الحسيني.

انقسم المسلمون، حتى العائلة الواحدة، بين مؤيد ورافض.

ولأن شعبية الحاج أمين واسعة بين المسيحيين أيدت الطوائف قرار تعيينه لأنهم يعرفونه، فهو دائم التردّد على نواديهم ومناسباتهم، يصادقهم ويشركهم في قضايا البلاد، بينما لا يعرف كثيرون حتى وجه الشيخ البديري، ويجهلون غزارة علمه، ومكانته الدينية الرفيعة، فخرج شباب الطوائف في مسيرات يهتفون للحاج أمين، ويطالبون ببقائه مفتيا.. زرعوا شوارع القدس بلافتات "لن نقبل بغيره" ثم توجهوا إلى مقر المندوب السامي، ورفعوا عريضة تطالب بتثبيته مفتيا.

لامنا كثيرون، وكسبنا بعض العداء.. قالوا المسلمون أدرى بشؤونهم، والشيخ البديري أحق بالمنصب.. نال أعلى الأصوات والحاج أقلّها.. فكيف تغطى الشمس بغربال؟

ولم يكن تدخلنا لترجيح كفة على أخرى، إلا لمعرفتنا بأن الحاج أمين أقدر على حماية الطوائف ومصالحها، إلى جانب قدرته على تدبير شؤون المسلمين. ولإدراكنا بأن الخطر القادم على البلاد، والتعامل مع الانتداب وتطبيق وعد بلفور، وبناء علاقات مع دول العالم ضد وعد بلفور وما يُرَتّب للبلاد، يتطلّب حنكة سياسية، ودهاء دبلوماسيا، إلى جانب الورع والتقوى.. والحاج أمين سياسي محنك، يجيد لعبة التوازن الطائفي، وعلاقاته بالعرب واسعة ويحظى بتأييدهم.. أما الشيخ البديري فرجل دين وصلاح، لم يختبر دهاليز السياسة، فقيه وعالم لا يشق له غبار.. وللحقيقة حوّل دروسه في الأقصى إلى تحريض على الإنجليز، ولم يتوقف يوما عن الدعوة إلى مقاومتهم، والتصدي لوعد بلفور.. والشيخ البديري رجل وطني وعالم جليل، لكن السياسة تتجاوز أسوار القدس، والتعامل معها ليس أبيض أو أسود، ولا خيرا أو شرا، السياسة ألوان متقلبة، تحتاج الدهاء أكثر من النـزاهة، ربما لهذا انقسمت عائلة البديري على نفسها، فأيد بعض رجالاتها

الحاج أمين ضد شيخهم.

وللأسف، هذه الحنكة السياسية والدهاء اللذين راهن الناس عليهما، خانا الحاج أمين في مواقف لم تكن تتطلب غيرهما.. وفي قرارات مصيرية أضرّت بالبلاد، ولعل أخطرها عدم تقدير كلماته والتفكير بأثرها أمام لجنة بيل حول إنشاء دولة فلسطينية.. إجابات نـزقة متسرعة، وغير حكيمة، اتخذتها اللجنة ذريعة ضد إقامة دولة فلسطينية.

في لقائه مع لجنة بيل [84]، وبصفته رئيسا للهيئة العربية العليا، سألوه: وكيف ترى مصير أربعمائة ألف يهودي في البلاد إذا قامت دولة فلسطينية؟ هل سيتم إخراجهم بطريقة رحيمة؟

أجاب دون تفكير: نترك ذلك للظروف.

كأنما انتظروا هذا فأضاعنا.. لو قال نعيش معا مواطنين في دولة واحدة جيرانا كما كنا دائما، أو.. نخيّرهم، من يريد أن يبقى، ومن يريد أن يغادر! فربما تغير تاريخ بلادنا.. لكنه قدم لهم ما يريدون، فضاعت البلاد وتشتت شعبها.

أوصت لجنة بيل في تقريرها: "بناء على مقابلة رئيس الهيئة العربية العليا، والزعيم الفلسطيني البارز، الحاج

أمين الحسيني، المعروف بعدائه للسامية، وتحالفه مع هتلر، فإن العرب سيفتكون باليهود في محرقة أو مذبحة جديدة، لو قامت دولة فلسطينية".

كما البشر تولد الدول من أرحام بعضها.

توالت اجتماعات الدول الكبرى.. وقرروا مصير الجزء المتبقي من فلسطين بعد قيام دولة إسرائيل، وباقتراح بريطاني ضموه إلى إمارة شرق الأردن.

وفي الخلاف بين أعضاء الهيئة العربية العليا، ومع انقسام الزعامات التقليدية في البلاد، لم تجد ثورة الناس من يقودها.. ربما لهذا قال النحاس باشا يوم زار القدس [85]، "هذا شعب ينقصه زعماء، ونحن زعماء ينقصنا شعب".

مؤسف أن نجد أنفسنا في مهب ريح عاتية، عزلا ولا سلاح.

حياة ثانية

عشرون شريط فيديو صغير حائرة مثلي.. تحضن حلمي وفرصة العمر، يحرسها خوفي، وتصريح شهر الإقامة في القدس ينتهي في يومين.

بلا جدوى أبحث عن وسيلة تمكنني من المرور بالأشرطة دون تفتيش على جسر أللنبـــي، ولا تصريح لدي بالتصوير.. والاكتفاء بمصادرة الأشرطة أخف إجراء إسرائيلي وأقله ضررا، أما عقاب الشركة المنتجة فسحب رخصتها، وإغلاق مكتبها، ومحاكمة العاملين وربما أكثر.

خرجت بحيرتي والقلق نلف أزقة البلدة القديمة.. دون هدف أدور بسيناريوهات الفزع.. تركت الحوش في عدم احتمالي لعدم مبالاة العمّة.. ولا تفسير عندي لبرودها، وعدم تعاطفها مع مأزق وضعت فيه نفسي، حين أوهمت الشركة المنتجة، أن إخراج الأشرطة أمر سهل، وسيتم في سيارة صديق دبلوماسي وبالاتفاق معه، ودون مساءلة، أو مسؤولية على أي منا.

لا تفسير لعدم اكتراثها بحلم شاركت في صنعه بشغف، وحين دنت ساعة تحقيقه لا تبالي أو تهتم.. ومنذ شرحت لها ورطتي، وأنه لا وسيلة لحمل الأشرطة معي، توقفت عن السؤال والحديث في أمرها؟! قطعت كل صلة لها بالأمر.. وضياع حلم ينام في الأشرطة فوق احتمالي، وتجاهل العمة يخنقني.. طفت الشوارع بلا هدف لساعات.

نادت بلهفة حين دخلت.. ورائحة شهية فاحت من المطبخ الصغير.

– كانت المقلوبة أكلته المفضلة.. ومنذ مات لم ترتفع لي على نار.. وأنا قلّما أدخل المطبخ.. أكتفي بأي شيء.. لكنك مسافرة.

رغم المعنى الكبير لما فعلت، كدت أنفجر بانشغالها عن ورطتي.. تماسكت.

قالب باذنجان وأرز ولحم غطته بالصنوبر واللوز المحمص. وصحن لبن بقطع الخيار مزين بالنعناع المفروم فوق الطاولة.

قبلت رأسها فابتسمت، وأغالب حنقي.

– ذاك اليوم، طبختها دون أن يطلبها.. وهو لم يطلب أي شيء في أي يوم.. مثل خيال أو نسمة يأتي ويخرج، لا

يحس به أحد.. لكني أعرف ما يحب.. مرات قليلة أكل عندي.. كيف خطر ببالي أن أعدها؟.. ربما شجعني لمعان الباذنجان مع القرويات على درج باب العامود.. وقضيت معظم النهار في المطبخ.. الغريب أنه مضى نهارا عاديا.. بالعكس.. كنت فرحانة وأنتظر. أسابق الوقت لتتنضج، فأتركها ملفوفة بحرام مدة أطول لتتماسك وأقلّبها له حين يصل.. تصورته يتفاجأ ويلومني على تعبـــي، ويفرح لأني تذكرت ما يحب.. أخذت حماما وأنتظرت.. ولأننا لم نعش في دار واحدة، لم نضيع لقاءات، نخطفها من الزمن والناس، في أمور تحتملها الحياة العادية بين زوجين.. وشوقنا لا يرتوي، مثل عاشقين محرومين يتجدّد كلما التقينا كأنها المرة الأولى.. لا.. هذا كلام.. الدنيا كانت قاسية، وأنا قبلت قسوتها عليّ وبخلها.. استكثرت سعادتي معه فأعطتها بشروط صعبة، حرمتني حتى فرحة الأشياء البسيطة، أن أستقبله وأودعه عند الباب.. أحضر له ما يحب، أن تختلط روائح ثيابنا في خزانة واحدة.. أن يرى الجيران ملابسه على حبل غسيلي.. أعاتبه وأغضب إن تأخر.. كان يغيب فلا أعرف متى يعود.. يقولون الانتظار يجدد اللهفة، لكنه متعب.. تصوري، أنا لم أدخل داره.. حتى يوم مات رفيق لم أذهب للعزاء.. خفت أن تطردني زوجته، ومن نظرات الاتهام في عيون النساء. حتى وهو

ميت وقف يمينه، بأن يظل الزواج سرا، بيني وبين تابوته.. حرمني أن أرتمي فوقه وأبكي وأنوح مثل أرملة... تأخر في ذلك اليوم على غير عادته.. وعد أن يأتي بعد صلاة العصر فانتظرته إلى المغرب.. وهو لم يخلف وعده أو يتأخر أبدا.. تهت في الشوارع لا أعرف من أسأل.. أحيانا ترى في عيون الآخرين ما يخفونه عنك فتتجاهله، لأنك لا تريد أن تفهم... وفي عيون من أعرف شفقة حيّرتني.. وباب داره مغلق، فزوجة ابنه تركت الدار بعد موت زوجها.. القندلفت على باب البطريركية، حزن على حيرتي، قال: البقية في حياتك.. نجهز له جنازة كبيرة عصر الغد.

أية حياة إذا سحبوا الروح من الجسد؟ وماذا تعني جنازة كبيرة أو صغيرة والموت واحد؟ يخفف الناس حسرة الموت وقسوته، بالتعزي بأشياء صغيرة.. جنازة وأكاليل وقبور حجر أو رخام، مظاهر تريح الأحياء دون أن تغير الحقيقة.

بعد انتهاء عزاء ابنه جاء.. دموعه بللت حضني.. وابنه مثله مات بلا إشارة أو مرض.. نام وما قام. قال: يا ميلادة أنا والدنيا ظلمنا رفيق.. عاش ومات غريبا ويتيما. قلت: أنا اليتيمة، رفيق عاش تحت جناحك، لم تبخل عليه بشيء.. فبكى واهتز مثل ريشة وقال: أبوك

هاجر إلى بلاد بعيدة.. بينك وبينه بحر، ومراكب وسفر.. وبيني وبين رفيق بحر من الجفاء والبعد ونحن تحت سقف واحد.. ليست الغربة بعد البلاد.. الغربة بعد الأرواح.

قلت لو لم يقيدنا ذيميانوس باليمين، وأنجبت لك ولدا لعوضك عن رفيق!

رفع رأسه من حضني، مسح دموعه وأمسك يدي: تركتك تجربين.. لكنها إرادة الله.. كنت أراك حائرة بين الأطباء والنذور وزيارة الكنائس والمساجد، تحاولين فيتقطع قلبـــي.. أتعرفين؟.. قلت، لو كتب الله أن تحملي فسآخذك إلى بلاد بعيدة لا يعرفنا فيها أحد، وأخلع ثوب الكهنوت، ولن أحرمك الأمومة ويكفي ما تحملت.. لكنها إرادة الله.

صرخت: يعني طول الوقت عارف وساكت؟

وضع رأسي على صدره وقال: لا هروب من إرادة الله، وما قدّره علينا.

تائه وغير مصدق عاش بعد موت ابنه.. سنوات ثم لحق به.. تركني.. كل من أحببتهم رحلوا دون أن يفكروا بــي.. أبــي لحق أحلامه في التشيلي وتركني صغيرة.. وأخواي تركاني في البلاد وحيدة، وأقسما أن الحق بهما إلى امريكا، لكنهما عادا فعشنا غرباء ونحن في مدينة

واحدة وحوش واحد.. حتى هو، دمره موت رفيق فلحق بابنه وتركني.. لم يفكر بأنني سأعيش تائهة بعده.. حياتي قبله بسيطة، أرضى بما تأتي به الدنيا لأنني لا أعرف.. وشو الحرمان؟! أن تعرف ولا تطول!.. وهو علمني الحياة ثم راح.. اختفى فجأة بلا إنذار، فاهتزت الدنيا وطوّحت بـــي مثل زلزال لا يتوقف.. رأسي يلف ولا أدري ما أفعل بنفسي.. تركني فأحسست أنني غريبة عن حالي.. حياتي معه غيرتني فلم أعد أنا.. بعد موته لم أعرف على أية صورة اكون ليقبلني من حولي.. علمني الكلام الكبير على الستّات.. معه شفت وعرفت.. غلط أو صح؟ مش عارفة.. لكن لم يعد لي مكان في الاستقبالات.. سحبني من عالم الستّات، فلم أعرف كيف أرجع، أو حتى أن أعود إلى طبيعتي قبله! في حياته لم أكن بحاجة لأحد.. لكن بعد موته صرت وحدي.. عارفة شو يعني وحدي؟ كان لا يمل ولا يتوقف عن تعليمي وتدليلي ونحن نلف البلاد.. ثم فجأة اختفى.. مات.

لم تدهش لمقاطعة جرس الباب.. وبفرح التمعت عيناها.. ومن الحزن خطفتها ابتسامة. وكأنما انتظرت الطارق أطلت على الحوش، ودعته للدخول... زاد تعجبـــي وحيرتي.

– جارنا أبوعيسى.. سواق المطران.. سيحمل

الأشرطة ويمر بها عن الجسر.. سألته أن يساعدنا فقبل.

طوقتها بفرح المفاجأة وذهولي، فابتسمت في ود.

واشرطة الفيديو صغيرة الحجم ارتاحت ملامح الرجل.

- ستمر بإذن الله ولن ينتبه أحد.. عادة لا يفتشون سيارة المطران في الخروج.. وأحيانا تفتيش عادي ودون تدقيق.. لا تخافي.. رتبيها في شنطة صغيرة وغطيها بملابسك. سيغادر المطران القدس غدا بعد الظهر.

وشكري تواصل.

- أقل واجب.. ومن يتأخر عن خدمة قضيتنا.. وما دام الفيلم عن القدس، فواجب كل شخص أن يصل به إلى الناس.

أعطيته العنوان.

- ولا يكون لك فكر.. إطمئني.. لن يعرف أحد عن الأشرطة حتى المطران.. وستصل سالمة.. المهم أن يكون الفيلم حلوا ليشاهده العالم كله.

صراخ فرحي عانق ابتسامتها حين خرج.. وطافح وجهها بسعادة من له اليد العليا.

- عملتها مفاجأة.. قلت لن يضيع تعبنا كله، وسيأخذ

اليهود الأشرطة ليعرفوا ما فيها، وأكيد سيصادرونها، سألت جارنا، وهو نازل طالع بالمطران على الجسر، ليدلني على طريقة لتهريبها، فأصر أن يساعدنا.. لا يمكن أن تخسري تعبك كله!.. وبعدين.. أريد ان أرى هذا الفيلم، لو بقي لي عمر.

تمنيت لها طول العمر.

لم تقترب العمّة من المقلوبة.. اكتفت بقليل من اللبن والخيار.

صامتة قامت إلى مكتبة أخيها إبراهيم فتبعتها.. ومن الخزانة الأخيرة أخرجت ملف أوراق الخوري متري الحداد.

وخوفي صقيع تجمّدت أوصالي.. هل ستلاحظ عبثي بها؟

لم تفتح الملف.. مدته.

– في الأوراق قصته مع ابنه رفيق، ومع الدنيا، وعن قضايا البلاد.. خذيها.. وإذا كانت تصلح لفيلم اعمليها.. مرات كثيرة قال لي.. الأفلام حياة ثانية لمن تحكي عنهم.. الأشخاص يذهبون، لكن تبقى الأفلام تذكر الأجيال بحياتهم وقصصهم.... وقصته هي حكاية القدس كلها.

ضاع الكلام.. عانقتها فحضنتني. وتأثرت لدموعي.

– سيكون فيلمي القادم عن حياته، وفي أقرب مما تتصورين.

– سأصلي أن يمد الله في عمري لأراه.. لكن.. لا تعتمدي على الصلوات وتتأخري.. أحيانا لا تستجيب السماء دعاء قاصديها، أو تتأخر في استجابته.

ابتسمنا.

– شوفي.. بعد النكبة وفي حسرة الناس، أضأت شموعا بعدد شعر رأسي، وصليت، قلت يا الله لا تعيد ما شافناه في ثمانية وأربعين، فأعادها في سبعة وستين، ومن يومها والناس في مشاكل بين العرب واليهود.. فكرك لما طلبت كان باب السماء مسكّر؟! أتصدقين؟! كثيرا أسأل نفسي، لو كانت أبواب السماء مفتوحة دائما، فلماذا لا يعم السلام،
والملل تدعو الرب كل يوم لتنتهي الحروب وبلاويها؟ هل تغلق السماوات أبوابها؟ أو تفتحها قليلا؟ وبعدين.. لو أبواب السماء مفتوحة دائما؟ كيف امتلأ العالم بالظلم والفقراء والمسخّمين؟ مع أنهم أكثر من يصلي ويصوم، ويقدّم النذور؟!

والعمة تتوهج بأفكارها ضحكنا.

- أعرف أن عائلة أبو نجمة تريد أوراق أبـي لتهاجر، يتصلون بـي ليسألوا عنها.. وكثيرا قلت إنني لا اذكر مكانها.. لكني أخفيتها عنهم ليظلوا في بلادهم، وعن الإسرائيليين حتى لا يفرحوا بهجرتنا.. قولي لهم ميلادة حرقت الأوراق حتى لا ينتهي اسم عائلة أبو نجمة من البلاد، ويروح منكم حتى بيت الوقف.

شمس القدس أعلنت نهارها.. والعمّة بفستانها الرمادي استعدت للخروج.. ورائحة البخور في ثيابها. شربنا الشاي بالنعناع.

أجر حقيبتي رافقتني إلى ساحة عمر بن الخطاب القريبة، وإلى سيّارة أجرة تنتظر.

شف صوتها إذ تناول السائق حقيبتي:

- الاوراق أمانة.. حافظي عليها، ولا تتأخري في الوعد.

مسحت دمعة عن خدها، وفي صدرها دفنت بكائي.

هادئ صباح القدس الباكر في يوم الجمعة.. وموحشة صفوف دكاكين مغلقة يتثاءب الصباح على أبوابها.. شوارع خالية متوجسة، وخيّالة وعسكر، وحواجز تفتيش سابقت المصلين إلى دروب الأقصى وأبوابه.

وثقيل صباح مدينة يجبرني على فراقها ولا خيار.. وسكون الأزقة يشي بالحذر، وربما مواجهة بين طرفين، يتربص كل منهما بالآخر، ويتوقع منه ما لا يعرف.

شكر واجب

يسطع الإلهام من كلمة، وتتداعى الأفكار من وثائق حقّقها آخرون، فتعربش الرواية على أغصان التاريخ ليرفدها بيقينه.. ثم تغدو أحداثه مراجيح لخيال يعلو على حقيقة ما جرى ودار، من ذاك الصراع المقدس والإنسي، في مدينة منذورة لله منذ كانت.

وبعظيم الامتنان، أثمّن الجهد والوقت والملاحظات القيّمة، من كل من الصديقين، الناقد الكبير د. فيصل درّاج، والباحث الاجتماعي د. فايز صيّاغ.

وأزجي شكري لكل من منحني وقته، واجاب على تساؤلي، وسهل لي البحث والاطلاع، أثناء زياراتي للقدس، ومنهم.. المؤرخ ناجح بكيرات، والمطران سهيل دواني وعائلته، والأديبان محمود شقير وعيسى عيسى قواسمة.

من مراجع اتكأ الخيال الروائي إلى بعض وقائعها التاريخية:

- القدس 1948- الأحياء العربية ومصيرها. سليم

تماري. وزارة الثقافة الفلسطينية.

- الحياة الاجتماعية في القدس في القرن العشرين – صبحي سعد الدين غوشة– وزارة الثقافة– فلسطين

- النخبة المقدسية– علماء المدينة وأعيانها– عادل مناع– حوليات القدس– العدد الخامس–2007–"9"

- مدينة القدس وجوارها– أواخر العهد العثماني 1831–1918. د. زياد عبد العزيز المدني

- عام الجراد – الحرب العظمى ومحو الماضي العثماني– سليم تماري..مؤسسىة الدراسات المقدسية

- تاريخ كنيسة أوروشليم الأورثوذكسية– شحادة خوري ونقولا خوري– د. رؤوف أبو جابر

- يوميات خليل السكاكيني– 8 أجزاء – مؤسسة الدراسات المقدسية

- القدس العثمانية في المذكرات الجوهرية – سليم تماري– عصام نصار مؤسسة الدراسات المقدسية

- القدس الانتدابية في المذكرات الجوهرية – سليم تماري– عصام نصار– وزارة الثقافة الفلسطينية

- موسوعة أعلام فلسطين. ج1–ج3– محمد خير حمادة – دار الوثائق، وزارة الثقافة الفلسطينية

[1] صك الملكية العثماني.

[2] حاكم القدس العثماني.

[3] المزمور الثامن والستون

[4] عائلتي جودة ونسيبة، وبعد ضم الضفة الغربية إلى الأردن، تكفلت الحكومة الأردنية بهذا.

[5] بقاء الحال على ما هو عليه.

[6] البروتوستانت تعني المحتجّين على تسلط الكنيسة الكاثوليكية، أسسها الراهب الألماني مارتن لوثر بعد انشقاقه عنها، وإليهم ينتمي معظم الألمان.

[7] عام 1967.

[8] عبد القادر الحسيني.

[9] عام 1925.

[10] عام 1939.

[11] صفقة البرتقال لتسوية أملاك روسيا في القدس 1964.

[12] الغجر

[13] عام 1947.

[14] النادي العربـــي الأرثوذكسي.

[15] احتفال يغسل فيه البطريرك أرجل صغار الكهنة تواضعا كما فعل المسيح مع حوارييه قبل القبض عليه ومحاكمته.

[16] الأمير فيصل بن الشريف حسين بن علي.

[17] موسى كاظم الحسيني.

[18] راغب النشاشيبـــي.

[19] عام 1908.

[20] عملة عثمانية تقدر بفلس.

[21] 26-9-1892 افتتح الخط بأول قطار.

[22] نشر بالإنجليزية العام 1925.

[23] 1916-1917.

[24] أيار- مايو- العام 1916.

[25] الخلافة العثمانية نهاية حكمها.

[26] مناظير.

[27] مسجلة.

[28] الكوليرا.

[29] الأثرياء.

[30] نهر الأردن.

[31] عام 1922.

[32] زلزال عام 1927، وقد أزيلت الدعامات ورمم المدخل بعد احتلال إسرائيل للقدس 1967.

[33] الوكالة اليهودية لشراء الأراضي.

[34] النبــي يحيى.

[35] الجير أو الكلس.

[36] نجيب الريحاني.

[37] الأميركان كولوني في الشيخ جراح، نظمها المجلس الإسلامي الأعلى لجمع تبرعات لترميم الآثار الإسلامية.

[38] العاطلون عن العمل، والأقل حظا.

[39] أعلام عليها شعار لعائلة أو حزب.. في هبة البراق 1929، حمل الكشافة الإسرائيليون البيارق وأنشدوا هتكفاة. "الأمل" النشيد الوطني الإسرائيلي.

[40] عام 1936.

[41] 1929.

[42] عبد القادر الحسيني.

[43] شقق للأنس والسهر.

[44] عام 1856.

[45] مرسوم سلطاني.. وهمايون طائر أسطوري فارسي يعتقد أنه إذا حط على شخص، أو جلس تحت ظله أو مر فوقه رفع من قدره ومكانته وجلب له المكانة العالية والسعد.

[46] ضابط مسؤول عن مئة نفر أو أكثر.

[47] قناتا فالوب.

[48] الزائدة الدودية.

[49] مكان في صدر الكنيسة مخصص للكهنة أثناء الصلاة. ويواجه المصلين كما منبر.

[50] جبل قرب مدينة أريحا.

[51] الشلل.

[52] الشاهدان.

[53] الثورة البلشفية الثانية بقيادة لينين فبراير شباط 1917.

[54] القديس جورجيوس أو الخضر.

[55] المشوي.

[56] اليهود الشرقيين الذين سكنوا البلاد العربية، ويعاملون كطبقة ثانية في إسرائيل، لأنهم أقل تحضرا ومدنية من الأشكناز، يهود العالم الغربـي.

[57] بين حارتي المسلمين والنصارى

[58] المشيمة.

[59] مجمع كنسي.

[60] البشلك خمسة قروش عثمانية.

[61] نسبة إلى السلطان التركي عبد الحميد الثاني الذي أمر بفتحه عام 1886.

[62] صخرة صلى عليها المسيح ليلة القبض عليه، أن" ارفع عني هذا الكأس، ليس كما أريد أنا، بل كما تريد أنت".

[63] كنيسة الجسيماني وبيتيت بداية القرن العشرين.

[64] متحف توبكابـــي أو قصر السلاطين.

[65] 1929 دخلت الكهرباء إلى الأقصى.

[66] الملك عبد الله الأول بن الحسين مؤسس المملكة الأردنية واغتيل في الحرم 1951.

[67] مفردها بقجة. صرة قماش تلف فيها الملابس وعطايا الإرساليات تبرعا لفقراء الطوائف.

[68] الحواريون.

[69] يهوذا الإسخريوطي الحواري الذي سلّم المسيح لليهود بثلاثين من الفضة، والإشارة قبلة منه ليميزوه من بين الحواريين، فصارت قبلة يهوذا عنوانا للخيانة.

[70] جمع قلنسوة، غطاء الرأس الأسود لكهنة الروم الأرثوذكس.

[71] يوازي مجلس النواب، أعضاؤه يمثلون المدن الكبرى من أمصار الخلافة، وانتخب الزهراوي عن مدينة حمص.

[72] معاهدة كامب ديفيد مع مصر، ووادي عربة مع الأردن ثم اتفاق أوسلو مع الفلسطينيين.

[73] إبراهيم لاما.

[74] مكسّرات.

[75] هبّة البراق 1929.

[76] منحت لسكان القدس العربية وبعض جوارها مما يطلق عليها القدس الكبرى، ويعامل حاملها كمواطن إسرائيلي له جميع حقوقه من تأمينات وغيرها.

[77] الحزب العربـــي الفلسطيني 1935 برئاسة الحاج أمين الحسيني.

[78] قبر المسيح حسب الاعتقاد المسيحي

[79] من عائلتي جودة ونسيبة.

[80] أحد الحواريين الإثني عشر، شكك في قيامة المسيح فظهر له كما يروي الإنجيل.

[81] القرن العشرون.

[82] ديسمبر.

[83] في الثامن عشر من كانون الأول العام 1917.

[84] عام 1947.

[85] 1938-1-31. النحاس باشا مؤسس حزب الوفد، ورئيس وزراء في مصر.

Table of Contents

ترانيم الغواية
ترانيم الغواية
الحقوق
ومن هو ضعيف في الإيمان فاقبلوه.. لا لمحاكمة الأفكار
مدينة الملك العظيم
حوش أبو نجمة
كاسات الهواء
صفقة البرتقال[11]
ابن العم بينزل عن الفرس
العشق الحرام
الحاكم بأمر الله
مسيّا المنتظر
عام الجراد
الآباء يأكلون الحصرم
سانتياغو
مكتبة الأسرار
مدينة القسوة
قصة عادية

العشق المحرّم
من أوراق الخوري متري الحداد الشهر الرابع
من سنة ألف وتسعمائة وأربعين ميلادية
من أوراق الخوري متري الحداد لا تاريخ عليها
أو ترقيم، كأنما كتبها قبل مذكراته وأضافها.
من أوراق الخوري متري الحداد
بنت اليهودية
ندى بنت حبيب
قيس ويمن
من أوراق الخوري متري الحداد الشهر
الخامس من العام 1940
باب الهوى
شعرات الرسول
من أوراق الخوري متري الحداد آذار 1931
شمشون ودليلة
خصام الكفر
من أوراق الخوري متري الحداد 1933
من أوراق الخوري متري الحداد بلا تاريخ
حياة ثانية
شكر واجب